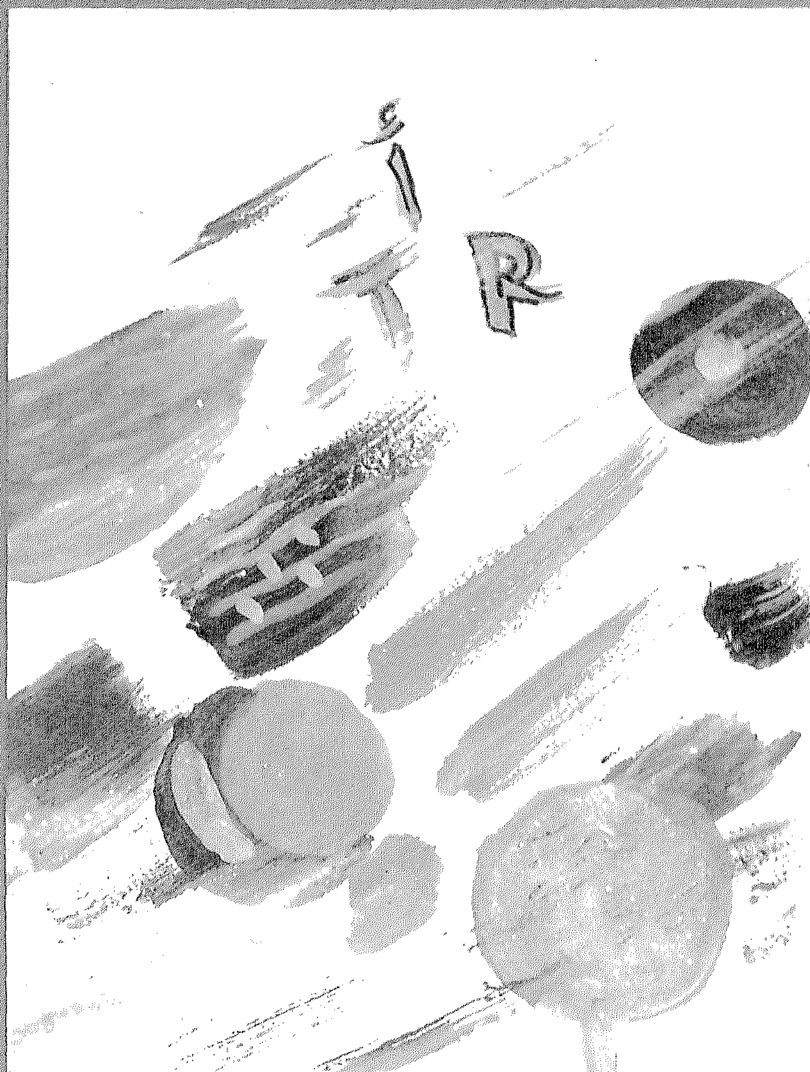
اتحاد الكتاب العرب

هجرة النصوص



دراسة

هجـــرة النصـــوص

دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي

د. عبده عبود

هجرة النصوص

دراسات في الترجمة الأدبيّة والتبادل الثقافيّ

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥

تصميم
الغلاف
الفنان
أنور رجا

محتويات الكتاب

*

١. توطـــئة :

كانت الترجمة الأدبية على امتداد التاريخ الثقافي للإنسانية ، ومـذ وجدت آداب قومية مكتوبة بلغات مختلفة ، هي الشكل الأبرز للعلاقات التي نشأت بين تلـك الآداب . فمـن خلالها كـان كـلّ شـعب يتعـرف آداب الشعوب الأخرى ، فيستمتع بها جماليّاً ، ويستقي منهـا معلومـات وفيرة حول الواقع الاجتماعي والحضاري لتلك الشعوب . وكـان الـدور الذي مارسته الترجمة الأدبيـة دوراً تجديدياً باستمرار . فالشـعب الـذي يسـتقبل آداب الشـعوب الأخـرى ويسـتوعبها يطّلـع علـى مـا في تلـك الآداب مـن أشـكال وأسـاليب وتقنيـات وأجنـاس أدبيـة ومـن مواضيـع ومضامين وأفكار ، فيتأثر بها إلى هذا الحدّ أو ذاك ، ممـا ينعكـس تجديديـاً علـى الأدب المستقبل الـذي أتيحـت لـه فرصـة الاسـتفادة مـن الآداب الأجنبية المستقبلة فنياً وفكرياً . أمّا الأدب القومـي الـذي يتقـاعس أهلـه ويقصّرون على صعيد الترجمة الأدبية فيعيش في حالة اكتفاء ذاتـي ، لهـذا السبب أو ذاك ، مثلما كانت حـال الأدب العربـي حتـى أواسـط القـرن التاسع عشر ، فإنه يحرم نفسـه مـن فـرص التجديـد الفـني والمضمونـي ، ويتأخر عن الآداب الأخـرى ، فيفقـد مكانتـه في ركـب الأدب العـالمي . وخير دليل على ذلك هو تاريخ الأدب العربـي . فقـد شـهد هـذا الأدب مرحلـة طويلـة مـن الانحـدار والتقهقـر، وذلـك إبـان العصـر العثمـاني ــ المملوكي ، إلى أن أخذت الحياة تدبّ مـن جديـد في أوصالـه في النصـف الثاني من القرن التاسع عشر مع بداية ما يُعرف بعصـر النهضـة ، ذلـك العصر الذي اتسم بظهور حركـة ترجمـة أدبيـة واسـعة النطـاق ، نقـل في سياقها العديد من الآثار الأدبية الأجنبية والأوروبية على وجه الخصوص، إلى العربية ، وأشرعت أبواب الثقافة العربية على المؤثرات الأجنبيـة ، ممـا

ساهم في حصول أكبر عملية تجديد فني وفكري عرفها الأدب العربي على امتداد تاريخه الطويل .

فالترجمة الأدبية إذن ظاهرة ثقافية على درجة كبيرة من الأهمية . إلاّ أنّ هذه الظاهرة ظاهرة إشكاليّة ومثيرة للجدل . فمذ وُجدت الترجمة الأدبية وُجد الخلاف حول جودتها ، أي حول مدى التكافؤ أو التناظر بين الترجمات وبين النصوص الأدبية الأصلية أو الأجنبية . لقد استتبع ظهور الترجمة الأدبية ظهور جهود رامية إلى غربلة الترجمات وتقويمها وفصل الجيّد عن الرديء منها ، أي ظهور نقد الترجمة . ومن الملاحظ أنه قلّ أن سلمت ترجمة أدبية من النقد ، إن بصورة مكتوبة ، مثلما فعل الناقد العربي اللبناني ميخائيل نعيمة بصورة مبكرة في كتابه " الغربال " ، حيث تناول ترجمات لمي زيادة وخليل مطران بصورة نقدية ، أو بصورة شفهية ، مثلما يحدث في المجالس الخاصة التي كثيراً ما يتعرض المشاركون فيها بالنقد لترجمات أدبية ، ولكنّ ذلك النقد لايكتب ولايُنشر لهذا السبب أو ذاك . لقد ثارت حول الترجمة الأدبية معارك نقدية كثيرة ، كانت المجلات والصحف العربية منابرها ومسارحها ، بحيث يمكن القول إنّ نقد الترجمات الأدبية قد شكل جانباً هاماً من النقد الأدبي الحديث في العالم العربي.

والترجمة الأدبية ليست طريقاً وحيدة الاتجاه ، تنطلق من لغات وآداب معينة لتصب في لغات وآداب أخرى ، ولايجوز أن تكون الترجمة الأدبية مثل طريق من هذا النوع ، لأنّ حركة ترجمة أحادية الاتجاه والجانب هي بالضرورة حركة مشوّهة غير متوازنة تنطوي على خلل ما . فالأدب الذي تكون لغته لغة هدف فحسب ، أي يترجم إليها ولا يترجم عنها ، هو أدب يستقبل ولايرسل ، وبالتالي فهو أدب تابع لايتمتع بعلاقات سليمة ومتوازنة مع الآداب الأخرى . وتلك هي ، لبالغ الأسف، حال العلاقات القائمة بين كثير من آداب شعوب العالم الثالث، المتأخرة اقتصادياً والتابعة ثقافياً ، وبين آداب الأمم المتطورة اقتصادياً والمهيمنة ثقافياً . فنشاطات الترجمة الأدبية تتم في عالم اليوم بين لغات

الشعوب المتطورة (الانكليزية والألمانية والفرنسية والروسية والاسبانية والايطالية والسويدية بصورة رئيسة ، أو عن تلك اللغات إلى لغات الشعوب المتأخرة ، وليس بالعكس . إنّ حركة الترجمة الأدبية في عالمنا المعاصر هي جزء من العلاقات الثقافية الدولية المعاصرة بكلّ ما تنطوي عليه البنى السائدة في تلك العلاقات من تناقضات وهيمنة واختلال في التوازن . فعدد ما يُنقل من أعمال أدبية عن لغات شعوب العالم الثالث إلى لغات الشعوب المتطورة لا يتجاوز نسبة يسيرة من الأعمال الأدبية التي تنقل بين لغات الأقطار المتطورة أو من لغات تلك الأقطار إلى لغات الشعوب المتأخرة . وتنطبق هذه الحقيقة على العلاقة بين الأدب العربي والآداب الغربية . فالأدب العربي يجد نفسه في موقع المستقبِل الآخذ ، أكثر بكثير مما يجد نفسه في موقع المرسِل المعطي ، وهذا أمر يتعارض مع المصلحة الثقافية العربية في أن يتعرف العالم الخارجي إلى الأدب العربي وما يحويه من إنجازات جمالية وما يُتناول فيه من مواضيع وقضايا.

لهذه الأسباب والاعتبارات مجتمعة تستحقّ حركة الترجمة الأدبية من العربية وإليها أن يخصّها الباحثون بمزيد من اهتمامهم ومن جهودهم، وأن يظهروا أوجه الإنجاز والتقصير فيها. والأبحاث التي يحويها هذا الكتاب تصب في ذلك الاتجاه . فهي تسلّط الضوء على بعض جوانب حركة الترجمة الأدبية في العالم العربي بشقّيها التعريبي والتعجيمي . وقد تمحور قسم كبير من هذه الأبحاث على العلاقات الأدبية العربية ـ الألمانية، أي على حركة الترجمة الأدبية بين اللغتين العربية والألمانية ، وذلك لعدة أسباب ليس آخرها أنّ المؤلف قد درس الأدب الألماني الحديث ، وتخصّص في موضوع العلاقات الأدبية الحديثة بين العرب والألمان . إلا أنّ المؤلف يطمح في الوقت نفسه إلى توضيح أمور جوهرية تتعلق بحركة الترجمة الأدبية في الوطن العربي ، وإلى أن يبيّن السبل التي يمكن أن تؤدي إلى الارتقاء بتلك الحركة لتصبح أكثر قدرة على تلبية حاجة الثقافة العربية إلى استقبال الآداب الأجنبية من جهة، وإلى تقديم الأدب العربي للشعوب والثقافات الأجنبية من جهة أخرى ، وذلك في

زمن تحوّل فيه العالم إلى قرية كونية . إنّ المجتمع العربي بحاجة شديدة لأن تمارس حركة الترجمة الأدبية دورها المزدوج هذا ، وذلك من خلال نقل أفضل ما في الآداب الأجنبية من أعمال إلى اللغة العربية لسيتفيد منها المتلقّون العرب جمالياً وفكرياً وإبداعياً ، وعبر نقل أفضل ما في الأدب العربي من أعمال إلى اللغات الأجنبية ، لتتمكّن الشعوب الأجنبية أيضاً من أن تستقبل الأدب العربي وتستفيد من إنجازاته الجمالية والفكرية ، ومن أن تكوّن لنفسها صورة صحيحة عن العرب وثقافتهم.

وأخيراً وليس آخراً نأمل أن تحفز الأبحاث التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه الباحثين العرب الآخرين المتخصصين في الآداب الأجنبية المختلفة لتقديم مزيد من الدراسات حول حركة الترجمة الأدبية في الوطن العربي بشقّيها التعريبي والتعجيمي . فهذا الميدان الثقافي الهامّ الشاسع يستحق أن يُبذل فيه مزيد من الجهد . ومن البديهي أن تنطوي الدراسات التي يحويها هذا الكتاب على اجتهادات شخصية ووجهات نظر ذاتية ، من حق الآخرين أن يقبلوا بها أو أن يرفضوها كلياً أو جزئياً. فهذا أمر جدّ طبيعي في الدراسات الأدبية والنقدية . فقد كان الاختلاف في الرأي والاجتهاد المصدر الأكبر لإغناء تلك الدراسات ولتقدمها ، ناهيك عن أنّ أدب الاختلاف مكوّن من مكوّنات تراثنا الثقافي ، وحقّ من حقوق الإنسان . ولعلّ أثمن " تغذية راجعة " يقدّمها القارئ للمؤلف هي أن يعبّر عن رأي مغاير بطريقة موضوعية متحضّرة . أليس القائل : " رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوب نفسي " ! واحداً من أبناء جلدتنا ؟

□□□

٣ ـ الثقافة العربية وقضية الترجمة

١ ـ موقفان متعارضان

لانظنّ أنّ هناك من يمكنه أن ينكر أهمية الدور الذي تضطلع به الترجمة في الحياة الثقافية لعربية المعاصرة . فإطلالة سريعة على ما يصدر في العالم العربي من كتب ومجلات وصحف ، وعلى حجم الترجمات ونسبتها فيها ، تكفي لإقناع أيّ متشكّك بأنّ الترجمة قد باتت مكوّناً أساسياً من مكونات حياتنا الثقافية ، بحيث لايغالي المرء إذا قال إننا نعيش في " عصر الترجمة " (١) . ولكن إذا صحّ أنّ الترجمة قد رسخت أقدامها في الواقع الثقافي العربي ، وتحوّلت إلى حقيقة من حقائقه الموضوعية ، التي لايستطيع أحد أن يتجاهلها ، فإنّ الآراء متضاربة حول تقييم الدور الثقافي الذي تمارسه تلك الظاهرة . فهناك من يقيّمها تقييماً إيجابياً ، معتبراً إيّاها مكسباً كبيراً للثقافة العربية ، ورافداً أساسياً من روافدها ، وأحد مظاهر حيويتها وغناها وانفتاحها على الثقافات الأخرى ، ولكن هناك بالمقابل من يقيّم دور الترجمة في الثقافة العربية تقييماً سلبياً ، فيرى فيها مصدراً رئيسياً لغربتنا الثقافية وصورة من صور التغلغل أو الغزو الثقافي الأجنبي ، وبالتالي خطراً على ثقافتنا وهويتنا الحضارية . ومع أنّ أنصار هذا الموقف قلّ أن يجاهروا بموقفهم هذا ، وذلك لصعوبة الدفاع عنه ، ولكي لايظهروا أمام الرأي العام العربي كانعزاليين رجعيين ، فإنّ هؤلاء الناس موجودون ، وهم يمارسون موقفهم هذا بصورة عملية من خلال المواقع الثقافية التي

يحتلونها . ومن الطبيعي أن تترتب على هذين الموقفين المتضاربين من الترجمة ودورها الثقافي نتائج عملية متعارضة . فبينما ينادي الفريق الأول بتشجيع الترجمة ورعايتها وتوسيع دورها وتعميقه ، يحاول الفريق الثاني أن يكبح حركة الترجمة ، وأن يحدّ من تأثيرها ، ويحصرها في أضيق نطاق ممكن ، بغية تطويق إشعاعها الثقافي . ومن المؤكّد أننا نبسّط الأمور بشدة إذا قمنا بالربط بين هذين الموقفين المتضاربين من الترجمة وبين موقفين أو تيارين فكريين ، كأن نقول إنّ مؤيدي الترجمة وأنصارها هم عموماً من التقدميين ، وأنّ خصومها هم بوجه عام من الرجعيين أو المحافظين . فنحن نجد بين التقدميين من يعارض الترجمة بقوة ، ونجد في صفوف المحافظين من يؤيدها ويتحمس لها بقوة أيضاً . فالتصنيفات الإجمالية خاطئة وغير مجدية على هذا الصعيد . إلاّ أنّه من غير الممكن تجاهل حقيقة أنّ تأييد الترجمة ومعارضتها لايصدران بالضرورة عن موقفين إيديولوجيين متعارضين ، وإنما عن موقفين متضاربين من قضايا الثقافة ، ومن العلاقات بين الثقافات . فأنصار الترجمة يرون أنّ الثقافة القومية (العربية) تغتني بالتفاعل مع الثقافات الأجنبية ، وباستيعاب ما تحويه تلك الثقافات من إنجازات وكنوز ، وهم لايرون أية غضاضة في الأخذ بما هو أجنبي مادام ذلك يؤدي إلى إغناء ثقافتنا القومية وتطويرها . إنهم ينطلقون في ذلك من موقف الانفتاح على الآخر ، ومن ضرورة التواصل معه ، ولايرون في الآخر خطراً يهدد الثقافة القومية ، بل نداً ينبغي محاورته وإجراء تبادل ثقافي معه.

وبصورة ضمنية ينطلق هؤلاء من ثقة بالنفس ، وبالهويّة الحضارية القومية ، التي لايخشون تعريضها للتفاعل مع الثقافات الأخرى ، لأنها في رأيهم ، تصمد لذلك التفاعل ، لكونها لاتقلّ عن تلك الثقافات أصالة وإنجازات ورسوخاً . وهم يرون أيضاً أنّ التقوقع الثقافي يعبّر عن نقص في الثقة بالثقافة القومية ، وعن قناعة ضمنية بأنها غير قادرة على محاورة الثقافات الأخرى من موقع النديّة .

أمّا خصوم الترجمة ومنتقدوها فهم ينطلقون غالباً من موقف الاعتداد الشديد بالثقافة القومية ، وهو اعتداد يجعل صاحبه يعتقد أنّ ثقافته متفوقة على سائر الثقافات ، وبالتالي فلا حاجة إلى التفاعل أو التبادل بين الثقافة القومية والثقافات الأخرى . وقد ساد هذا الموقف في الثقافة العربية إلى أواسط العصر العباسي ، وأدى إلى إحجام العرب عن الترجمة بوجه عام ، وعن الترجمة الأدبية بصفة خاصة ، وهو أمر نعرف نتائجه ، وليس أقلها تأخر ظهور أجناس أدبية رئيسية في الأدب العربي.(٢) ولكنّ هؤلاء المناهضين للترجمة قد ينطلقون من موقف الجزع الشديد على الثقافة القومية والحرص الشديد عليها ، لاعتقادهم أنها لاتصمد في المواجهة مع ثقافات متفوقة مهيمنة . وقد قوي هذا التيار بعد أن غزا الاستعمار الأوروبي الوطن العربي عسكرياً ، وهيمن عليه سياسياً واقتصادياً ، وسعى لأن يفرض عليه سيطرته الثقافية واللغوية . وعندما يقف ممثلو هذا التيار موقفاً متحفظاً من الترجمة ودورها الثقافي، فإنّ موقفهم هذا يشكّل جزءاً من موقفهم مما بات يعرف بـ" الغزو الثقافي " الذي يخشون أن تكون الترجمة صورة من صوره . ولكن مهما تكن الدوافع والخلفيات الفكرية لمعارضي الترجمة والمتحفظين على دورها الثقافي ، فإنّ النتيجة العملية المترتبة على هذا الموقف واحدة تقريباً ، ألا وهي الدعوة إلى نوع من " الاكتفاء الذاتي " الثقافي والإعراض عن التفاعل والتبادل والتواصل مع الثقافات الأخرى . فالترجمة هي القناة الأولى لكلّ تفاعل ثقافي.

٢ - حجج الطرفين

عندما يدافع أنصار الترجمة عن هذه الظاهرة الثقافية فإنهم يعيدون إلى الأذهان كلّ تلك الأعمال والمؤلفات الأدبية والفكرية والعلمية الأجنبية ، التي لايتصور أحد منّا ألا تكون مترجمة إلى العربية . فمن منا يقبل بألاّ تحوي المكتبة العربية ترجمات لأعمال أقطاب الأدب العالمي من أمثال شكسبير وغوته وهيجو وديستويفسكي وتولستوي

وبريخت وغيرهم من الأدباء الأجانب ، الذين يعدّ من لم يتلقّ شيئاً من آثارهم جاهلاً ؟ ومن منا يتصور أن تخلو المكتبة العربية من ترجمات لمؤلفات كبار الفلاسفة في العالم ، من أمثال أرسطو وهيجل وكانت ونيتشه وماركس وسارتر أو من ترجمات لمؤلفات أعلام علم النفس والاجتماع والتربية العالميين ، من أمثال فرويد ويونغ وديوي وفيبر ودوركهايم ؟ أو من ترجمات لكتابات علماء طبيعة من أمثال داروين وهايزنبرغ وأينشتاين ؟ لانظنّ أنّ هناك من يتصور أن تفتقر المكتبة العربية إلى آثار ومؤلفات أدباء فلاسفة ومفكرين كهؤلاء ، وحتى أولئك الذين يخالفون بعضاً منهم الرأي ، كما هي الحال بالنسبة لماركس وفرويد وداروين ونيتشه على سبيل المثال ، فإنهم يحبذون أن تكون مؤلفات هؤلاء المفكرين والعلماء منقولة إلى العربية ، ليتسنى لهم الاطلاع عليها واتخاذ موقف منها . فقبل أن ترفض رأياً أو فكراً لابدّ لك من الاطلاع عليه ، وهذا ما تهيّؤه لك الترجمة . ويذكّرك المدافعون عن الترجمة بالدور التجديدي الكبير الذي لعبته هذه الظاهرة في تطور الثقافة العربية خلال الفترات التاريخية التي ازدهرت فيها ، أي في العصر العباسي وفي عصر التنوير والنهضة . فالثقافة العربية في عصرها الذهبي الأول ، أي في العصر العباسي ، ما كانت لتزدهر على هذا الشكل ، لو لم تستوعب كثيراً من عناصر الثقافة الهندية والفارسية واليونانية وغيرها. وفي العصر الحديث ترافقت النهضة الثقافية العربية التي بدأت في واسط القرن التاسع عشر مع حركة ترجمة نشيطة وواسعة في مجالات الأدب والفكر والعلوم . وبالمقابل نجد أنّ الثقافة العربية كانت تتقهقر وتتخلف في كلّ مرحلة تقوقعت فيها وتوقفت عن رفد نفسها بروافد ثقافية خارجية من خلال الترجمة . ويخلص أنصارُ الترجمة من هذا الاستقراء لتاريخ الثقافة العربية إلى أنّ ازدهار هذه الثقافة قد تلازم باستمرار مع ازدهار حركة الترجمة ، وأنّ تؤخرها قد كان متلازماً مع تراجع حركة الترجمة أو توقفها . كما يذكرك أنصار الترجمة بحقيقة أنّ المجتمعات المتقدمة والمتفوقة في عالم اليوم هي مجتمعات تشهد لغاتها نشاطاً ترجمياً كبيراً ، سواء كلغات هدف يترجم إليها ، أم كلغات مصدر يترجم عنها ، أمّا المجتمعات المتأخرة فإنّ النشاطات الترجمية التي تشهدها لغاتها

نشاطات محدودة إذا قورنت بتلك التي تتم في لغات المجتمعات المتقدمة . وخير دليل على ذلك هي البيبليوغرافيا العالمية للترجمات ، (إندكس ترانسلاتوروم) ، التي تصدر سنوياً عن المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (يونسكو) ، ففي رأس قائمة اللغات التي يترجم إليها (أي لغات الهدف) تأتي الألمانية والانكليزية والفرنسية واليابانية والاسبانية ، وفي مؤخرة تلك القائمة نجد لغات شعوب العالم الثالث المتأخرة . ألا يقدم ذلك دليلاً ساطعاً على أنّ ازدهار حركة الترجمة في مجتمع ما يمثل مؤشّراً لتقدمه ، وأنّ ركود حركة الترجمة في أيّ مجتمع هو مؤشر من مؤشرات تخلفه وانحطاطه ؟

أمّا خصوم الترجمة فإنهم يذكّرونك بذلك العدد الكبير من المؤلفات الأدبية والفكرية التي لم تنقل إلى العربية لأنها تستحق التعريب، أو لأنها تعود على المتلقي العربي بنفع أو فائدة ، بل ترجمت لمجرد أنها تمثل " صرعات " أو " موضات " ثقافية في الأقطار الأجنبية المسيطرة . إنهم يسألونك عن الفائدة التي تحققت للثقافة العربية من خلال تعريب مؤلفات الكاتب الانكليزي " كولون ولسون " ذلك الكاتب المغمور في بلاده ، الذي ضخمته إحدى دور النشر العربية ، وحولته إلى عملاق فكري وأدبي. وما هي الفائدة التي جنتها الثقافة العربية من ترويج كتابات الايطالي ألبرتومورافيا ، وما تحويه من أفكار إباحية ؟[٣] أمن مصلحة المجتمع العربي والثقافة العربية أن تنتشر فيه ، من خلال الترجمة ، تيارات فكرية أجنبية ، لاتخدم تقدمه في شيء ، كالوجودية والفوضوية والإلحادية ؟ هل يلبي نشر تيارات واتجاهات فكرية من هذا النوع حاجة ثقافية أو اجتماعية حقيقية للمجتمع العربي ؟

وفي مضمار الترجمة الأدبية يشير خصوم الترجمة إلى رداءة لغة المترجمين وأساليبهم ، التي يغلب عليها اللحن والعجمة ، مما يعزز الانحطاط اللغوي والأسلوبي العامّ الذي يعاني منه الأدب العربي والثقافة العربية . أمّا الأمثلة التي يمكن أن تساق للتدليل على ذلك فهي كثيرة جداً . فالترجمات الأدبية الرديئة لغوياً وأسلوبياً أكثر بكثير من

الترجمات الأدبية الجيدة . ومن يستطيع أن ينكر أنّ تلك الترجمات تساهم في انحطاط الذوق الأسلوبي ، وتؤدي إلى انحدار المستوى اللغوي العام للأمّة ؟!

٣ - ضرورة الترجمة :

ولكن على الرغم من أنّ حجج معارضي الترجمة والمتحفظين على دورها الثقافي تنطوي على شيء من الصحة ، فإنّ هناك حقيقة موضوعية ليس بوسع أحد أن يقفز من فوقها ، ألا وهي أنّ الترجمة ، من حيث المبدأ ، نشاط ثقافي إنساني لاغنى عنه . ففي هذا العالم تعددية لغوية وثقافية ضخمة(٤) ، وفي كلّ لغة من اللغات الكثيرة الموجودة في العالم ثروات أدبية وفكرية وعلمية لمتكلمي اللغات الأخرى مصلحة في أن يطلعوا عليها ويستفيدوا منها ، وهذا يحتم ظهور نشاطات ترجمية بين اللغات المختلفة ، لأنّ الترجمة هي القناة الرئيسة للتواصل والتبادل الثقافي بين الشعوب ، وبدونها لايتمّ تواصل ثقافي ذو شأن ، فالبديل الوحيد للترجمة هو اكتساب اللغات الأجنبية الرئيسة في العالم ، وعددها يناهز المئة ، والاطلاع على الثقافات الأجنبية بصورة مباشرة بعيداً عن الترجمة . ولكنّ هذا الخيار ممكن من الناحية العملية بصورة جزئية فقط، ولنسبة ضئيلة من الناس ، أمّا السواد الأعظم من المتلقين فهو بحاجة إلى الترجمة ، ولايستطيع أن يتواصل بدونها مع الثقافات الأجنبية . صحيح أنّ اللغة الانكليزية قد كُرّست حديثاً لغة تداول وتعامل عالمية (لينغو فرانكا) ، وأنّ تعليم اللغات والآداب الأجنبية قد حقق في هذا القرن قفزات هائلة ، وأصبح ظاهرة ثقافية جماهيرية ، ولكنّ ذلك كلّه لايحلّ مشكلة الحواجز اللغوية والتواصل الثقافي إلاّ بصورة جزئية ، ولم يزل التواصل الثقافي وسيظلّ مرتبطا بالترجمة ، ومتوقفاً عليها إلى حدّ كبير . وعلى ضوء ذلك فإنّ كلّ تخلّف أو تقاعس على صعيد الترجمة يعني بالضرورة تأخراً أو تقاعساً

على صعيد التواصل الثقافي ، يؤدي إلى حرمان المجتمع المتقاعس من فرص الاطلاع على الثقافات الأخرى والاستفادة منها في إغناء ثقافته وتطويرها ، وتكون النتيجة الحتمية لذلك تأخر الثقافة التي يتقاعس أهلها في مضمار الترجمة ، وتخلّفهم عن ركب الثقافة العالمي . ولئن كانت عواقب العزلة الثقافية سيئة في العهود التاريخية القديمة ، فإنّ تلك العواقب قد أصبحت خطيرة في هذا العصر الذي يتغير فيه العالم نتيجة للثورات العلمية ـ التقنية بصورة مذهلة ، مما حوّله إلى "قرية كونية" . فكلّ تخلّف عن مواكبة هذا التطور يجرّ كارثة على المجتمع المتخلف ، وهذا ما نراه في العديد من أقطار العالم الثالث ، التي تخلّفت عن ركب الحضارة العالمي . وما من شك في أنّ الترجمة هي الوسيلة الأولى لمواكبة ذلك التطور . ومن هنا تتأتى أهمية هذه المسألة وخطورتها ، ولانغالي عندما نقول إنّ الترجمة مسألة مصيرية لكل ثقافة ، وبالتالي لكل مجتمع ، وعلى التعامل مع هذه المسألة يتوقف مستقبل ثقافتنا ومجتمعنا إلى حدّ كبير . ومن هنا تنبع أيضاً خطورة المواقف المعارضة للترجمة ، أو المستخفة بها ، والمقللة من أهميتها ، بصرف النظر عن الخلفيات الايديولوجية لتلك المواقف . إلاّ أننا من جهة أخرى لانستطيع أن نتجاهل حجج خصوم الترجمة ، والنواة الواقعية لتلك الحجج . ولابد في هذا السياق من الاعتراف بأمرين : الأول هو أنّ قسماً من الترجمات التعريبية التي تمّت حتى الآن لايلبي حاجة أصيلة وحقيقية في المجتمع العربي وفي الثقافة العربية ، بل لايمت إلى الحاجات الثقافية العربية بصلة . فهو لايعبر سوى عن مزاج أو نزوة مترجم أو ناشر ، وعن تقديرهما الشخصي الذاتي لضرورات الترجمة . وغالباً ما تكون التقديرات وليدة انبهار بالثقافة الأجنبية ، وعلاقة انسلاخية تغريبية بها ، تجعل المترجم يجهل الحاجات الثقافية لمجتمعه ، وغير قادر على تحديد تلك الحاجات بصورة سليمة . ومع أننا لانعتبر الترجمات التي تتمّ على هذا الأساس ضارّه بالمعنى المباشر للكلمة، فإننا نعتبرها غير مجدية .

إنها لاتمثل خطراً علـى ثقافتنا ومجتمعنا ، مثلما يعتقد خصوم الترجمة ، لأنّ المتلقي العربي قادر على تمييز الغث من السمين ، والمفيد من الضار ، ولكنّ هذه الترجمات تنطوي على تبديد لجهود المترجمين والناشرين والمتلقين على حد سواء ، وهي جهود من الأفضل أن توجه إلى أعمال ومؤلفات تعود على المجتمع العربي بفائدة ثقافية . فكل جهد ينفق على نقل أعمال أدبية أو فكرية أو علمية رديئة هو جهد تحرم منه أعمال جيدة تلبي حاجة ثقافية حقيقية ، وتعين الثقافة العربية والمجتمع العربي على التطور . ولذلك فإنّ أول مطلب ينبغي أن يوجه إلى حركة الترجمة في الوطن العربي هو أن يختار المترجمون والناشرون الأعمال والمؤلفات الجيدة والجديرة حقاً بالنقل إلى العربية . فهذا الاختيار ينطوي على مسؤلية ثقافية واجتماعية كبيرة ، وعلى سلامته تتوقف كلّ الأمور الأخرى المتعلقة بالترجمة.

٤ ـ الترجمة والحاجات الثقافية :

ولكن هذا المطلب يفترض أنّ الحاجات الثقافية للمجتمع العربي معروفة ومتفق عليها ، وهذا ليس واقع الحال . صحيح أنّ جهوداً هامة قد بذلت على صعيد تحديد تلك الحاجات ، وأبرزها ما سمي " الخطة الشاملة للثقافة " ، التي وضعها عدد من المفكرين والباحثين العرب بتكليف من " المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم " (أليكسو) ، (٥) ولكنّ تلك الخطّة تمثل تصورات ومقترحات تعبر عن وجهة نظر واضعيها واجتهاداتهم ، ولاتعبر عن إجماع ثقافي عربي . وما من شكّ في أنّ الحاجات الثقافية للمجتمع العربي تختلف من قطر لآخر ، وترتبط بخصوصية كلّ قطر عربي ودرجة تطوره الاجتماعي والثقافي ، ولكن هناك في الوقت نفسه حاجات ثقافية عربية قومية ومشتركة بين الأقطار العربية جميعها ، ومن تقدير تلك الحاجات ينبغي أن تنطلق حركة الترجمة العربية . فكيف نقدّر تلك الحاجات ونحددها ؟ لابد من الاعتراف بأنّ هذه المسألة شائكة وتنطوي على إشكالية كبيرة . فثمة رؤى مختلفة ومتنوعة ، بل ومتضاربة في بعض الأحيان ، لواقعنا

الاجتماعي ـ الثقافي ، ولآفاق تطوره ، وذلك وفقاً للمواقع الاجتماعية والايديولوجية لأصحاب كلّ رؤية . ولئن كان من السهل في الربع الثالث من هذا القرن أن يصنف الناس والقوى الاجتماعية إلى رجعية وتقدمية ، أو يمينية ويسارية ، فإنّ تصنيفاً تبسيطياً من هذا النوع لم يعد مقبولاً في الربع الأخير من هذا القرن ، الذي انهارت فيه إيديولوجيات وأنساق معرفية ، وظهرت قضايا ثقافية وفكرية واجتماعية وبيئية جديدة . ولكن على الرغم من إعادة النظر في المفاهيم والقيم على ضوء ما بات يعرف بـ " المتغيرات الدولية " وتبعاتها الاجتماعية والثقافية ، فإنّ المفكرين والمثقفين العرب ، على اختلاف مشاربهم الفكرية والسياسية والاجتماعية ، قادرون على تحديد القضايا والمصالح الأساسية لهذه الأمّة : اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً . وعموماً يمكن القول إنّ القوى الوطنية الواعية المستنيرة في المجتمع العربي متفقة على أنّ الوطن العربي يواجه تحديات مصيرية على الصعد الاقتصادية ـ الاجتماعية والسياسية والثقافية ، يمكن إجمالها في التخلف والتبعية والاستبداد . ولذا فإنّ الأهداف الاستراتيجية للأمّة العربية في هذه المرحلة التاريخية ينبغي أن تتمثل في التنمية الشاملة ، ومقاومة الهيمنة الأجنبية ، ودمقرطة النظام السياسي العربي . ومن هذه الأهداف الاستراتيجية ينبغي أن تنطلق أية محاولة لتحديد الحاجات الثقافية العربية، ولوضع الخطوط العامة لاستراتيجية أو خطة عربية للترجمة . وعندما تحول تلك الخطة العربية إلى برامج عمل محددة ، يلتزم بها المترجمون والناشرون العرب ، أو يسترشدون بها على الأقل ، تتحوّل حركة الترجمة العربية إلى مقوّم من مقومات النهضة العربية المنشودة.

البعد النوعي للترجمة :

ولكنّ وضع برامج للترجمة انطلاقاً من تقدير سليم للحاجات الثقافية الحقيقية للمجتمع العربى لايكفى بمفرده لتفعيل دور الترجمة في

الثقافة العربية . فبعد اختيار الأعمال الأدبية والفكرية والعلمية الجديرة بالترجمة ، يأتي دور الترجمة بالمعنى المباشر للكلمة ، أي نقل تلك الأعمال من لغات المصدر إلى لغة الهدف بصورة مناسبة ، تتوافر فيها الدقّة والجودة ، معنوياً ولغوياً وأسلوبياً . فأعظم الأعمال والمؤلفات الأدبية والفكرية والعلمية يمكن أن تُمسَخ وتُقزَّم وتشوَّه ، إذا ترجمت بطريقة غير ملائمة . فالتشويه الذي تلحقه الترجمة الرديئة بها يفقدها كلّ تأثير جمالي أو معرفي ، فتتحول إلى عبء على الثقافة العربية ، بدلاً من أن تكون رافداً وإثراء لها . وتكبر هذه الإشكالية في حالة الترجمة الأدبية ، وذلك لأنّ الأثر الأدبي نص لغوي جميل ، يحقق تأثيره الجمالي والفكري من خلال شكله الفني والأسلوبي في المقام الأوّل ، لا من خلال موضوعه أو محتواه . فإذا كانت نوعية الترجمة غير جيدة فإنّ العمل الأدبي يفقد أدبيته وبالتالي تأثيره وقيمته.(٦) والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى . فما أكثر الأعمال الأدبية العالمية ، التي حولتها الترجمة العربية الرديئة إلى نصوص سقيمة لاأدبية فيها ، وليس لها أية قيمة جمالية.(٧) والترجمات الرديئة لاتسيء إلى الأعمال والآثار الأدبية والفكرية والعلمية نفسها ، وإلى الثقافات الأجنبية التي تنتمي إليها تلك الأعمال والمؤلفات فحسب ، بل تسيء أيضاً إلى الثقافة العربية ، التي انتقلت الأعمال والمؤلفات الأجنبية إليها من خلال الترجمة . وعلى هذا الشكل تحرم الترجمات الرديئة الثقافة العربية من فرص التفاعل والتواصل الناجح مع الثقافات الأجنبية ، وتقضي على الدور التجديدي الهام الذي تمارسه الترجمة.(٨) وعلى هذا الشكل يلتقي أولئك المترجمون الذين يقدّمون ترجمات رديئة مع خصوم الترجمة والداعين إلى العزلة الثقافية وإلى سدّ الأبواب أمام كلّ ما يعدّونه " غزواً ثقافياً " . فالمتطفلون على الترجمة ، ممن لايملكون كفاءة لغوية وثقافية وعلمية تؤهلهم لأن يكونوا مترجمين جيدين ، وممن يعتبرون الترجمة " باب رزق " ، لا مسؤولية ثقافية واجتماعية ، هم في حقيقة الأمر أول المسيئين إلى حركة الترجمة العربية ، والمقوضين لدورها الثقافي . ومن هنا تتأتى أهمية ألا نسأل

عما تُرجم فحسب ، بل أن نسأل أيضاً : كيف تُرجم ؟ وذلك لأنّ نجاح الترجمة في أداء دورها الثقافي يتوقف على نوعية الترجمات ودرجة جودتها ، لا على كميتها فحسب . ومن هنا تنبع أيضاً ضرورة التصدي لظاهرة الترجمات الرديئة في العالم العربي . فكيف يكون ذلك التصدي ، وما هي وسائله وأشكاله ؟

٦- وسائل النهوض :

إنّ أول تلك الأشكال والوسائل يتمثل في ممارسة نقد الترجمة بصورة نشيطة ومستمرة ، باعتباره جزءاً هاماً وأساسياً من حركة النقد الأدبي والثقافي . ومن الضروري أن يكون هذا النقد الذي أصبحت له أسس وقواعد ومنهجية ،[٩] نقداً موضوعياً ، لايحابي ولايجامل ولايتملق ولايتعسّف أو يظلم ، وأن يكون نقداً تقيمياً ، يتوصل الناقد من خلاله إلى أحكام واضحة وصريحة فيما يتعلق بنوعية الترجمات ، فيبرز الترجمات الجيدة ، ويثني عليها ليشجع المترجمين الذين أنجزوها ، ويرشد القراء والمتلقين إليها ليقبلوا على اقتنائها ، ويعري الترجمات الرديئة ويفضحها ، ليردع الذين قاموا بها ، وليحذر المتلقين منها . وأشكال نقد الترجمة لاتختلف عن الأشكال الأخرى للنقد ، فهي تبدأ بمراجعات الكتب ، وتنتهي بالدراسات الترجمية المعمقة ، التي قد تكون رسائل جامعية لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه . ولكي يكون نقد الترجمة نقداً قائماً على أسس منهجية وعلمية متينة ، لانقداً انطباعياً أو اعتباطياً ، فإنّ هذا النقد ينبغي أن يمارس من قبل أشخاص تتوافر فيهم الكفاءة اللغوية والثقافية والعلمية اللازمة ، أي أن يمتلكوا أدوات نقد الترجمة و" عدّته " . فمن غير المقبول أن يقوم ناقد لايمتلك الكفاءة اللغوية على صعيد لغة المصدر ، وبالتالي غير قادر على مقابلة الترجمة بأصلها الأجنبي ، أو غير محيط بأساسيات نظرية الترجمة وعلمها ، بالتنطّح لنقد ترجمة . فنقد الترجمة نوع خاص من النقد ، يتطلب كفاءات خاصة ، ولكنه يلتقي مع النقد العاديّ في الهدف ، أي غربلة

الأعمال والمؤلفات الأدبية والفكرية والعلمية ، لتمييز الغثّ من السمين، وإرشاد المتلقي والمنتج على حدّ سواء. (١٠)

ومن وسائل النهوض بحركة الترجمة والتصدي لظاهرة رداءة الترجمات بذل مزيد من الجهود على صعيد تدريب المترجمين وإعدادهم لغوياً وثقافياً ومهنياً (اختصاصياً) . فمن خلال ذلك الإعداد يكتسب الطالب الكفاءة التي يمكن أن تجعل منه في المستقبل مترجماً جيداً . وقد خطت الجامعات في الأقطار العربية خطوات طيّبة على هذا الصعيد ، نذكر منها ، من باب المثال لاالحصر ، قيام الجامعات السورية بإدخال مقرر " الترجمة " في الخطة الدرسية لفرعي اللغة الانكليزية واللغة الفرنسية وآدابهما ، وإحداث " دبلوم الترجمة " في إطار الفرعين الدراسيين الآنفي الذكر . ولكن العالم العربي مازال بحاجة إلى بذل مزيد من الجهود على صعيد تدريب المترجمين وتأهيلهم(١١).

وأخيراً وليس آخراً لابدّ لنا من الاهتمام بالجانب الاقتصادي للترجمة ، فنرصد لها مبالغ ملائمة من ميزانية الدولة ، ومن ميزانيات دور النشر الخاصة . فالترجمة تتطلب مالاً وإمكانات مادية ، وتتطلب دعماً حكومياً في إطار عملية التنمية الثقافية . وعلى هذا الصعيد هناك تقصير كبير من جانب الحكومات العربية ، التي لاتفعل ما يرقى إلى مستوى الحد الأدنى الضروري ، في الوقت الذي تخصص فيه ميزانيات هائلة لمجالات غير تنموية معروفة للجميع .(١٢) فلو خصص جزء يسير من تلك الميزانيات للتنمية الثقافية لأمكن إنجاز عدد أكبر من الترجمات، وتوفير مكافآت أفضل للمترجمين ، الذين يصبح من حقنا عندئذ أن نطالبهم بإنجاز ترجمات جيدة . أمّا في ظل الأوضاع الراهنة ، التي يعامل فيها المترجم وكأنه " قطّ من خشب " ، يصيد ولايأكل ، فإنّ الشروط المادية لقيام حركة ترجمة متقدمة ، غير متوافرة ، وما ينجز في العالم العربي من ترجمات جيدة يقوم على أكتاف أشخاص يضحّون بمصالحهم المادية لقاء أن يقدّموا للثقافة العربية شيئاً هي بأمس الحاجة إليه . ولكنّ حركة ترجمة متطورة ترقى إلى مستوى الدور المطلوب منها

في الثقافة العربية لايمكن أن تنهض على جهود " المثاليين " فحسب ، بل لابدّ من أن تدعم مادياً من قبل الدولة ، بحيث تؤمّن للعاملين فيها مردوداً مادياً يتناسب مع التأهيل والجهد المطلوبين ، فتستقطب تلك الحركة من تتوافر لديهم الكفاءات والمواهب الترجمية الكبيرة . فبعد أن نوفّر للمترجمين الإعداد والدخل المادي المناسبين ، يصبح من حقّنا أن نحاسب المقصر والمسيء منهم حساباً صارماً.

٧ ـ البعد المنسي للترجمة

وأخيراً لايجوز أن يغيب عن أذهاننا أن دور الترجمة في الثقافة العربية ليس طريقاً وحيدة الاتجاه ، بل ينبغي أن يكون طريقاً مؤدياً باتجاهين : من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ،وبالعكس ، أي تعريباً وتعجيماً . فاللأمّة العربية مصلحة ثقافية خارجية كبيرة في أن يُترجم أكبر عدد ممكن من الآثار والأعمال والمؤلفات الأدبية والفكرية والعلمية العربية إلى اللغات الأجنبية . فمن خلال تلك النشاطات الترجمية " التعجمية " تستطيع الأمّة العربية أن تقدّم نفسها للعالم ثقافياً ، ليتعرف العالم إلى واقعها الاجتماعي ـ الحضاري وقضاياها . (١٣) فالعرب أمّة معزولة ، بل محاصرة ثقافياً في العالم ، وذلك نتيجة للحواجز اللغوية الشاهقة المحيطة بهم من جهة ، ولأنّ لهم خصوماً تاريخيين معروفين يحرصون على تشديد الحصار ، ليتمكنوا من تشويه صورة الأمّة العربية كما يحلو لهم ومن تأليب الرأي العامّ العالمي ضدّها وضد قضاياها العادلة من جهة أخرى . ولئن كانوا قد نجحوا في ذلك إلى حدّ كبير ، كما ظهر في مناسبات سياسية كثيرة ، كان آخرها حرب الخليج المشؤومة ، فإنّ ذلك ما كان ليتمّ ، لو أن العرب قد بذلوا جهودا كافية على صعيد العمل الثقافي في الخارج ، ولو وجهوا إلى العالم خطاباً ثقافياً، بدلا من الاكتفاء بالخطاب السياسي الإعلامي . وضمن هذا السياق تكتسب الترجمة التعجيميّة (والأدبية منها بشكل خاص) أهمية قصوى ، فمن خلالها يمكن أن ننقل إلى العالم الوجه

الثقافي (الحضاري) لأمتنا، وأن نعرّف العالم بصورة صادقة وصحيحة على واقعنا ومشكلاتنا وطموحاتنا.

لقد ترك العرب هذا النوع من الترجمة للأجانب ، وتحديداً للمستعربين أو المستشرقين والمتخصصين في الشؤون الاسلامية ، ولم يفعلوا شيئاً ذا معنى على صعيد دعم الجهود الترجمية التعجيمية . ومع أننا نرى أنّ الجهود الترجمية التي بذلها المستشرقون تستحق التقدير والثناء، فلولاها ماعرف العالم شيئا من إنجازاتنا الثقافية، (١٤)

فإننا نرى أنّ العرب مطالبون في هذا المضمار ببذل جهود إضافية، ينبغي أن تسير في اتجاهين متكاملين : الأول تشجيع المترجمين الأجانب مادياً ومعنوياً ، وتقديم كلّ الدعم لهم ، ليقدموا على ترجمة أكبر قدر ممكن من الأعمال والمؤلفات الأدبية والفكرية والعلمية إلى لغاتهم . وفي الوقت نفسه فإنّ تلك الجهود الاستشراقية لاتعفي العرب من أن يتدخلوا بشكل مباشر على هذا الصعيد ، فيقوم مترجمون عرب بترجمة آثار ومؤلفات يرون في ترجمتها تعجيمياً ضرورة ثقافية عربية . صحيح أن المرء يترجم إلى لغته الأم أفضل مما يترجم إلى لغة أجنبية ، ولكن لدينا مترجمون عرب قد أصبحوا ، نتيجة لإقامتهم الطويلة في البلدان الأجنبية ، ثنائيي اللغة ، بحيث يمكن القول إن كفاءاتهم اللغوية والثقافية في اللغة الأجنبية لا تقلّ عن كفاءتهم في لغتهم الأمّ . وقد برهن عدد معتبر من هؤلاء المترجمين العرب بصورة عملية على قدرتهم على إنجاز ترجمات أدبية وفكرية وعلمية جيدة إلى اللغات الأجنبية.

نذكر من هؤلاء في ألمانيا المترجمين ناجي نجيب وسليمان توفيق ومصطفى هيكل ، الذين نقلوا إلى الألمانية عددا من الآثار الأدبية العربية الهامة بطريقة ناجحة . إن هؤلاء المترجمين ، الذين يساهمون بفاعلية في تشكيل صورتنا الثقافية في الخارج ، يستحقون منا كلّ تشجيع ورعاية معنوية ومادية.

٨ - وبعد :

فإنّ الترجمة ، بمساريها التعريبي والتعجيمي ، هي إحدى القضايا المركزية للثقافة العربية المعاصرة . وقد آن لنا أن نعي دور الترجمة في الثقافة العربية ، ونقدره حق قدره ، ونوجهه ، بحيث يكون عامل تنمية ونهضة ثقافية ، لا أن يكون عامل بلبلة وتغلغل ثقافي أجنبي . ولئن كانت الأعوام الأخيرة قد شهدت تزايد الأصوات العربية الداعية إلى الاهتمام بالترجمة ، فإن الوقت قد حان ، في رأينا ، لأن تتم في النقاش العربي المتعلق بهذه المسألة نقلة نوعية ، وأن يتمخض ذلك النقاش عن نتائج عملية تتناسب مع خطورة القضية الثقافية المطروحة للنقاش . فاستمرار الأوضاع السائدة في حركة الترجمة العربية على ما هي عليه لا يخدم الثقافة العربية ، ولا الأمّة العربية في شيء ، بل يحرمها من فرص كبيرة للتطور الثقافي والاجتماعي.(١٥)

□□□

الهوامش والمراجع

(١) من يتصفح ما يصدر عن دور النشر العربية من كتب، يجد أنّ الترجمات تشكل جزءاً أساسياً من تلك الإصدارات ، وأنها تشكل في بعض الحالات ، مثل دار عويدات اللبنانية ، القسم الأعظم من الكتب المنشورة . وفي سورية بالذات فإنّ نسبة الكتب المترجمة مرتفعة في إصدارات دور النشر الرئيسة. فقد بلغت تلك النسبة في "منشورات وزارة الثقافة " : ٦٠ ٪ عام ١٩٨٨ ، و ٦٥٪ عام ١٩٨٩، و٤٤٪ عام ١٩٩٠ ، و٤٩٪ عام ١٩٩١.

أضف إلى ذلك وجود عدد من المجلات العربية المتخصصة في نشر المواد المترجمة ، وهي "الآداب الأجنبية " السورية , " الثقافة العالمية " الكويتية ، و " الثقافة الأجنبية " العراقية ، و " دار الحكمة " التونسية . إلاّ أنّ هناك بالمقابل عدداً كبيراً من دور النشر العربية التي لاتدخل الترجمة في برامجها ،وهي في أغلب الحالات دور نشر تراثية محافظة .

(٢) ويأتي على رأس تلك الأجناس أدب المسرح أو الدراما ، وهو جنس أدبي تأخر ظهوره في الأدث العربي إلى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يزل يعاني إلى اليوم من مشكلات التأصيل . ومن المؤكد أنّ إحجام العرب عن استقبال المسرح اليوناني القديم في العصر الذهبي الأول للترجمة في الثقافة العربية (العصر العباسي) قد كان أحد العوامل التي أدت إلى تأخر ظهور هذا الجنس الأدبي الرئيس في الأدب العربي . لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة راجع كتابنا : " الأدب المقارن ـ مدخل نظري ودراسات تطبيقية "، حمص ١٩٩٢ ، فصل " الترجمة الأدبية . "

(٣) المقصود بذلك هي " دار الآداب "البيروتية التي روّجت كتابات ولسون وموررافيا ، وكان لها دور رئيس في نشر الفكر الوجودي .

(٤) يقدّر علماء اللغة عدد اللغات الموجودة في العالم ب (٢٥٠٠) لغة، ويذهب بعضهم إلى أنّ هناك آلاف اللغات . وفي كلّ الأحوال فإن التعددية اللغوية هائلة ، وهي تستتبع تعددية ثقافية كبيرة . فكل لغة من هذه اللغات تشكل أداة يتواصل بها الشعب الذي يتكلمها، ووعاء يختزن الموروث الحضاري لهذا الشعب . ومن أهمّ نتائج هذه التعددية اللغوية والثقافية السائدة في العالم ضرورة الترجمة ، وضرورة اكتساب اللغات الأجنبية . وبما أنّ قدرة الفرد على اكتساب تلك اللغات محددة ، فإنّ الترجمة تظلّ الوسيلة الرئيسة للتواصل الثقافي بين الناس والأمم والثقافات. راجع بهذا الخصوص :

W.Koller (1983) : Einführung in die Übersetzungswissenschaft . Heidelberg . S . 14 - 25.

(فيرنر كولر : مدخل إلى علم الترجمة . هايدلبرغ ١٩٨٣ ، ص ١٤ -٢٥) .

(٥) راجع : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الخطة الشاملة للثقافة العربية ، الكويت ١٩٨٦ ، ط٢ ، تونس ١٩٩٠.

(٦) راجع بهذا الشأن :

J . Levy (1969) : Die Literarische Ûbersetzung ,

Theorie einer Kunstgattung . Bonn .

(جيري ليفي : الترجمة الأدبية . نظرية جنس فني . بون ١٩٦٩)

يُعدّ هذا الكتاب الأفضل من نوعه ، على الرغم من انقضاء ربع قرن على صدوره . إلا أنّ هذا الكتاب لم يترجم بعد إلى العربية ، وهذا بدوره يعتبر مؤشراً لتأخر الاهتمام العربي بالترجمة.

(٧) نذكر كمثال على مانعنيه الترجمة العربية لمسرحيتي الأديب الكلاسيكي الألماني فريديش شيللر "اللصوص "و "فيلهلم تل "، ولمسرحية غوته الشهيرة "فاوست "، وقد صدرت تلك الترجمات ضمن سلسلة "من المسرح العالمي "الكويتية . أمّا المترجم الذي أنجزها فهو الدكتور عبد الرحمن بدوي ، وهو فيلسوف ومترجم مصري يتمتع بهيبة جعلت كثيراً من نقاد الترجمة يحجمون عن إخضاع ما قام به من ترجمات أدبية للتفحص النقدي . ولكنّ بعض الباحثين الجريئين ، ممن لاتغرهم السمعة ولاالشهرة ، من أمثال الدكتور علاء الدين حلمي والدكتور نبيل الحفار ، قد أظهروا بصورة علمية وموضوعية أنّ الترجمات التي قام بها الدكتور بدوي لآثار شيللر وغوته وغيرهم من الأدباء الألمان تفتقر إلى الحدّ الأدنى من التناظر الجمالي - الأسلوبي والمعنوي مع الأصل ، بحيث لابدّ للقارئ العربي الذي لايعرف هؤلاء الأدباء إلاّ من خلال تلك الترجمات من أن يتساءل : أهكذا يكون الأدب العالمي ؟ ولكنّ عبد الرحمن بدوي ليس حالة فردية ، لسوء حظ الثقافة العربية ، بل حالة نمطية . راجع بهذا الخصوص بحثنا النقدي : حول الترجمات العربية لمسرحيات شيللر : في مجلة "الحياة المسرحية "(دمشق) ، العدد ٢٨-٢٩/١٩٨٦، ص ٩- ١٨ .

(٨) تمارس الترجمة دوراً تجديدياً هاماً في الثقافة المستقبلية . فهي تنقل إلى تلك الثقافة أنماطاً وأشكالاً وأنواعاً وتيارات واتجاهات لم تعرفها قبل ذلك ، ثم تتأصل تلك الأشكال في الثقافة المستقبلة إذا توافر فيها استعداد لتبنيها وتأصيلها . ومن أبرز الأمثلة على ذلك الدور التجديدي الذي مارسته الترجمة في الأدب العربي الحديث الذي أدخلت إليه الترجمة أنواعاً وأساليب واتجاهات جديدة ، وساهمت على هذا الشكل بدرجة كبيرة في تطويره وتحديثه .

(٩) بخصوص نقد الترجمة وإمكاناته راجع :. J. Levy : a. a. o. "
وكذلك :

: K. Reiss (1971): MÔglichkeiten und Grenzen der Literaturkritik. Mûnchen .

(ك. رايس ، ١٩٧١: إمكانات نقد الترجمة وحدوده . ميونيخ)

(١٠) فيما يتعلق بدور الناقد الأدبي راجع : ميخائيل نعيمة ، الغربال ، بيروت ، ط١٤، ١٩٨٨.

إنّ وظيفة النقد التي حددها نعيمة في كتابه هذا لم يطرأ عليها تغيير جوهري ، على الرغم من مرور سبعين سنة على صدور ذلك الكتاب.

(١١) ومن الخطوات الجديرة بالتنويه على هذا الصعيد إحداث "مدرسة الملك فهد العليا للترجمة " في مدينة طنجة المغربية.

(١٢) راجع بهذا الشأن : نزار عبد الله : إقتصاديات الترجمة . في مجلة (الموقف الأدبي) ، دمشق ، العدد ٢٢٧-٢٢٨ ، آذار ونيسان ١٩٩٠ .

(١٣) لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة راجع بحثي :" حول دور الترجمة الأدبية في تشكيل صورة العرب في العالم " و"كيف يستقبل أدبنا العربي في الغرب " في هذا الكتاب.

(١٤) حول دور الاستشراق في تقديم الثقافة العربية للعالم راجع البحث الأخير في هذا الكتاب .

(١٥) حول الدور التنموي الثقافي للترجمة راجع : لمعي المعيطي (إعداد): ندوة الترجمة والتنمية الثقافية . القاهرة ، ١٩٩٢ .

٣ ـ ٠ ـ الأدب العربي مرسِلاً

٣ ـ ١ ـ كيف يُستقبل الأدب العربي في الغرب

٣ ـ ٢ ـ دور الترجمة الأدبية في تشكيل صورة العرب في العالم

٣ ـ ١ ـ كيف يُستقبل الأدب العربي الحديث في الغرب

■

٣ ـ ١ ـ كيف يُستقبل الأدب العربي الحديث في الغرب
الساحة الألمانية نموذجاً

١ ـ في البدء كان الوعي :

ما أهمية أن يُستقبَل الأدب العربي الحديث في العالم الخارجي ؟ وما هي سبل الارتقاء بذلك الاستقبال وتفعيله ؟ وما دور المشتشرقين الأجانب في تلك العملية ؟ تلك هي الأسئلة التي نحاول في هذا البحث تقديم إجابات (أولية ومؤقتة بالضرورة) عنها ، متخذين من استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا ، ومن دور الاستشراق الألماني فيه مثالا أو أنموذجاً يصلح ، إلى هذا الحدّ أو ذاك ، لأن يعمّم على ساحات أجنبية مشابهة ، كالساحات الأوروبية والغربية.

من الملاحظ أنّ إهتمام الرأي العامّ العربي بأن يُستقبَل الأدب العربي الحديث في العالم الخارجي بصورة مناسبة ، وأن يُعترف بعالمية هذا الأدب ، قد ازداد بصورة ملحوظة إبّان ربع القرن الأخير ، وتحديداً منذ أن تكوّن لدى الرأي العالم العربي اقتناع بأن الأدب العربي الحديث قد بلغ درجة من التطور الفني والفكري تجعله يرقى إلى مصاف الآداب الأوروبية والغربية . فقد ظهر في الأدب العربي الحديث أعلام ، من أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم وميخائيل نعيمة ويحيى حقي ونجيب محفوظ ، لاتقلّ مستوياتهم الأدبية عن مستويات زملائهم الأوروبين والأمريكيين ممن حازوا حائزة (نوبل) للآداب ، تلك الجائزة التي شكّل حجبها عن الأدب العربى الحديث مصدراً لشكوى عربية دائمة . فقد

اعتبر العرب ذلك تنكراً لعالمية هذا الأدب وظلماً كبيراً تمارسه الأوساط الاستعمارية والصهيونية المتحكمة بجائزة (نوبل) على الأمّة العربية، لأسباب لاعلاقة لها بالأدب . ثم حدثت المفاجأة السارة الكبرى عام ١٩٨٨ ، عندما منحت الجائزة التي طال انتظارها وكثر الجدل حولها للأديب العربي المصري نجيب محفوظ ، فاستقبل الرأي العامّ العربي ذلك بارتياح وفرحة شديدين ، ووضعت نهاية سعيدة لجدل طويل اختلط فيه توجيه الانتقادات إلى الأخرين بالنقد الذاتي [١] . ومهما يكن المنحى الذي أخذه النقاش العربي حول جائزة (نوبل) للآداب ، ومهما تكن المنزلقات التي وقع فيها بعض المشاركين ، فإنّ ذلك النقاش ينطوي على دلالات كثيرة ، من أبرزها أنّ الرأي العام العربي قد أخذ يعي الأهمية الثقافية القومية التي ينطوي عليها استقبال الأدب العربي في الخارج . إلاّ أن المهم ، في نظرنا ، هو ألاّ يكون ذلك الوعي ظاهرة مؤقتة ، تزول بزوال بواعثها ، بل أن يكون وعياً قائماً على فهم عميق لطبيعة العلاقات الثقافية الدولية المعاصرة ، ولموقع عمليات الاستقبال الأدبي من تلك العلاقات ، وأن يكون ذلك النقاش قد أدّى إلى توضيح بعض المسائل المتعلقة باستقبال الأدب العربي الحديث في الخارج ، ودور ذلك الاستقبال في صياغة صورة العرب في العالم ، وإطلاع الشعوب الأجنبية على الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي العربي ، وخلق تفهّم أكبر لقضايا الأمّة العربية[٢] . فوعي العرب أهمية استقبال أدبهم الحديث في العالم هو شرط ضروري لدراسة ذلك الاستقبال ، ومعرفة واقعه ومشكلاته ، ثم توجيهه وتطويره ليرقى إلى المستوى الذي يناسب أهميته الثقافية القومية.

٢ ـ الاستقبال الأدبي الذي نعنيه

قبل أن نعرض استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا ودور الاستشراق الألمانيّ فيه نرى من الضروري أن نقف وقفة توضيحية عند مفهوم " الاستقبال الأدبي " الذي نستخدمه ، لنحدد ما هية ذلك المفهوم وخصوصيته . فنحن نستعمل مفهوم " الاستقبال الأدبي " في

سياق حديثنا عن تلقي أدب خارج بيئته اللغوية والاجتماعية والثقافية الأصلية ، أي في بيئة أجنبية بعيدة عن البيئة الأولى[٣] ، وهذا استقبال أدبي يختلف جذرياً عن النوع الأول من الاستقبال . ففي الحالة الأولى يُستقبل العمل الأدبي بصورة مباشرة ، وسريعة ، دون أن تكون هناك حاجة إلى وساطة لغوية أو نقدية . إنه يُستقبل من قبل متلقّين يتوجّه برسالته الجمالية والفكرية إليهم في الأصل ، ولذا فإنهم لايجدون صعوبة كبيرة في استيعابه والتفاعل معه . أمّا في حالة استقبال العمل الأدبي خارج حدوده اللغوية والثقافية الأصلية ، فإنّ الأمر مختلف كلّ الاختلاف . فالعمل الأدبي لايتمكن من اجتياز تلك الحدود إلا بواسطة الترجمة ، التي ينتقل من خلالها من لغته الأصليّة (لغة المصدر) إلى لغة أجنبية (لغة الهدف) ، بعد أن يخضع لمخاض إبداعي جديد ، لايقلّ صعوبة وإشكالية عن المخاض الإبداعي الأوّل . ثمّ يجد العمل الأدبي الذي هاجر من بيئته الأصلية إلى بيئة ثقافية واجتماعية غريبة ، نفسه في مواجهة متلقين لم يُكتب من أجلهم في الأصل ، ولذا فإنهم يجدون مشقة في استيعابه ، وقد يسيئون فهمه إلى حدّ كبير . ويتدخل النقاد والشارحون والمفسرون الأجانب ، الذين يفترض فيهم أنهم متخصصون في الأدب الأجنبي الذي ينتمي إليه العمل الأدبي ، فيسعون لتقريب هذا العمل إلى أذهان المتلقين ، ولكنهم يفهمون العمل الأدبي بصورة قد تختلف اختلافاً كبيراً عن الصورة التي فهم بها العمل نفسه في بيئته الأصلية .

ولاعجب في ذلك ، فالمتلقي ، عاديّاً كان أم محترفاً ، يفهم العمل العمل الأدبي ويؤوّله انطلاقاً من أفقه الخاص ، وما يدخل في ذلك الأفق من مكونات ثقافية ونفسية . إنها إحدى بديهيات نظرية التأويل الأدبي، ولكنها بديهية كثيراً ما تغيب عن الأذهان[٤]. يترتب على ما تقدّم أن يتمحور كلّ حديث عن استقبال الأدب العربي في الخارج حول مسألتين رئيسيتين هما : الترجمة والتقديم النقدي ، فهما الجانبان الأساسيان لذلك الاستقبال . فبوساطة الترجمة يجتاز العمل الأدبي

حدوده اللغوية إلى لغات وثقافات أخرى وإلى متلقين جدد . والتقديم النقدي يرشد أولئك المتلقين إلى فهم العمل الأدبي الأجنبي . ولذا يمكن القول إنّ المترجمين والنقاد هم صناع استقبال الآداب الأجنبية . وتلك مقولة تنطبق على استقبال الآداب الأجنبية في العالم العربي ، وعلى استقبال الأدب العربي في الخارج على حدّ سواء . وعندما نتحدث عن استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا فإنّ حديثنا سيدور بالضرورة حول مسألتي الترجمة والتقديم النقدي . ولكننا سنركز عرضنا ذلك الاستقبال على الجانب الترجمي ، وذلك لأسباب منهجية ، ولن نتطرق إلى الجانب النقدي إلا بصورة عرضية ، على الرغم من إدراكنا أهمية ذلك الجانب وخطورته.

٣ ـ مرحلة البدايات :

ما هو المسار الذي سلكه استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا؟ وما هو الدور الذي مارسه الاستشراق الألماني في ذلك الاستقبال ؟

ترجع بدايات استقبال الأدب العربي الحديث في الأقطار الناطقة بالألمانية إلى مطلع الستينيات من هذا القرن ، عندما بدأت ترجمات لأعمال من ذلك الأدب تصدر بالألمانية . ومع أنّ حركة الترجمة لم تقتصر على المختارات القصصية ، فإنّ هذا النوع من الإصدارات قد غلب عليها . وقد صدر أول كتاب من هذا النوع عام ١٩٦٣ بعنوان " السقّا مات ـ مصر في قصص أفضل كتابها المعاصرين "(٥) ، وبعد ثلاث سنوات صدرت مجموعة قصصية مشابهة عنوانها :" حمامة الجامع وقصص سورية ولبنانية أخرى "(٦) . ثم توالى صدور هذا النوع من المختارات القصصية ، فصدرت مختارات من " القصة العربية" و " القصة الجزائرية" و " القصة الفلسطينية" و"القصة المصرية المعاصرة " و " القصة السورية" و" القصة العراقية"(٧) ، مما حوّل المختارات القصصية إلى شكل رئيسي من أشكال استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا .

لقد أدّت تلك المختارات دوراً إيجابياً في تعريف القارئ الألماني بـالأدب العربي الحديـث ، ويمكـن القـول إنّ تجربـة سلسـلة Erkundungen (استكشافات) التي كانت تصدر في جمهورية ألمانيـا الديمقراطية سـابقا عن دار نشر(Volk und Welt) هي إحدى التجارب القيّمة ، ليس على صعيد تقديم الأدب العربي فحسب، بل تقديم الآداب الأجنبية بوجه عام(٨) .

ضمن هذا السياق من الملاحظ أنّ القسم الأكبر من تلك المختارات القصصية قد صدر في جمهورية المانيا الديمقراطية سابقاً ، فقد كانت ثقافتها أكثر انفتاحاً على ثقافات شعوب العالم الثالث من الثقافة الألمانية الغربية ، وذلك لأنّ مبدأ "التضـامن الأممـي" كـان أحد المبادئ الرئيسية التي وجّهت الحياة السياسية والثقافية في الجزء الشرقي من ألمانيا. ومن الملاحظ أيضاً أنّ بعض المثقفين العرب الذين يعيشون في ألمانيا ، من أمثال المرحوم ناجى نجيب ومصطفى هيكل وسامى قبانى قد اضطلعوا بدور نشيط ضمن حركة استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا ، وذلك من خلال ممارستهم الترجمة والتوسيط النقدي . ويبدو أنّ ماشجعهم على ذلك هو التقصير الذي لمسوه في الساحة الألمانية علي هذا الصعيد ، إضافة إلى امتلاكهـم الكفـاءة اللغوية والثقافية التي مكّنتهم من أداء ذلك الدور بصورة جيدة . أمّا السواد الأعظم من المستشرقين الألمان فقد كان غير عابئ بالثقافة العربية الحديثة عموماً ، وبالتالي فإنه لم يُعِر الأدب العربي الحديث كبير اهتمـام . فالثقافة العربية، في نظر أولئك المستشرقين ، هي إحدى الثقافات العريقة (Hochkulturen) التي " سادت ثم بادت " ، والأدب العربي ينتهي بأبي تمام والمتنبي . إنّ الخلفيات التاريخية والفكرية لذلك الموقف الاستشراقي الرجعي قد باتت معروفـة ، ولـذا فلسنا بحاجة لأن نخصص لها وقفة إضافية(٩). أمّا الأهم من ذلك فهو حقيقة أنّ المجتمع الألماني الغربي قد شهد منذ أواخر الخمسينيات ظهور حاجة أو استعداد لتعرّف الأدب العربي الحديث ، وهي حاجة يمكن ردّها إلى عاملين : أولهما هو التطور

الكبير الذي شهدته العلاقات العربية ـ الألمانية الغربية على مختلف الصعد، وثانيهما بروز العالم العربي كعامل فعّال على مسرح السياسة الدولية . أضف إلى ذلك عاملاً آخر ، هو التنافس الألماني ـ الألماني ، وسعي ألمانيا الغربية لإبعاد جمهورية ألمانيا الديمقراطية سابقاً عن المنطقة العربية . لقد ولدت تلك العوامل والتطورات التاريخية في الرأي العام الألماني الغربي حاجة إلى تعرّف الثقافة العربية المعاصرة ، وتعرف الأدب العربي الحديث بوجه خاص ، لأنه أفضل مرآة للواقع الاجتماعي والثقافي العربي . ولكنّ الاستشراق الألماني كان مستغرقاً في تحقيق المخطوطات العربية القديمة ، ولم يكن مستعداً ولاقادراً على التجاوب مع الحاجة الثقافية الجديدة التي برزت في الرأي العام الألماني ، ولاعلى أداء الدور الثقافي المطلوب . في هذه الحالة لم يكن هناك بدّ من أن تستعين الجهات الثقافية الألمانية المعنية بهذه المسألة بأشخاص من خارج الوسط الاستشراقي ، من عرب مقيمين في ألمانيا ، ومن مترجمين ينقلون عن لغات وسيطة . ولعل أفضل دليل على أنّ الحاجة إلى استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا الغربية قد نشأت على خلفية التطورات الاقتصادية والسياسية الآنفة الذكر هو أن مؤسسة (Inter Nationes) أي دائرة العلاقات العامة في وزارة الخارجية الألمانية الاتحادية قد موّلت نشر مجموعتي " السقّا مات " و" حمامة الجامع" القصصيتين ، اللتين صدرتا عن دار نشر وثيقة الصلة بوزارة الخارجية الألمانية ، هي (Erdmann Verlag) (١٠) على أية حال فقد كان لعدم قدرة الاستشراق الألماني الغربي على تلبية حاجة المجتمع الألماني إلى استقبال شيء من الأدب العربي الحديث نتائج سلبية بالنسبة للاستشراق الألماني نفسه ، ولاستقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا على حدّ سواء . ففيما يتعلق بالاستشراق الألماني تكرست عنه في الرأي العام الألماني صورة مفادها أنّ هذا العلم لايمتّ إلى الواقع بصلة ، ولا يقدّم للمجتمع فائدة ثقافية . فبأيّ حقّ تنفق الدولة عليه أموال دافعي الضرائب ؟ أمّا فيما يتعلق باستقبال الأدب العربي الحديث فإنّ

الاستعانة بمترجمين لا ينقلون عن العربية مباشرة ، بل عن لغات وسيطة كالانكليزية والفرنسية ، في ترجمة أعمال من هـذا الأدب إلى الألمانية ، أمر ينطوي على سلبيات كبيرة . فقد جعل استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا تابعاً لاستقباله في فرنسا والأقطار الأنجلو ــ ساكسونية، وضاعف احتمالات " الخيانة الترجمية" ، أي ابتعاد الترجمة عن الأصل من النواحي المعنوية والجمالية.

٤ ـ مرحلة الاستقلالية والنضج :

لحسن الحظّ فإنّ ذلك الوضع لم يدم طويلاً ، فقد شهد استقبال الأدب العربي الحديث في المانيا في أواخر السبعينيات ظهور عدد من المستشرقين الألمان الذين حظي الأدب العربي الحديث بالقسط الأكبر من اهتمامهم ، ووجهوا جهودهم نحو استقبال ذلك الأدب على الصعيدين الترجمي والنقدي . وبالفعل فقد تمكن أولئك المستشرقون من إحداث نقلة نوعية في استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا ، حيث نجحوا في تحويله من تابع هزيل لاستقبال الأدب العربي في فرنسا وبريطانيا إلى استقبال مستقلّ معتمد على الذات في اختيار الأعمال الأدبية العربية ، ونقلها عن العربيّة مباشرة ، وتوسيطها نقدياً بصورة تأخذ خصوصية الثقافة الألمانية في الاعتبار . ومع مرور الزمن صار لهذا الاستقبال أعلامه ، من مترجمين ونقاد ، ومؤسساته من دور نشر وجوائز ، وجمهوره الذي يتابعه ويتفاعل معه.

وفي هذه المرحلة الجديدة من تاريخ استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا أخذت التوجهات الجديدة لذلك الاستقبال تتضح . فبعد أن كان التركيز في مرحلة البدايات منصبّاً على المختارات القصصية ، التي تقدّم للقارئ الألماني صورة بانورامية عن فنّ القصة القصيرة في بعض الأقطار العربية ، ظهر اتجاه لتقديم أدب شخصيات معيّنة من الأدب العربي الحديث . ففي عام ١٩٧٨صدرت بالألمانية

مجموعة قصصية بعنوان " مسجد على الدرب" ، وهي قصص مختارة من إنتاج أديب عربي واحد هو نجيب محفوظ(١١) . وقد كانت تلك المجموعة حلقة في سلسلة من الترجمات التي نقل من خلالها قسم كبير من أدب نجيب محفوظ القصصي والروائي إلى الألمانية. ثم جاء منح جائزة نوبل للآداب لهذا الأديب العربي عام ١٩٨٨ ، فدعم ذلك التوجّه ، وحفز المترجمين الألمان على نقل مزيد من أعمال نجيب محفوظ إلى الألمانية ، فتحوّل استقباله ترجمياً ونقدياً إلى مركز الثقل الأول في استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا.(١٢)

إنّ الاتجاه نحو التركيز على أدباء معيّنين ، وترجمة أكثر من عمل أدبي من أعمال كلّ منهم إلى الألمانية ، لم يقتصر على نجيب محفوظ ، ولم يكن وليد نيل هذا الأديب جائزة نوبل . ففي عام ١٩٨٦ صدرت ترجمة ألمانية لقصة " أم سعد " للكاتب الفلسطيني الشهيد غسان كنفاني ، ثم توالى صدور ترجمات ألمانية لروايات هذا الكاتب وقصصه، إلى أن اكتمل في عام ١٩٨٥ صدور " الأعمال المختارة في أربعة أجزاء " ، وتلك سابقة في تاريخ استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا(١٣). من المؤكد أنّ للتركيز على أدب غسان كنفاني خلفية تاريخية وسياسية ، تتمثل في تنامي اهتمام قطاعات من الرأي العام الألماني بالقضية الفلسطينية ، وفي الحساسية الشديدة التي يتصف بها ذلك الرأي العام تجاه قضية الشرق الأوسط وغيرها من الأمور ذات الصلة بمشكلات الماضي الألماني القريب وإشكالية العلاقات الألمانية اليهودية . وقد اتسع ذلك الاهتمام ، وتجاوز أدب غسان كنفاني إلى أعمال أدباء فلسطينيين آخرين ، كالشاعرين محمود درويش ومعين بسيسو ، والروائية سحر خليفة ، التي ترجمت ثلاث من رواياتها إلى الألمانية ، هي " عباد الشمس" و "الصبار" و" مذكرات امرأة غير واقعية"(١٤) . إلاّ أنه من الضروري أن نشير هنا إلى أنّ الاهتمام الألماني بأدب سحر خليفة لايرجع إلى فلسطينية الكاتبة فحسب ، بل يرجع

كذلك إلى النزعة النسائية البارزة في ذلك الأدب ، وهي نزعة جعلته يحظى باهتمام الحركة النسائية الألمانية والأوساط الثقافية المرتبطة بها.

- عاملان يتحكّمان في الاستقبال :

إنّ من يتأمل استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا ، ويدقق في معطيات ذلك التاريخ ، يكتشف وجود عاملين يتحكمان في مسار الاستقبال المذكور ، سواء على الصعيد النوعي ، أي اختيار الأعمال الأدبية المترجمة ، والمستوى اللغوي والأسلوبي للترجمات ، أم على الصعيد الكمي أي عدد الأعمال المترجمة ، وحجم استقبالها ، وسعته . هذان العاملان هما :

١ ـ عامل عام ، أو اجتماعي ، يتمثل في حاجة الراي العام الألماني إلى استقبال أعمال أدبية عربية معيّنة مما يولّد طلباً على تلك الأعمال . وهذا ينطبق على الاستقبال الألماني لأعمال نجيب محفوظ ، بعد أن سُلّطت الأضواء على هذا الأديب في أعقاب منحه جائزة نوبل للآداب ، كما يسري على استقبال الأدب الفلسطيني ، بعد أن تصاعد النضال الوطني الفلسطيني من خلال حركة المقاومة والانتفاضة الفلسطينيتين . وهو ينطبق كذلك على الدكتورة نوال السعداوي ، التي تُرجم قسم كبير من مؤلفاتها وأعمالها الروائية إلى الألمانية (١٥) . فهذا الاهتمام الذي شمل أيضاً مؤلفات لحنان الشيخ وأليفة رفعت وفاطمة المرنيسي وغادة السمان وغيرهن ، يعبّر عن تضامن الحركات النسائية الألمانية مع المرأة العربية ، التي تتعرض لتسلط ذكوري وبطريركي . وعلى الرغم من أننا نقرّ بأنّ دوافع ذلك التضامن مشبوهة جزئياً ، وأنها تعبّر عن النزعة المركزية الأوروبية ، فإنه لامجال لأنكار أنّ ذلك التضامن النسائي قد خلق في الرأي العام الألماني استعداداً لتلقي الأدب النسائي العربي (١٦)

٢ ـ أمّا العامل الثاني فهو عامل شخصي أو فردي ، يتعلق بالمترجم نفسه : ثقافته ، وذوقه الأدبي ، وميوله الفكرية ، ومدى

اطلاعه على الأدب العربي . وهذا العامل بالغ الأهمية . فالمترجم هو الذي يقوم ، في أغلب الحالات ، بترشيح أعمال أدبية عربية للترجمة ، بل كثيراً ما ينجز الترجمة ، ثم يقوم بعرضها على دار النشر لإصدارها.

وبطبيعة الحال فإنّ المترجم ينقل الأعمال الأدبية العربية إلى الألمانية وفقاً لفهمه وتأويله لها ، ثم وفقاً لاتجاهاته الأسلوبية ، إن كانت له اتجاهات كهذه . صحيح أن لدور النشر الألمانية عادة مستشارين متخصصين في مختلف المجالات ، وهم الذين يضعون خطط النشر ، ويقيمون المخطوطات ، ولكن هذا لاينطبق على الترجمة الأدبية من العربية إلى الألمانية . فالناشرون الألمان ليس لديهم برامج نشر بهذا الخصوص . ولذا يظلّ انتقاء أعمال من الأدب العربي الحديث لنقلها إلى الألمانية متروكاً لمبادرات المترجمين . فهم في حقيقة الأمر يمسكون بزمام استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا ، انتقاء وترجمة وتوسيطاً نقدياً. ولعلّ هذه الحقيقة تفسر لنا بعض الظواهر الإشكالية التي برزت في مسار ذلك الاستقبال ، ونذكر منها :

١ - التركيز على آداب قطرية عربية معينة ، كالأدبين المصري والفلسطيني ، وحديثاً المغربي ، وإغفال آداب الأقطار العربية الأخرى بصورة جزئية أو كلية . ربما كانت هناك مسوغات فنية أو فكرية للاهتمام بالآداب الثلاثة المذكورة ، ولكن ليس إلى الدرجة التي تسوغ إهمال ما سواها بالصورة الحالية .

٢ - التركيز على أدباء معيّنين ، مثل نجيب محفوظ وغسان كنفاني وسحر خليفة ، وإغفال كتاب لايقلّون من الناحيتين الفنية والفكرية أهمية عن هؤلاء . فمن المستغرب أنه لم يترجم بعد إلى الألمانية شيء من المؤلفات الأدبية لعبد الرحمن منيف وجبرا ابراهيم جبرا وعبد السلام العجيلي وحنا مينه ويوسف إدريس وهاني الراهب وغيرهم من كتّاب الرواية والقصة في العالم العربي ، ناهيك عن كتّاب

الشعر والدراما ، بينما صدرت ترجمة ألمانية لعدد من قصص محمد المخزنجي ولرواية حنان الشيخ " مسك الغزال (١٧) .

٣ - ومن الظواهر التي تسترعي الانتباه تمحور استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا حول الأجناس الأدبية السردية ، وتحديداً حول القصة القصيرة والرواية ، وسط إعراض شديد عن الشعر والمسرحية . وإذا رددنا الإعراض عن الأعمال الأدبية الدرامية إلى حقيقة أنّ فنّ الدراما فنّ حديث العهد وغير متطور في الأدب العربي ، وبالتالي فمن غير المستغرب ألاّ يقبل المترجمون الألمان على ترجمة أعمال منه ، وألاّ تطلب المسارح الألمانية نصوصاً مسرحية عربية لتقديمها على خشباتها ، فكيف نفسّر إعراض حركة الترجمة عن جنس أدبي يعتبر الجنس الأكثر تطوراً وعراقة في الأدب العربي ، ألا وهو الشعر ؟

من السهل أن يجد المرء تفسيراً لإقبال المترجمين والناشرين الألمان على القصة والرواية . فاستقبال هذين النوعين الأدبيين يتمّ عبر المطالعة، لامن خلال العرض المسرحي ، كما هي حال النصوص الدرامية . كذلك فإنّ الأعمال القصصية والروائية المترجمة تزوّد المتلقي بمعلومات وفيرة حول المجتمع الأجنبي(العربي) وثقافته ، إضافة لما تهيئوه له من متعة جمالية . ومن المعروف أنّ الرغبة في تعرّف المجتمع الأجنبي وثقافته تمثل مصدرا أساسياً من مصادر الجاذبية التي تمتلكها الأعمال الأدبية الأجنبية . والأجناس الأدبية السردية من قصة ورواية ، أقدر من سواها على أداء هذا الدور الإعلامي.

أمّا الشعر (الغنائي والوجداني) فهو جنس أدبي مرتبط باللغة أوثق الارتباط ، وهو يمارس تأثيره الجمالي من خلال الصور الفنية والإيحاءات والبنية الإيقاعية والفروق اللغوية الطفيفة . والنصوص الشعرية تفقد القسم الأعظم من جمالها (شعريّتها) ومقدرتها على التأثير الجمالي في نفس المتلقي عندما تنقل من لغة المصدر إلى لغة الهدف . ولعلّ هذا هو ما جعل المترجين الألمان يحجمون عن نقل الشعر العربي الحديث إلى لغتهم ، وجعل بدر شاكر السياب ونزار قباني وعبد

الوهاب البياتي أشخاصاً مجهولين في المانيا . إلا أن الإعراض عن الشعر العربي الحديث لم يكن مطلقاً . فقد ترجمت إلى الألمانية قصائد لمحمود درويش ومعين بسيسو وصلاح عبد الصبور وأدونيس . ولكنّ الشعر ظل برغم ذلك ظاهرة هامشية في استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا.

قد تبدو مثل هذه الظواهر الإشكالية للعربي الذي يتأمل استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا غير مفهومة . ولكنّ الغرابة تزول إذا أخذنا المقولة المقارنية القائلة إنّ استقبال العمل الأدبي الأجنبي لايخضع لحاجات الثقافة المرسِلة بقدر ما يخضع لاعتبارات كامنة في الثقافة المستقبلة ، على محمل الجد[١٨]. وبعبارة أوضح فإنّ الألمان يستقبلون الأدب العربي الحديث بالصورة التي توافقهم وتروق لهم ، راق لنا ذلك ووافقنا أم لا . ونحن نحاول أن نقدّم بعض المفاتيح والأدوات التي تساعدنا في الإجابة عن سؤال : لماذا يُستقبل الألمان الأدب العربي الحديث على هذا الشكل ؟

٦ ـ مستشرقون ومترجمون :

لئن كان استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا يتوقف على المترجمين الألمان في المقام الأول ، يصبح من الضروري أن نقترب من هؤلاء الأشخاص ، كي نتعرف إليهم عن كثب ، ونعرف ما أنجزه كلّ منهم . ونظراً لأننا لاننوي في هذا البحث تقديم دراسة تفصيلية للمترجمين الألمان الناشطين في ميدان استقبال الأدب العربي الحديث ، فإننا نكتفي بإبداء الملاحظات التالية:

١ ـ لقد جاء هؤلاء المترجمون بلا استثناء من الوسط الاستشراقي، أي أنهم درسوا اللغة العربية وآدابها أو العلوم الاسلامية في جامعات بلادهم ، واكتسبوا نتيجة لذلك كفاءة لغوية وثقافية

وعلمية جعلتهم مؤهلين للقيام بترجمة أعمال أدبية عربية إلى اللغة الألمانية. ومن الملاحظ في هذا السياق أنّ أولئك المترجمين مؤهلون ، تأهيلاً عالياً . فهم من الحائزين على درجة الدكتوراه أو الماجستير . ولكن من الملاحظ أيضاً أنه ليس بينهم أساتذة جامعيون . فالأستاذ الجامعي الألماني يترفع ، على مايبدو ، عن القيام بالترجمة الأدبية ، ويفضل تحقيق مخطوطة قديمة أو إنجاز بحث . ومن المؤكد أن هذه الظاهرة مرتبطة بتدني المكانة الاجتماعية للمترجم ، وأنّ النشاط الترجمي لايعود على الأستاذ الجامعي بالوجاهة الأكاديمية المطلوبة . ولا جدال في أنّ هذه النزعة تنعكس بصورة سلبية على استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا ، فهي تحرم ذلك الاستقبال من مساهمات أشخاص يمتلكون درجة عالية جداً من التأهيل العلمي والكفاءة اللغوية والثقافية . وبالفعل فإنّ دائرة الأشخاص الناشطين في ميدان الترجمة الأدبية من العربية إلى الألمانية ضيقة جداً وتهيمن عليها ثلاثة أسماء رئيسية هي :

١ - هارتموت فهندريش (Hartmut Faehndrich) مدرّس اللغة العربية وآدابها في جامعتي زيوريخ وبرن . وهو أغزر المترجمين الألمان إنتاجاً وأكبرهم نشاطاً وحضوراً في الندوات والمؤتمرات المتعلقة بالأدب العربي الحديث . لقد أنجز حتى الآن ترجمات ألمانية لأعمال غسان كنفاني المختارة،وروايتي سحرخليفة " الصبار" و "عباد الشمس" ومجموعة قصصية لمحمد المخزنجي ورواية صنع الله ابراهيم " اللجنة" ورواية " المتشائل " لاميل حبيبي ، ورواية " زيني بركات" لجمال الغيطاني ، وقصتين ليحيى الطاهر عبد الله ورواية " أرضها زعفران" لإدوار خراط ، وغيرها . فإذا أضفنا إلى ذلك ما أنجزه هذا المستشرق الشاب على صعيد توسيط الأدب العربي الحديث نقدياً ، وذلك من خلال الكلمات الختامية التي يزوّد بها الأعمال الأدبية التي يترجمها ، والأبحاث والمقالات التي ينشرها في الدوريات والصحف ، يتضح لنا حجم ما أنجزه هذا المترجم الناقد الباحث ، الذي أصبح بفضل جديته

ودأبه وموهبته وديناميته شخصية مركزية في ميدان استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا.

٢ - فيبكه فالتر (Wiebke Walther) مدّرسة اللغة العربية وآدابها في جامعة بامبرج(Bamberg) ، وإليها يرجع الفضل في ترجمة مختارات قصصية ورواية " ميرامار" لنجيب محفوظ ، ورواية " طواحين بيروت " لتوفيق يوسف عواد ، ومختارات من القصة القصيرة العراقية بعنوان " ٢٨ قاصاً عراقياً. "

وإضافة لهذه الترجمات أنجزت فيبكه فالتر عدداً كبيراً من الدراسات النقدية حول الأدب العربي الحديث وأبحاثاً حول الحضارة الإسلامية . وتقديراً لتلك الجهود الترجمية والنقدية مُنحت هذه المستشرقة جائزة " فريدريش روكرت Friedrich - Rückert- " Preisعام ١٩٨٩ .

٣ - دروريس اربنبك - كليلياس Doris Erpenbeck - Kilias وقد ترجمت بمختارات من القصة القصيرة السورية (٢٢قاصاً سورياً) والقصة القصيرة المصرية (٣٢ قاصاً مصرياً) ، وروايات نجيب محفوظ التالية : " اللص والكلاب" , "ثرثرة فوق النيل" و "زقاق المدق" و " أولاد حارتنا " و "الثلاثية " . كما نشرت هذه المستشرقة عدداً كبيراً من الأبحاث والمقالات حول الأدب العربي الحديث . وتكريماً لها على إنجاراتها الترجمية فقد مُنحت السيدة كيلياس عام ١٩٨٩ جائزة دار نشر .(Volk und Welt)

إنّ من يدرس السير الثقافية لهذه الشخصيات الثلاث التي تهيمن على ساحة استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا يكتشف وجود عدد من السمات المشتركة بينها ، وأهم تلك السمات :

١ ـ أنها تمتلك تحصيلاً علمياً عالياً في ميدان اللغة العربية وآدابها، مما أكسب كلاً منها تلك الكفاءة اللغوية والثقافية التي ينبغي

أن تتوافر في كلّ مترجم أدبي ناجح . فقد مكّن ذلك التأهيل العلمي هؤلاء المترجمين من تحقيق أمرين أساسيين هما:

آ- اختيار أعمال أدبية جيدة وجديرة بأن تترجم إلى اللغة الألمانية. فبفضل اطلاعهم الجيد على الأدب العربي الحديث وإحاطتهم به تمكنوا من انتقاء أعمال أدبية ذات مستوى جمالي وفكري متميز قابلة لأن تستقبل في ألمانيا استقبالاً حسناً.

ب - نقل الأعمال الأدبية التي اختاروها إلى لغة الهدف بصورة تحقق فيها قدر كبير من التعادل المعنوي ـ الدلالي والأسلوبي الجمالي بين الترجمات الألمانية والأعمال الأدبية الأصليّة . لقد أنجز هؤلاء المترجمون ترجمات رصينة ، تدل على حسن استيعاب وفهم للأعمال الأدبية المترجمة ، وعلى موهبة لغوية وأسلوبية كبيرة وضمير مسلكي متطور.

٢ ـ لقد قام هؤلاء المترجمون بالجمع بين الترجمة والتقديم النقدي، فوضعوا للأعمال الأدبية التي ترجموها مقدّمات وشروحاً تساعد المتلقي الألماني على استقبالها بصورة مناسبة . ومن هذه الناحية فإنّ ما قام به المترجمون الألمان لأن يتخذ مثالاً يحتذى به.

٣ ـ يمتلك هؤلاء المترجمون ، إضافة للتأهيل العلمي والكفاءة اللغوية والثقافية ، كفاءة أدبية أو أسلوبية مكّنتهم من ترجمة الأعمال الأدبية العربية إلى الألمانية ترجمة تجمع بين التعادل المعنوي ـ الدلالي والتعادل الأسلوبي ـ الجمالي . وتلك هي المعادلة الصعبة التي يحاول المترجمون تحقيقها . فالجمال الأسلوبي هو ما يميز النصوص الأدبية عن غيرها من النصوص . وكل خسارة أسلوبية تنجم عن نقل النصّ الأدبي من لغة المصدر إلى لغة الهدف تفقده شيئاً من جماله وبالتالي من قدرته على التأثير في نفس المتلقي.

إنّ هذا التقييم الاجمالي لاينفي أنّ تلك الترجمات تنطوي على مشكلات ترجمية ، ولايعني أنّ كلّ شيء على مايرام . ولكن عرض

تلك المشكلات يتطلب أن تؤخذ كلّ ترجمة على حدة ، وتخضع لتحليل نقدي ترجمي دقيق ، وهذا يخرج عن إطار بحثنا.

٧ـ مشكلات ومصاعب :

إنّ ما قلناه عن هؤلاء المترجمين لايعني أنهم لايعانون من مشكلات ومصاعب تعيق حركة استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا وتعرقلها . إنّ قسماً كبيراً من تلك المصاعب ناجم عن الجغرافيا . فالتباعد الجغرافي الكبير نسبياً بين ألمانيا والوطن العربي يجعل من الصعب على المترجم الألماني أن يتابع ما يستجدّ في الساحة الأدبية والنقدية العربية من تطورات بالسرعة المطلوبة ، وذلك على الرغم من ثورة الاتصالات والمواصلات الحديثة . صحيح أنّ المكتبات العربية التي أقيمت في العواصم الأوروبية في الأعوام الأخيرة ، وتوافر فرص السفر الجوي ، ووجود اتصالات شخصية كثيرة بين المستشرقين الألمان وزملائهم وأصدقائهم في الوطن العربي ، هي عوامل كفيلة بأن تقلّص دور التباعد الجغرافي ، وأن تحسّن مستوى التواصل والتفاعل بين المستشرق الألماني الذي يعيش في بلاده ، حيث يمارس التدريس والترجمة والبحث ، وبين الحياة الأدبية والثقافية العربية المعاصرة ، ولكن التحسّن الذي طرأ على هذا الصعيد لم يزل من الناحية الواقعية تحسناً نسبياً ، ولم يزل المستشرق الألماني يجد صعوبة كبيرة في مواكبة الحركة الأدبية والثقافية العربية . ولئن كانت تلك المواكبة بالغة الصعوبة بالنسبة للباحث العربي نفسه الذي يعيش داخل الساحة التقافية العربية، بعد أن قطّعت الكيانات السياسية القطرية أوصالها وملأتها بالأسوار والحواجز الرقابية والإدارية ، فكيف ستكون حال المستشرق الألماني الذي يعيش على بعد آلاف الكيلومترات عن تلك الساحة ؟

ثمة إلى جانب المصاعب الناجمة عن التباعد الجغرافي مصاعب ومشكلات أخرى ناجمة عن الأوضاع السياسية والقانونية والثقافية

السائدة في الوطن العربي . فحقوق التأليف والنشر ، على سبيل المثال ، لم تزل إلى يومنا هذا محلّ أخذ وردّ في كثير من الأقطار العربية ، وليس هناك قوانين تنظّم حقوق الترجمة على وجه التحديد . لذلك يجد المترجم الألماني نفسه مضطراً لأن يحصل على تلك الحقوق من المؤلّف نفسه بصورة فردية ، وليس هناك ما يضمن ألا يحصل مترجم آخر على حق ترجمة الأعمال الأدبية نفسها ، ولايحول دون أن يسيء مترجم استخدام تلك الحقوق . وهناك أمثلة وحالات كثيرة معروفة من هذا القبيل . وأخيراً ، وليس آخراً ، فإنّ الدول العربية دول متخلفة ، لم تع ِ بعد أهمية أن تكون لها سياسة ثقافية خارجية ، أو عمل ثقافي خارجي . ولذا فلا عجب في ألاّ تدرك أهمية استقبال الأدب العربي الحديث في الخارج ، وألاّ تقدره حقّ قدره ، وبالتالي ألاّ تقدم أية رعاية أو دعم أو تشجيع لذلك الاستقبال ولصناعه من مترجمين ونقاد وناشرين . أليس من سخرية القدر أن تمنح المستشرقة والمترجمة الألمانية الكبيرة الدكتورة فيبكه فالتر ، التي نذرت حياتها لنقل الأدب العربي الحديث إلى الألمانية ولتوسيع دائرة استقباله وفهمه ، جائزة " فريدريش روكرت" الألمانية تقديراً لما أنجزته في مضمار الترجمة والنقد ، وأن تقدّم دار نشر ألمانية جائزة تقديرية للمترجمة الدكتورة دوريس إربنبك ــ كيلياس اعترافاً بأهمية وجودة ماأنجزته في ميدان ترجمة الأدب العربي الحديث إلى الألمانية ، بينما لم يقدّم الوطن العربي ، صاحب المصلحة الثقافية الكبيرة في استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا ، لهاتين المستشرقتين والمترجمتين الكبيرتين أيّ شكل من أشكال التكريم والتقدير ؟ أوليست فضيحة ثقافية كبرى أن تحظى المستشرقة الألمانية الكبيرة آنه ــ ماري شيميل (Anne - Marie Schimmel) أستاذة الاستشراق والدراسات الاسلامية في جامعة كامبردج ، وصاحبة الفضل الكبير في تعريف الرأي العام الغربي إلى الأدب العربي والحضارة العربية - الإسلامية من خلال الترجمة والدراسات ، بالتكريم من قبل الألمان والأمريكيين والباكستانيين والأتراك ، وألاّ تحظى من العرب بأصغر التفاتة تقدير ؟! وهل من العجيب بعد ذلك أن تكون صورة أمّة ذلك موقفها ممن ينشرون أدبها وثقافتها في العالم الخارجي صورة سلبية ؟(١٩)

٨ - نتائج ومترتّبات :

إننا لاندرس استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا لمجرد الدرس ، على ما لذلك من أهمية معرفية وعلمية ، بل ندرسه من أجل أن نستخلص النتائج والمترتبات ، ونحدد الخطوات العملية التي ينبغي اتخاذها للارتقاء بذلك الاستقبال إلى المستوى الذي يتطلّع إليه كلّ عربي واعٍ لمصلحته القومية ، مدرك لأهمية أن تتبوأ الثقافة العربية والأدب العربي مكانهما اللائق بين ثقافات الأمم وآدابها في هذه " القرية الكونية" ، على حدّ تعبير الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش(٢٠) . فكلّ عمل أدبي يُنقل إلى اللغات الأجنبية يقدم للمتلقين الأجانب صورة صادقة عن أوضاع الأمّة لعربية وقضاياها ، ويساهم في تصحيح صورة العرب في العالم ، تلك الصورة التي طالما عمل الأعداء على تشويهها . فالعمل الأدبي قادر ، بفضل ما يمتلك من قدرات إيحائية ، على التغلغل إلى قلوب المتلقين الأجانب وعقولهم ، وبالتالي على أن يكون أفضل رسول لأمتنا إلى الشعوب والأمم الأجنبية .

إنّ هذه الحقيقة تلقي على عاتق العرب ، شعوباً وجهات رسمية ، مسؤولية كبيرة تجاه حركة استقبال الأدب العربي الحديث في الخارج ، وتجاه حركة الترجمة الأدبية عن العربية بشكل خاصّ . فالعرب مطالبون أولاً وقبل أيّ شيء آخر بأن يعوا أهمية تلك الحركة ودورها في تشكيل صورة العرب في العالم الخارجي ، وفي تحديد مكانة الأدب العربي ضمن شبكة العلاقات الأدبية الدولية ، التي تزداد كثافة وترابطاً يوماً بعد يوم . والعرب مطالبون بأن يضعوا حركة استقبال الأدب العربي في الخارج ضمن سياقها الصحيح ، أي ضمن إطار العلاقات الثقافية بين العرب والأمم الأجنبية ، وهي علاقات ينبغي أن تكون متكافئة ومتوازنة ، قائمة على التبادل الثقافي والأدبي من موقع النديّة ، لامن موقع الهيمنة والتبعية . وضمن هذا السياق يكتسب استقبال الأدب العربي الحديث في الخارج أبعاده الحقيقية ، ويتضح دوره الكبير

في تحقيق التوازن الثقافي بين العرب والعالم . إنه تـوازن لايمكـن تصـوره ما لم يكن ما يترجم من أعمال أدبية عربية إلى اللغات الأجنبيـة متكافئـاً من الناحيتين الكمية والنوعية مع ما يترجم إلى العربية مـن أعمـال أدبيـة وأجنبية . عندما نعي ، معشر العـرب ، مصلحتنـا الثقافيـة القوميـة في استقبال الأدب العربي في الخارج ، يصبح من الأمور البديهية أن نرعـى ذلك الاستقبال ونشجعه بمختلف السبل والوسائل . ويتمثل الحدّ الأدنى من الرعاية والتشجيع في الأمور التالية:

١ ـ أن نهتـمّ بحركـة الترجمـة الأدبيـة مـن العربيـة إلى اللغـات الأجنبية، ومن بينها الألمانية ، فنرصدها ، ونوثّقهـا ، وندرسـها . فهـذه المتابعة تضعنا في صورة ما يجري على هذا الصعيـد من جهـة ، وتشـعر المترجمين الأجانب بأنّ العرب يعون أهمية ما يقوم بـه هـؤلاء المـترجمون ويقدرونه حقّ قدره . والمترجم بحاجة إلى التقدير " التغذية الراجعة" التي تحفزه لمزيد من الإنجازات.

٢ ـ أن نيسّر للمترجمين الأجـانب الاطـلاع علـى مـا يستجدّ في الساحة الأدبية العربية ، من خلال تزويدهـم بـالكتب والمجلات الأدبيـة والثقافية الجديدة ، وذلك من باب الإهداء والتبادل .

٣ ـ تقديم منح دراسية ، وتوجيه دعوات للقيام بزيارات اطلاعية للمـترجمين الأجـانب ، بغيـة تمكينهـم مـن تطويـر كفـاءاتهم اللغويـة والثقافية، ومن الاطلاع على الأوضاع الاجتماعية والثقافية العربيـة عـن كثب ، والتواصل مع الأدباء والمثقفين العرب بصورة مباشرة .

٤ ـ إحداث جوائز سنوية تمنح للمترجمين الذين يقومون بإنجازات بارزة ومتميزة في مضمار الترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأدبية.

٥ ـ إقامة ندوات وورشات عمل ومؤتمرات حول قضايا الترجمـة مـن العربيـة إلى اللغـات الأجنبيـة ، يشـارك فيهـا مـترجمون أجـانب ، ومختصـون في شـؤون الترجمـة ، وأدبـاء ومثقفـون وناشـرون وممثلـون للجهات المسؤولة عن العمل الثقافي الخارجي.

٦ - تنظيم مسائل حقوق الترجمة إلى اللغات الأجنبية ، وتسهيل الحصول على تلك الحقوق ، ومنع إساءة استعمالها.

٧ - تقديم دعم ماليّ لكلّ مترجم أجنبي ينجز ترجمة أدبية عن اللغة العربية ، وذلك تعويضاً له عن تدنّي مكافآت الترجمة في الأقطار المتقدمة والغنيّة.

٩ - ملاحظات ختامية :

إنّ ما جاء في هذا البحث بخصوص استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا لاينطبق على الساحة الألمانية فحسب ، بل ينطبق أيضاً على ساحات أوروبية وغربية كثيرة أخرى ، ويكتسي بالتالي طابعاً نموذجياً . وفي كلّ الأحوال لايجوز أن يغيب عن أذهاننا أنّ حركة استقبال الأدب العربي الحديث في ألمانيا مرتبطة بالمؤسسة الاستشراقية الألمانية ارتباطاً وثيقاً . وكلّ تطور في هذه المؤسسة ينعكس إيجابياً أو سلبياً على ذلك الاستقبال. ولذا فإنّ الجهات الأكاديمية والثقافية المعنية في الوطن العربي مطالبة بأن تولي الاستشراق الألماني ما يستحقه من اهتمام ، فترصد أوضاعه وتطوره واتجاهاته ، لتشجيع ما يستحق التشجيع ، وتنتقد ما ينبغي أم يُنتقد . فالاستشراق الألماني نافذة يمكن أن يطلّ العرب منها على المجتمع الألماني وحياته الثقافية ، بل وحتى الاقتصادية والسياسية . وإذا فهم العرب كيف يتعاملون مع المستشرقين الألمان بصورة مناسبة فمن الممكن أن يتحول هؤلاء إلى أصدقاء ، بل إلى رسل حقيقيين للثقافة العربية داخل المجتمع الألماني . إنّ المستشرق الألماني هو ، من حيث المبدأ ، إنسان مهتمّ بالثقافة العربية ، منفتح عليها ، محبّ لها ، متفهّم للمجتمع العربي ومشكلاته وقضاياه . أولا يشكّل ذلك قاعدة كافية للصداقة ؟ أم ترانا لم ندرك بعد مدى حاجتنا إلى أصدقاء وحلفاء في العالم الخارجي عموماً ، وفي ألمانيا على وجه الخصوص ؟

***

الحواشي والإحالات :

(١) بهذا الخصوص راجع مقالتنا : سبيل الأدب العربي إلى العالمية . نجيب محفوظ نموذجاً . في : الأسبوع الأدبي ، العدد ١٤٦ ، ٢٢/١٢/١٩٨٨، ص٤.

(٢) لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة راجع بحث : "حول دور الترجمة الأدبية في تشكيل صورة العرب في الأقطار الأوروبية والغربية " في هذا الكتاب.

(٣) لمزيد من التفصيل فيما يتعلق بقضايا الاستقبال الأدبي راجع كتابنا: الأدب المقارن ، مدخل نظري ودراسات تطبيقية . منشورات جامعة البعث ، حمص ١٩٩٢ .

(٤) بخصوص مسائل التأويل الأدبي راجع :

H. -R. Jauss: Asthetische Erfahrung und Literarische Hermeneutik . München 1977 .

(. ر. ياوس : التجربة الجمالية وعلم التأويل الأدبي . ميونيخ ١٩٧٧)

(5) H. Ziock (Hrsg.): Der Tod des Wasserträgers . Stuttgart 1963

S. Kabbani (Hrsg.) : Die Taube der Moschee . Stuttgart1963

(٧) راجع بحثنا : نحو الخروج من القمقم . الأدب العربي الحديث في ضوء ترجمة أعماله إلى الألمانية . في : البيان ، العدد ١٥٨ ، ٩/١٩٨٧، ص ٩٦ - ١٢٢ ، في هذا البحث يجد القارئ ثبتاً بيبليوغرافياً لأهمّ ما تُرجم إلى الألمانية من أعمال أدبية عربية.

(٨) صدر ضمن هذه السلسلة مايربو على خمسين كتاباً تعرّف القارئ الألماني بآداب الشعوب الأجنبية بطريقة موفقة تجمع بين الترجمة والشرح والتقديم النقدي الرصين.

(٩) فيما يتعلق بالاشكالية التاريخية والفكرية للاستشراق الأوروبي راجع: إ. سعيد : الاستشراق . ترجمة كمال أبو ديب ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨١ . وبخصوص الاستشراق الألماني راجع :

B. Tibi : orient und Okzident . In : Neue politische Literatur, 24. Jg., 3/1984 .

(١٠) أثيرت في وسائل الاعلام الألمانية ضجة كبيرة حول هذه الدار بعد اتهامها باختلاس أموال وزارة الخارجية الألمانية المخصصة لدعم النشاط الثقافي الخارجي.

(11) N. Machfuz : Die Moschee in der Gasse . A. d. Arab . V. W. Walther ، Leipzig 1980 .

(١٢) إضافة إلى المجموعة القصصية الآنفة الذكر صدرت ترجمات ألمانية لروايات "اللص والكلاب" و "زقاق المدق" و "ثرثرة فوق النيل "و "أولاد حارتنا "و "الثلاثية". كما أصدرت مجلة (text + kritik) الألمانية عدداً خاصاً حول نجيب محفوظ وأدبه ، وتلك هي المرة الأولى التي تخصص فيها هذه المجلة الهامة أحد أعدادها لأديب عربي.

(١٣) تولّى المترجم والمستشرق المعروف هارتموت فهندريش نقل تلك الأعمال المختارة إلى الألمانية والتقديم لها نقدياً . وقد صدرت عن دار نشر (لينوس) ، التي تخصصت في إصدار الأعمال الأدبية العربية الحديثة . راجع :

: G. Kanafani : Palästinensische Erzählungen. I - IV . A. d. Arab . V. H. Fähndrich , Basel 1981 -1985 .

(14) S. Khalifa : Der Feigenkaktus (1983) ; Die Sonnenblume (1986) , A. d. Arab. V. H. Fähndrich ; Memoiren einer unrealistischen Frau. Deutsch V. L. Schammaa, Zûrich 1991.

(15) N. el - Saadawi : Ringelreihen . Deutsch V. S. Enderwitz . Frankfurt 1990 .

(١٦) تسعى الأوساط المعادية للعرب في ألمانيا (وفي الأقطار الأوروبية والغربية الأخرى) لاظهار العرب في صورة أمّة تُضطَهد فيها المرأة بشدّة ، ويمارس فيها الرجل تسلطاً ذكورياً لا مثيل له . ولئن صحّ أنّ قضية تحرير المرأة هي إحدى القضايا الاجتماعية الساخنة في الوطن العربي ، فإنّ الطريقة التي تثار بها هذه المسألة في الأقطار الغربية طريقة مشبوهة ومغرضة ، لاترمي إلى مساعدة المرأة العربية ، بقدر ما تهدف لتشويه صورة العرب ولإثارة الرأي العام ضدّهم وضدّ قضاياهم السياسية العادلة.

(١٧) :

H. al - Scheich : Sahrahs Geschichte . Deutsch V. V. Theis. Zürich 1990 ; M. al - Machsangi : Eine blaue Fliege . A. d. Arab . V. H. Fähndrich , Basel 1987.

(١٨) راجع بهذا الخصوص كتابنا : الأدب المقارن ، مدخل نظريّ ودراسات تطبيقية ، ص ١٨٥- ١٩٣.

(١٩) راجع فيما يتعلق بتلك الصورة دراسة سامي مسلم : صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ .

(٢٠) م . درويش : في جنوب قريتنا الكونية ، في : البيادر ، ٧/٨ ، ١٩٩٢ ص ١٢ - ١٥ .

٢/٣ ـ حول دور الترجمة الأدبية في تشكيل صورة العرب في العالم

عندما نكتب في شؤون الترجمة الأدبية أو نبحث فيها فإنّ أبحاثنا تدور في معظم الأحيان حول نقل الأعمال الأدبية الأجنبية إلى اللغة العربية، أي حول التعريب، وقلّ أن نعالج في أبحاثنا شؤون الترجمة الأدبية إلى اللغات الأجنبية، أي التعجيم[١] . ولهذه الظاهرة أسباب متعددة ، يأتي في طليعتها حقيقة أنّ الترجمة التعريبية تمسّ الثقافة العربية بصورة مباشرة. فالآثار الأدبية التي تنقل إلى العربية تصبح، بمجرد تعريبها جزءاً لايتجزأ من الثقافة العربية . وعندما نكتب حول تلك الترجمات، فإننا نكتب في أمور ترتبط بثقافتنا القومية[٢] . أمّا السبب الثاني فيتمثل في صعوبة رصد ما ترجم إلى اللغات الأجنبية من آثار أدبية عربية واستقصائه. فالباحث يجد نفسه في هذه الحالة أمام عدد هائل من اللغات الأجنبية، التي لايمكنه أن يلمّ بها جميعاً . أضف إلى ذلك أنّ متابعة الإصدارات الجديدة، حتى في لغة أجنبية واحدة، كالانكليزية أو الفرنسية أو الألمانية، ليس بالأمر السهل . فهو يتطلّب من بين ما يتطلبه توافر إمكان استخدام المراجع البيليوغرافية المختلفة، وهذا غير متاح إلاّ لباحث مقيم في البلدن الناطق بتلك اللغة الأجنبية، حيث المكتبات العامة الكبرى التي تمتلك أجهزة ضخمة من المكتبيين المتفرغين، الذين ينهضون بعبء وضع الفهارس البيبليوغرافية في شتى ميادين النشر ، ومن بينها ميدان الترجمة الأدبية، وتلك مهمة يعجز أي باحث منفرد عن إنجازها بطبيعة الحال. وثمة سبب ثالث يكمن وراء قلة الخوض في شؤون ترجمة الأعمال الأدبية العربية إلى اللغات

الأجنبية، ألا وهو عدم توافر الوعي بأهمية هذه المسألة. فكثير من الناس يعتقدون أنها قضيته لاتعنينا، نحن العرب، بقدر ما تعني الشعوب التي تنقل الآثار الأدبية العربية إلى لغاتها، وذلك لأنّ ثقافات تلك الشعوب هي التي تغتني بهذه الترجمات. أمّا نحن فسيّان عندنا، في رأي هؤلاء، أترجمت إبداعاتنا الأدبية إلى اللغات الأجنبية، أم لم تترجم. إنّ منطق أولئك الذين يرون في استقبال الإبداعات الأدبية العربية في العالم الخارجي شأناً ثقافياً أجنبياً، لايجوز للعرب ولايسعهم أن يتدخلوا فيه، ينطلق من حقيقة أنّ من يتلقى عملاً أدبياً ، وطنياً كان ذلك العمل أم أجنبياً، فإنه يفعل ذلك بدافع من حاجته كمتلق، لا انطلاقاً من حاجة لدى الجهة المرسلة ، وهم ينطلقون في ذلك من حقيقة معروفة للجميع، ألا وهي أن عمليات التلقي الأدبي تخضع بصورة عامة لحاجات جمالية وفكرية قائمة في نفس المتلقي(٣) . ويستنتجون من ذلك أنّ عملية التلقي تعنيه وحده ، ولاتعني أحداً سواه ، وعندما يطبّقون تلك المقولة الصحيحة جزئياً على استقبال الإبداعات الأدبية العربية في الخارج ، تكون نتيجتها المنطقية أنّ تلك المسألة تعني المتلقين الأجانب وحدهم ، ولاتعنينا . فهم يحدّدون ما إذا كانوا بحاجة إلى استقبال أيّة إبداعات عربية ، وما نوع تلك الإبداعات ، ومتى يستقبلونها ، وكيف . إنّ الذين يحاجّون هكذا يُخرجون مسألة استقبال الإبداعات الأدبية العربية في العالم الخارجي من دائرة الاهتمام العربي ، ويعفون أنفسهم بالتالي من عناء دراسة ذلك الاستقبال.

ميزان ثقافي :

ولكن أصحيح أنّ استقبال الأدب العربي في الخارج هو شأن ثقافي أجنبي بحت ، لايعني العرب ، ولايتطلب منهم أن يؤثّروا في مجراه؟ في رأينا لابدّ من التأكيد على أنّ لنا ، نحن العرب ، مصلحة ثقافية كبيرة في أن يُستقبل أدبنا في العالم الخارجي بصورة مناسبة كمّاً ونوعاً. وإذ نقول إنّ هذه المصلحة ذات طبيعة ثقافية ، ونضع خطّاً تحت كلمة "ثقافية" فلكي نستبعد كلّ تفكير في المصلحة المادية أو التجارية ، التي

يمكن أن تنتج عن منح حقوق ترجمة الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية . فالمردود المالي لتلك العملية رمزيّ جداً ، ولايشكّل بالتالي مخرجاً من الضائقة المادية ، التي يعاني منها كثير من الأدباء العرب (٤) . إنّ مصلحتنا في أن يُستقبل الأدب العربي في الخارج هي إذن مصلحة ثقافية أولاً وأخيراً . وإذا شئنا أن نكون أكثر تحديداً فإننا نقول : إنها مصلحة ثقافية خارجية ، تتمثل في تعديل ميزاننا الثقافي الخارجي ، كي لا يكون خاسراً ، إن لم نقل كي يكون رابحاً .فتماماً كما لكلّ أمّة ميزان تجاري خارجي ، تحرص على ألا يكون العجز فيه كبيراً ، فإنّ لكل أمّة ميزاناً ثقافياً خارجياً ، يحسن ألا تكون درجة العجز فيه عالية أيضاً . قد يبدو استخدام مفهوم مستمد من عالم الاقتصاد ، كمفهوم " الميزان الثقافي الخارجي " ، أمراً مستهجناً ، وقد يعترض أحدهم على هذا المفهوم قائلاً : إنّ الثقافة ليست سلعة تخضع للتبادل ، ولقوانين العرض والطلب مثل السلع المادية ، وبالتالي لايمكن أن يكون في العلاقات الثقافية عجز ولافائض . وردّنا على ذلك أنه لايمكن لأحد أن ينكر أو أن يتجاهل حقيقة أنّ في عالم اليوم ، بصورة موازية للعلاقات التجارية الدولية ، علاقات ثقافية دولية ذات بنى معينة، تطورت وترسخت بصورة مشابهة للعلاقات الاقتصادية ، إن لم تكن مطابقة لها كلّ التطابق . فتماماً كما يوجد في عالم اليوم قوى عظمى ، تمارس الهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، ودول ضعيفة متأخرة ومهيمن عليها اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، توجد أقطار مهيمنة ، وأخرى مهيمن عليها ثقافياً . وتماماً كما تسود في العلاقات الاقتصادية الدولية بنى متناقضة وغير متكافئة ، دفعت العديد من أقطار العالم الثالث إلى حافة البؤس والمجاعة ، تسود في العلاقات الثقافية الدولية بنى غير متوازنة، ولامتكافئة ، تقوم على التغلغل والهيمنة.(٥) ولربّ قائل إن العلاقات الاقتصادية غير المتكافئة تؤدي إلى تراكم الديون،وإلى الوقوع في التبعية السياسية في نهاية الأمر،وهذا ما لا ينطبق على العلاقات الثقافية.إنّ حجة كهذه صحيحة من ناحية،وغير صحيحة

من ناحية أخرى . فاختلال العلاقات الثقافية لايؤدي إلى تراكم الديون ، ولا إلى الارتهان السياسي ، ولكنه يؤدي إلى أشكال أخرى من التبعية والارتهان ، تخدم التبعية الاقتصادية والسياسية وتكرسها بصورة غير مباشرة . فالتبعية الثقافية لايمكن إلاّ أن تكون جزءاً من تبعية شاملة ، اجتماعية ـ حضارية ، ، تمثل التبعية الاقتصادية والسياسية وجهها الأبرز، ولكن التبعية الثقافية تمثل وجهها الآخر ، الذي تربطه بالوجه الأول علاقة وظيفية . فالتبعية نظام اجتماعي ـ حضاري شامل ، لايمكن أن يكون مقتصراً على جانب واحد من جوانب المجتمع . وكلّ خلل يحدث في جانب من جوانب التبعية قد يهز منظومة التبعية برمتها . وبالمقابل فإنّ كلّ تحرر اقتصادي ـ سياسي يظل مهدداً ما لم يكمله تحرر ثقافي ويدعمه (٦) . ولهذا السبب نجد أنّ القوى الهيمنة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً في عالم اليوم تبذل جهوداً كبيرة في ميدان التغلغل الثقافي الخارجي ، وتنفق على نشاطاتها الثقافية الخارجية المتنوعة أموالاً طائلة ، يبدو إنفاقها للوهلة الأولى ضرباً من التبذير الذي لا مسوغ له (٧).

خلل في العلاقات الأدبية :

والعلاقات الأدبية السائدة في عالم اليوم لاتخرج عموماً عن الإطار المشار إليه آنفاً ، أي بنى الهيمنة والتغلغل ، التي تحكم العلاقات الثقافية بين الأقطار الصناعية المتطورة ، المسماة بالمراكز ، وأقطار العالم الثالث المتأخرة ، المسماة بالأطراف أو الهوامش . فالعلاقات الأدبية جزء لا يتجزأ من العلاقات الثقافية ، وينطبق عليها ما ينطبق على تلك العلاقات . وتأخذ بنى الهيمنة والتبعية في العلاقات الأدبية أشكالاً متعددة ، يأتي في مقدمتها دراسة الآداب الأجنبية في الجامعات ، والترجمة الأدبية . فعلى صعيد دراسة الآداب الأجنبية في العالم العربي نجد أنّ كليات الآداب في الجامعات تضم كلها أقساماً لدراسة الأدب الانكليزي ، ويضم قسم كبير منها أقساماً لدراسة الأدب الفرنسي ،

وهناك في بعض الكليات أقسام للأدب الألماني والروسي . وأقسام الآداب الأجنبية في الجامعات العربية أقسام مكتظة ، يدرس في كلّ منها آلاف الطلاب [٨] . أمّا في جامعات الأقطار الأوروبية والغربية عموماً ، فلا يدرس الأدب العربي إلاّ على نطاق ضيق جداً ، ويعدّ طلاب كلّ قسم من أقسام الاستشراق في تلك الجامعات بالعشرات ، ناهيك عن أنّ أقساماً كهذه غير موجودة إلا في بعض من تلك الجامعات فقط [٩]. ومقابل كلّ طالب أوروبي يدرس الأدب العربي هناك مئات الطلاب العرب الذين يردسون الآداب الأوروبية . ألا يمثل ذلك شكلاً صارخاً من أشكال التبعية الثقافية ؟ نرجو ألا يعتبر هذا القول دعوة إلى الكفّ عن دراسة الآداب الأوروبية في الجامعات العربية ، فنحن لاننكر ضرورة دراسة تلك الآداب ، ولكننا نرىّ أن الأدبين الانكليزي والفرنسي ليسا الأدب العالمي ، وإذا صحّ أننا بحاجة للانفتاح على الآداب الأجنبية ، فلننفتح على الآداب الأجنبية كلها ، أو على الآداب الرئيسية منها على الأقل ، لا على أدبين فقط . كذلك لايمكننا القفز فوق حقيقة أنّ الانفتاح على الآداب الأوروبية من جانب العرب لايقابله انفتاح على الأدب العربي من جانب الأوروبين ، مما يجعل العلاقات العربية ـ الأوروبيـة في ميدان الأدب مختلة بشدة لغير صالح العرب . وتلك حقيقة نذكّر بها في وقت استأنف فيح العرب والأوروبيون حوارهم الثقافي المتعثر ، الذي يتمّ بين طرفين : طرف يمتلك خطة متكاملة مدروسة بعناية ، ومؤسسات للعمل الثقافي الخارجي ، هو الطرف الأوروبي ، وطرف لايمتلك هذا ولاذلك ، ألا وهو الطرف العربي.

سبيلان لتلقي الإبداعات الأدبية :

إذا انتقلنا إلى حركة الترجمة الأدبية ، أو بتعبير أوسع حركة استقبال الأدب العربي في الأقطار الأوروبية والغربية [١٠] ، فإننا نجد خللاً لا يقلّ عن الخلل الذي لاحظناه على صعيد دراسة الآداب ، نكيف يُستقبل الأدب العربي في تلك الأقطار ؟

لابد لنا بادئ ذي بدء من الإشارة إلى أنّ هناك سبيلين رئيسين لذلك الاستقبال : أولهما استقبال ذلك الأدب بصورة مباشرة عن لغته الأصلية ، وهو في الواقع أفضل أشكال الاستقبال الأدبي . فعندما يستقبل المرء عملاً أدبياً على هذا الشكل ، فإنه يستقبله بصورة كاملة ، ويتعرف إلى مقوماته الجمالية والمضمونية الأصلية ، بعيداً عن وساطة المترجم ، التي تعني بالضرورة انحرافات أسلوبية ومضمونية ، أصبحت تعرف بـ " خيانة" المترجم . الا أنّ استقبال العمل الأدبي الأجنبي دون توسيط يشترط أن تتوافر في المتلقي كفاءة لغوية وثقافية كافية ، أي قدرة على استيعاب ذلك العمل في لغته الأصلية بصورة مناسبة ، وهو شرط غير متحقق إلاّ في عدد قليل من الأجانب . فالعربية ليست لغة واسعة الانتشار خارج الوطن العربي كلغة أجنبية ، وذلك لأسباب كثيرة ، أبرزها تخلف تدريسها للأجانب وقصوره .ولذا فإنّ استقبال الإبداعات الأدبية العربية عن لغتها الأصلية غير متيسر إلا لفئة محدودة جداً من الأجانب . وهي فئة تدرس الأدب العربي وتتخصص فيه . أمّا السواد الأعظم من الأجانب الذين يتلقون الأدب العربي ، أو يمكن أن يتلقوه ، فهم بحاجة ماسة إلى التوسيط الترجمي ، أي إلى أن تنقل الأعمال الأدبية العربية إلى لغاتهم ، قبل أن يتمكنوا من استقبالها . وهكذا فإنّ تلقي الأدب العربي في الخارج يتوقف في نهاية الأمر على ترجمة أعمال من ذلك الأدب إلى اللغات الأجنبية.

حركة الترجمة الأدبية :

من المعروف أنّ لنقل الأعمال الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية مشكلاته ، شأنه في ذلك شأن كلّ ترجمة أدبية . فكل ترجمة من هذا النوع تنطوي بالضرورة على خسارة شكلية أو مضمونية ،أو على الخسارتين معاً. وكلما كان العمل الأدبي عظيماً ، كلما كان عصيّاً على الترجمة . أمّا التعادل أو التكافؤ المطلق في الترجمة الأدبية فهو أمر مستحيل التحقيق ، ولذا أخذ علماء الترجمة يستعيضون عنه بمفهوم "

التعادل الديناميكي " أو " النسبي" ، بل إن بعضهم استبدل مفهوم " التعادل " بمفهوم "التقارب" (١٢) . ولكن رغم كلّ ما يقال عن " خيانة" المترجم ، تظل الترجمة السبيل الوحيد إلى تمكين متلقين لايجيدون اللغة الأصلية للعمل الأدبي من استقبال ذلك العمل . ولهذا فلا بديل عن الترجمة ، إذا أردنا لاستقبال الأدب العربي في الخارج ألاّ ينحصر في فئة صغيرة من المستعربين . فماذا عن حركة نقل الإبداعات العربية إلى اللغات الأجنبية ؟

يصعب على الباحث أن يقدم صورة وافية عن تلك الحركة في بحث قصير كهذا . فموضوع كبير وهامّ من هذا النوع يستحق أن تفرد له عدة رسائل دكتوراه ، تعالج كلّ واحدة منها استقبال الأدب العربي في إحدى اللغات الأجنبية . ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أنّ الموضوع لم يُدرس بعد ولو بصورة تمهيدية ، وذلك بأن تحصر الترجمات الأدبية التي تتم عن العربية إلى اللغات الأجنبية ببيليوغرافيا . وكلّ ما هو متوافر حالياً هي مقالات متفرقة حول ما ترجم إلى لغة أجنبية معينة من إبداعات أدبية عربية. فهناك ، على سبيل المثال ، أكثر من بحث حول ما تُرجم إلى الألمانية من أعمال أدبية عربية (١٣) ، ونتوقع أن تتوافر أبحاث مشاربهة حول ما ترجم إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والروسية . كما تنشر الصحافة العربية من حين لآخر أخباراً حول ترجمة أعمال أدبية عربية إلى اللغات الأجنبية (١٤) . ومن المؤكد أنّ فهرس الترجمات الذي يصدر عن منظمة الأمم المتحدة ، يقدّم خدمة كبيرة للباحث ، ولكنّ المعلومات التي يحويها ذلك الفهرس غير تامة.(١٥) ومع أنّ المرء لايستطيع أن يقدّم حالياً صورة دقيقة ووافية عن عمليات استقبال الأدب العربي من خلال الترجمة ، فإنّ بوسعه ، انطلاقاً من المعلومات المتوافرة ، أن يتبيّن المعالم الأساسية لذلك الاستقبال .

الجانب الكمّي :

من الناحية الكمية يلاحظ أنّ حجم ما يُنقل إلى اللغات الأجنبية (الأوروبية تحديداً) من أعمال أدبية عربية أقلّ بكثير مما ينقل إلى العربية

مـن أعمـال أدبيـة أجنبيـة . ومـع أنّ المرء لايستطيع الإدلاء على هـذا الصعيد بأقوال دقيقة احصائياً وذلك لعدم توافر الدراسات الببليوغرافيـة الكافية ، فيمكننا القول إنـه مقـابل كـلّ عمـل أدبي عربي يـترجم إلى اللغات الأوروبية ، تترجم عدة أعمال أدبية أوروبيـة إلى اللغـة العربيـة . إنّ كلّ المعلومات والمؤشرات المتوافرة حول حركة الترجمة الأدبيـة بـين اللغة العربية واللغات الأوروبية (إذا أخذت تلـك اللغـات كمجموعـة) تدلّ على وجود خلل كبير في بنية تلك الحركة لصالح الآداب الأوروبية ولغير صالح الأدب العربي . وفي السياق نفسه من الملاحظ أنّ الأعمـال العربية التي تترجم إلى اللغات الأوروبية تصـدر في معظم الحـالات عـن دور نشـرصغيرة ، وفي طبعـات محـدودة ، ولاتصـل بالتـالي إلى جمهـور عريض من المتلقين ، مما يجعل تأثيرها محدوداً ، ويجعلهـا عـاجزة عـن أن تساهم بفاعلية في تعريف الرأي العام الغربي بالأدب العربي(١٦) . ولعـل أبلغ وأطرف برهان على ذلك هو الاستغراب والاستهجان اللـذان قـابل بهما النقد الأدبي في بعض الأقطار الأوروبية منح جائزة نوبـل لـلآداب للروائي العربي نجيب محفوظ في عام ١٩٨٨ . ومـن المفيـد أن نـورد مـا كتبه بتلك المناسبة أحد النقاد الأدبيين في واحـدة مـن كـبرى الصحـف اليومية الألمانية الغربية ، فقد كتـب : " نزلـت إلى المكتبـات ، وسألت عن أعماله المترجمة إلى الألمانية ، فلم أعثر إلا على ترجمة لرواية بوليسـية عنوانهـا " اللـص والكـلاب" ، وقيـل لي إنّ ترجمـة لروايـة أخـرى قـد صـدرت في برلـين الشـرقية ، ولكنهـا غـير متوافـرة في المكتبـات . ومـا فاجأني أكثر من ذلك هو أنّ الصحافة لم تتفق حتى على شكل واحـد لكتابـة اسمـه . فهنـاك مـن يسـميه " مخفوتـس" ، بينمـا يدعـوه آخـرون " مهفوس" أو " مهفـوز " ، وأنـا أتسـاءل : كيـف تمنـح جـائزة نوبـل لأديب لايعرف الرأي العـام اسمـه الصحيـح؟."ومـع أنّ السـفير الألمـاني الغربي في مصر قد ردّ على النـاقد الآنـف الذكـر في رسـالة وجههـا إلى الصحيفة الألمانية ، ولام الناقد ، آخذاً عليـه جهلـه وعجرفتـه الثقافيـة ، فإنّ ذلك لايلغي حقيقة عنيـدة ، ألا وهـي أن الـرأي العـام في الأقطـار

الغربية لايعرف عن الأدب العربي إلاّ القليل ، وأنّ الأدب العربي مجهول ومحاصر في تلك الأقطار .(١٧)

الجانب النوعي :

هذا عن الجانب الكمي لاستقبال الأدب العربي المترجم إلى اللغات الأجنبية (الأوروبية) ، فماذا عن الجانب النوعي لذلك الاستقبال؟ إننا نعني بالجانب النوعي أمرين أساسيين هما : اختيار الأعمال الأدبية المترجمة ، وجودة الترجمة.

بالنسبة للنقطة الأولى من الملاحظ أنّ دور النشر الغربية تعتمد في عمليات اختيار أعمال من الأدب العربي للترجمة على المترجمين أنفسهم، وهم في أكثر الحالات من المستعربين ، كما تستعين في حالات أخرى بآراء بعض أساتذة الاستشراق ، الذين يقدّمون المشورة لدور النشر. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ المترجمين أنفسهم يكونون غالباً من خريجي أقسام الاستشراق ، أمكننا القول إنّ عملية الاختيار لاتخرج عن الوسط الاستشراقي ، وهو أمر يبدو جيداً للوهلة الأولى . أوليس المستشرقون أشخاصاً درسوا الأدب العربي وتخصصوا فيه ، وبالتالي فهم مأهلون أكثر من أية جهة أخرى لترشيح أعمال أدبية عربية للترجمة؟ هذا صحيح من الناحية النظرية .أمّا من الناحية الواقعية فمن الملاحظ أنّ قسماً كبيراً من المستشرقين الأوروبيين ليسوا على اطلاع كاف على الأدب العربي الحديث ، وذلك لأسباب كثيرة ، نذكر منها:

آ) النزعة الاستشراقية التقليدية إلى الاعراض عن الثقافة العربية الحديثة ، والانصراف الكلي إلى الثقافة العربية القديمة ، التي يسمونها "كلاسيكية" ، ويكرّسون جهودهم للتأليف والبحث والتحقيق في إطارها (١٨).

ب) بطء المترجمين والمستشرقين الأوروبيين في قراءة النصوص العربية ، مما يجعل كمية الأعمال الأدبية التي يطلعون عليها محدودة

نسبياً. فقدرة المرء على القراءة في لغته الأم تكون بطبيعة الحال أكبر بكثير من قدرته على القراءة في لغة أجنبية ، خصوصاً إذا كانت تلك اللغة هي العربية.

ج) عدم وصول الإصدارات الأدبية والنقدية العربية إليهم بسرعة وانتظام . ومع أنّ المكتبات العربية التي افتتحت في بعض العواصم الأوروبية في الأعوام الأخيرة قد ساعدت على توفير المطبوعات العربية في أوروبا ، فإنّ امكان متابعة ما يستجدّ في الساحة الأدبية العربية من هناك مازال محدوداً . وفي كلّ مرة يلتقي فيها المرء مستشرقين فإنه يلمس مدى الصعوبة التي يجدونها في متابعة الإصدارات الأدبية والنقدية العربية . ولهذا فإنهم يسافرون إلى الأقطار العربية كلما أتيحت لهم الفرصة ، وذلك بغرض تحديث معلوماتهم ، والاطلاع على ما يستجدّ في الساحة الثقافية العربية ، واقتناء الإصدارات الجديدة [١٩]

كلّ هذه الأمور تنعكس على عمليات الاختيار التي يقدم عليها المترجمون ، وتجعل وكثيراً من اختياراتهم مستغرباً بالنسبة إلينا في العالم العربي . فهم يترددون ، وكثيرا ما يعرضون عن ترجمة أعمال نعتبرها جمالياً وفكرياً من روائع الأدب العربي الحديث ، بل والأدب العالمي . ومن الملاحظ أنّ المستشرقين الأوروبيين يقيّمون النوعية الجمالية للأعمال الأدبية العربية تقييماً مختلفاً عن تقييمنا ، نحن العرب ، لتلك الأعمال . وهذا أمر طبيعي . فرؤية كلّ شعب لثقافته ، أي رؤية الأنا ، تختلف بالضرورة عن رؤية الشعوب الأجنبية ، أي رؤية الآخر ، لتلك الثقافة [٢٠] . ومن الملاحظ أيضاً أنّ شهرة الأديب العربي تلعب دوراً أساسياً في ترشيح أعماله للترجمة إلى اللغات الأجنبية . فالمترجمون الأجانب قلّ أن يقدموا على نقل أعمال لأديب عربي لم تتخط شهرته حدود بلاده . لهذا نجد أنّ معظم الأعمال الأدبية العربية الحديثة المنقولة إلى لغات أجنبية هي أعمال لأدباء مشهورين ، مثل نجيب محفوظ ، وغسان كنفاني ، ويحي حقي ، والطيب صالح ، ومحمود درويش ونزار قباني.[٢١] ألا يتعارض ذلك مع ما قلناه آنفاً حول اختيارات المترجمين

الأوروبيين ؟ إنّ التعارض ظاهري ، في رأينا ، وإذا أمعنا التفكير في بنية حركة ترجمة الآثار الأدبية العربية إلى اللغات الأوروبية نجد أنّ ذلك التناقض قائم في بنيتها ، التي تتحكم فيها عوامل متضاربة ، تطرقنا إلى بعضها في سياق هذا البحث . ومن ناحية أخرى يبدو لنا أنّ حركة استقبال الأدب العربي الحديث في فرنسا متقدمة على مثيلاتها في الأقطار الأوروبية الأخرى . فقد اتسعت لتشمل كتاباً معاصرين ، من أمثال صنع الله ابراهيم ، وجمال الغيطاني ، وإدوارالخراط ، وهاني الراهب وعبد السلام العجيلي . ومن الملاحظ أنّ حركة الترجمة إلى الاسبانية والانكليزية والروسية والألمانية قد أحرزت في الأعوام الأخيرة تقدماً ملموساً ، وقد جاء منح جائزة نوبل للآداب للروائي العربي نجيب محفوظ في عام ١٩٨٨ فأعطى تلك الحركة دفعاً جديداً [٢٢].

ومن السمات البارزة لحركة نقل الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية أنّ تلك الحركة قد تمحورت حول جنس أدبي واحد ، هو الجنس الملحمي ، من قصة ورواية ، وسط إعراض نسبي عن الأجناس الأدبية الأخرى ، من شعر غنائي ودراما . وتلك حقيقة مرة بالنسبة لأمة كانت حتى وقت قريب ترى في الشعر ديوانها والجنس الأكثر عراقة وتقدماً في أدبها . ولكنّ استقبال الأدب العربي في الخارج يسلك دروباً خاصة به ، وذلك لاعتبارات تختلف عن تلك التي تتحكم في استقبال هذا الأدب ضمن بيئته القومية . فمن هذه الاعتبارات حقيقة أنّ الشعر الغنائي ، المرتبط باللغة أوثق الارتباط ، يفقد قسطاً كبيراً من جماله عند نقله من لغة المصدر إلى لغة الهدف مهما كان المترجم بارعاً ، مما حمل كثيرين على اعتبار الشعر جنساً أدبياً غير قابل للترجمة[٢٣] . أمّا الدراما فهي جنس أدبي مرتبط بالعرض المسرحي ، ولايتجسد إلا فوق خشبة المسرح [٢٤]. ويبدو أنّ العالم الخارجي ، ولأسباب لا مجال هنا لتفصيلها ، غير مهتم كثيراً بعرض مسرحيات عربية في مسارحه ، وإن كان بعض المسرحيات العربية ، وهو قليل مثل مسرحيات سعد الله ونوس ، قد ترجم إلى لغات أجنبية ، ولانعرف ما

إذا كان قد عُرض أيضاً .[٢٥] مقابل هذه العقبات التي تعترض استقبال الشعر والمسرحية تجد الأعمال القصصية والروائية إقبالاً من جانب المترجمين والقراء على حد سواء . فهي لاتضع المترجم أمام مشكلات لاقبل له بحلها ، كما يفعل الشعر ، ويتمّ تلقيها عبر المطالعة ، خلافاً للمسرحية . لذا نجد أنّ أكثر ما ترجم إلى اللغات الأجنبية من أعمال أدبية عربية ينتمي إلى جنسي القصة والرواية.

نلاحظ أيضاً أنّ حركة ترجمة الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية قد تمحورت حول أقطار عربية دون سواها . فقد حظي الأدب العربي المصري بحصّة الأسد من الترجمة ، وهو أمر له مسوغات موضوعية ، تتلخص في أنّ ذلك الأدب هو أقدم الآداب القطرية العربية وأغناها . أمّا الأدب القطري الثاني الذي نال قسطاً وافراً من الترجمة ، فهو الأدب العربي الفلسطيني ، الذي نشط استقباله في الخارج لأسباب سياسية معروفة ، إضافة إلى نضجه الجمالي والفكري . ولكنّ الاعتبارات التي تسوّغ إيلاء الأدب العربي في مصر وفلسطين اهتماماً خاصاً لاتبرر إغفال الأدب العربي في الأقطار العربية الأخرى التي اقتصر تمثيلها في بعض الحالات على انطولوجيا قصصية واحدة وتعرض البعض الآخر لتجاهل تامّ [٢٦].

ومن المعروف أنّ حسن استقبال العمل الأدبي الأجنبي يتوقف في المقام الأول على جودة الترجمة ، أي على مدى تكافئها الدلالي والأسلوبي مع الأصل . فأعظم الأعمال الأدبية قابلة لأن تُمسخ وتقزم من خلال ترجمة رديئة .[٢٧] وبالطبع فإنّ تقييم نوعية ما ترجم إلى اللغات الأجنبية من إبداعات أدبية عربية لايجوز أن يتمّ بصورة إجمالية ، بل لابدّ من تقييم كلّ ترجمة على حدة . ولكن من الملاحظ أنّ المترجمين الأجانب يتحلون عموماً بضمير مسلكي جيد ، وقلّ أن يلجأ أحدهم إلى " سلق" الترجمة التي ينجزها بدافع تجاري ، كما يفعل بعض المترجمين العرب [٢٨] . وإذا وجدنا في تلك الترجمات تشويهاً ، فإنّ مردّه يكون في أغلب الحالات عدم فهم النص الأصلي على الوجه

الصحيح ، مما يؤدي إلى تفسيره تفسيراً خاطئاً وترجمته بصورة خاطئة [٢٩]

ويقتضي منا الإنصاف أن نقرّ بأنّ بعض المترجمين الأوروبيين قد أظهروا موهبة فائقة في ترجمة الإبداعات الأدبية العربية . نذكر من هؤلاء المترجمتين الألمانيتين فيبكه فالتر ودوريس كليلياس ، والمترجم السويسري هارتموت فهندريش . فقد حازت السيدة فالتر عام ١٩٨٩ على جائزة " فريدريش ريكرت" للترجمة الأدبية عن العربية ، ونالت السيدة كليلياس في العام نفسه جائزة دار نشر " فولك أندفيلت " تقديراً لألمنتها رواية " زقاق المدق " لنجيب محفوظ . أمّا السيد فهندريش ، الذي نقل إلى الألمانية أعمالاً روائية وقصصية لغسان كنفاني وسحر خليفة وصنع ا لله ابراهيم ومحمد المخزنجي ويحيى الطاهر عبد ا لله ، فقد أظهر في نشاطه الترجمي إتقاناً وغزارة يستحقان التقدير [٣٠]

المصلحة الثقافية العربية :

في ضوء هذا العرض السريع الموجز لسبل وواقع استقبال الإبداعات الأدبية العربية من خلال الترجمة إلى اللغات الأجنبية ، يمكننا القول إنّ العلاقات الأدبية بين العرب والأوروبيين تعاني من خلل كبير لغير صالح العرب ، وبالتالي فإنّ للعرب مصلحة ثقافية في أن يزول ذلك الخلل لتصبح تلك العلاقات متوازنة ومتكافئة ، وهذا لايتمّ إلاّ بتشجيع استقبال الأدب العربي في الخارج ودعمه . ولمن يريد منا أن نكون أكثر وضوحاً وتحديداً نقول : إنّ استقبال الأدب العربي في الخارج ، مباشرة أو عبر الترجمة ، يحمل إلى الشعوب المستقبلة معلومات عن المجتمع العربي وحضارته وقضاياه . وإذا كان الانسان بطبعه عدوّاً لما يجهل فإنّ استقبال الأدب العربي يمكن أن يساهم في إزالة العداء الذي تكنه قطاعات واسعة من الرأي العام الغربي للعرب وقضاياهم ، وهو عداء تكوّن وتراكم على مرّ القرون ، لأسباب تاريخية معروفة . ومع أنّ تلك

الأسباب قد زالت فإنّ بعض الأوساط الغربية ما زالت تمارس تشويه صورة العرب مستغلة المظاهر السلبية التي برزت في الواقع العربي الحديث . ومن الواضح أنّ تلك الأوساط تتلقى دعماً من الصهيونية ، التي تبذل قصارى جهدها لتشويه صورة العرب في الرأي العامّ العالمي ، كي تبرر للعالم اغتصابها لفلسطين ، وممارساتها العنصرية ضدّ الشعب الفلسطيني ، وعدوانها المتواصل على الأمة العربية . لذا فإنّ العرب مطالبون ببذل جهد إعلامي وثقافي خارجي كبير ، يمحو تلك الصور القوالبية المشوهة ، (ستريوتايب) التي رسختها القوى المعادية للأمة العربية في أذهان الشعوب الأوروبية والغربية بشكل خاصّ ، ليحلوا محلها صوراً أصحّ وأكثر دقة وأمانة (٣١).

ضمن هذا الإطار يمكن أن يمارس استقبال الأدب العربي في الخارج دوراً هاماً . فهو يقدّم للمتلقين صورة صادقة عن لمجتمع العربي ، بإيجابياته وسلبياته ، بإنجازاته ومشكلاته ، وهي صورة أكثر إقناعاً من تلك الصورة الدعائية التي يقدمها الإعلام السياسي العربي . ومع أنّ الصورة التي يقدمها الأدب تنطوي على سلبيات ، فإنها قادرة على أن تنفذ إلى مشاعر المتلقين وعقولهم في آن واحد ، فتجعلهم أكثر تفهماً للمجتمع العربي وحضارته ، وتلك هي الخطوة الأولى على طريق التعاطف مع العرب ، والتضامن مع قضاياهم العادلة (٣٢).

وللدور الذي يمكن أن يضطلع به الأدب في تحسين صورة العرب في الخارج وجه آخر . فمن المعروف أنّ الاعلام المعادي يحاول تصوير العرب أمّة بلا حضارة ، وأن ينسب كلّ الانجازات الحضارية العربية إلى عناصر غير عربية . ومن هنا فإنّ استقبال الأدب العربي في الخارج قادر على أن يساهم بفاعلية في تصحيح تلك الصورة (٣٣) . فهو يضع في متناول المتلقي الأجنبي أعمالاً أدبية متطورة فنياً وفكرياً ، يمثّل وجودها لذاته إنجازاً حضارياً عربياً . فأمة بلغ أدبها القديم والحديث هذه الدرجة من التطور ، لايمكن أن تكون أمّة همجية ، كما يصورها

الإعلام المعادي . ولرب قائل : إنّ كلّ هذه الأمور تصبّ في خانة واحدة ، هي الدور الإعلامي الخارجي ، الذي يمكن أن يلعبه استقبال الأدب العربي في الخارج . أولا يضطلع ذلك الاستقبال بأيّ دور أدبي بالمعنى الضيق أي الجمالي ، للكلمة ؟ وجوابنا هو أنّ ذلك الاستقبال يلعب دوراً كهذا بالتأكيد . فعندما يستقبل الأدباء الأجانب الإبداعات الأدبية العربية بصورة خلاقة منتجة ، فإنهم يتأثرون بها شكلياً ومضمونياً ، مما يساهم في إغناء الآداب الأجنبية وتطور الأدب العالمي ، وتاريخ العلاقات الأدبية بين العرب والشعوب الأخرى ، شرقية كانت أم غربية، حافل بالأمثلة على الدور التجديدي الجمالي ، الذي يمارسه الأدب العربي عندما يُستقبل بصورة خلاقة منتجة من قبل الأدباء الأجانب . لنذكر ، على سبيل المثال ، ما كان للمقامة والموشحات وقصص ألف ليلة وليلة وقصص كليلة ودمنة ورسالة الغفران وقصّة حيّ بن يقظان وقصة ليلى والمجنون من أثر في الآداب الأجنبية ، حيث أثرى الأدب العربي الأدب العالمي بأجناس أدبية ، وتقنيات وأساليب فنية ، وصور وخيالات ومعان وأغراض وثيمات جديدة (٣٤) . فقد تم ذلك كله نتيجة لاستقبال الأدب العربي في الخارج إستقبالاً ابداعياً منتجاً . ولا نعتقد أنّ الدور التجديدي الجمالي الذي يمارسه الأدب العربي في الأدب العالمي قد انتهى . ولعلّ الحكايات الخرافية الفنية ، وقصص حكواتي المقاهي ، التي يستخدمها بعض القاصّين العرب ، الذين يكتبون باللغات الأجنبية ، من أمثال جورج شحادة ، والطاهرجلّون ، ورفيق شامي ويوسف نعوم ، خير مثال على أنّ الأدب العربي مازال يرفد الأدب العالمي بأشكال فنية وثيمات جديدة (٣٥) . وغني عن الشرح أنّ مؤثرات إبداعية كهذه تساهم بدورها في تشكيل صورة العرب في الخارج ، وتقدّمهم للعالم الخارجي في صورة أمّة صانعة للحضارة في الماضي والحاضر ، تبدع الأدب والفنّ الراقيين.

مترتبات :

إذا اتفقنا على أنّ لنا ، نحن العرب ، مصلحة ثقافية كبيرة في أن يستقبل الأدب العربي في العالم بصورة مناسبة ، يكون علينا أن نستلخص ما يترتب على ذلك من نتائج عملية ، هي في رأينا ما يلي :

١ - متابعة ما يترجم إلى اللغات الأجنبية من آثار أدبية عربية بصورة دقيقة وحصره بيبليوغرافياً . وهذه مهمة ينبغي أن تمارس بصورة مركزية ، وعلى المستوى القومي . ولعل أفضل جهة مؤهّلة للقيام بها هي " المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم " (أليكسو) . وبالمناسبة فإنّ الأقطار المتقدمة كلها ، التي تعي مصلحتها الثقافية الخارجية ، تلجأ إلى إنجاز مؤلّفات بيبليوغرافية من هذا النوع[٣٦].

٢ - الاهتمام بالمترجمين الأجانب ، الذين ينقلون الإبداعات الأدبية العربية إلى لغاتهم ، وتقديم كلّ دعم وتشجيع ممكنين لهم ، لأنهم يسدون للأمة العربية خدمة ثقافية كبيرة . ونذكر من أشكال الدعم والتشجيع:

آ- مدّهم بالكتب والمجلات الأدبية والنقدية والفكرية العربية ، لتمكينهم من الاطلاع على كلّ ما يستجدّ في الأدب العربي والثقافة العربية ، وهذا أقل ما يمكن أن يقوم به الطرف العربي ، وأضعف الإيمان.

ب- تسهيل حصول المترجمين الأجانب على حقوق ترجمة الأعمال الأدبية إلى لغاتهم.

ج- تقديم منح دراسية واطلاعية قصيرة للمترجمين الأجانب ، كي يتمكنوا من الإقامة في الوطن العربي ، والاطلاع عن كثب على ما يستجدّ في المجتمع والثقافة العربيين من تطورات .

د- توجيه الدعوات إلى المترجمين الأجانب لحضور الندوات والمؤتمرات الأدبية والثقافية الهامة والمشاركة فيها بأبحاث ومداخلات ، إذا رغبوا في ذلك.

هـ - إقامة ندوات حول ترجمة الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية ، يشارك فيها ، إضافة إلى المترجمين الأجانب ، مختصون في شؤون الترجمة ، ووجوه أدبية عربية معروفة (٣٧).

و- إحداث جوائز وميداليات تشجيعية ، تُمنح لمترجمي الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية . وهذا أسلوب ناجع وفعال لتشجيع المترجمين الأجانب (٣٨).

ز- تشجيع المختصين في اللغات والآداب الأجنبية من العرب على نقل الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات التي يجيدونها ، والتصدي للفكرة الخاطئة ، القائلة بأنّ المرء لايستطيع أن يترجم إلاّ إلى لغته الأمّ (٣٩).

٣ ـ حثّ دور النشر الأجنبية وتشجيعها على نشر إبداعات عربية مترجمة إلى اللغات الأجنبية . ويكون ذلك من خلال إجراءات نذكر منها :

آ- تسهيل عملية الحصول على حقوق الترجمة.

ب- قيام الجهات الثقافية والإعلامية والدبلوماسية العربية بشراء كمية معتبرة من نسخ كلّ أثر أدبي عربي يصدر بلغة أجنبية.

ج- إعلام دور النشر الأجنبية بالأعمال الأدبية والفكرية البارزة، التي تستحق أن تترجم إلى اللغات الأجنبية ، وذلك بوساطة نشرة دورية، تتولى التعريف بالإبداعات الأدبية العربية الهامة وبأصحابها .

د- دعوة الناشرين الأجانب المهتمين بالأدب العربي إلى المؤتمرات والندوات الأدبية والثقافية الهامة ، وتعريفهم بالأدباء والناشرين العرب.

٤ ـ لانرى وجود أي سبب وجيه لعدم قيام دور نشر عربية ، رسمية كانت أم خاصة ، بنشر ترجمات لأعمال من الأدب العربي باللغات الأجنبية . فهناك في العالم تجارب ناجحة لأمم تولت بنفسها التعريف بإبداعاتها الأدبية من خلال الترجمة ، نذكر منها التجربتين

الصينية والسوفياتية .فقد أحدث كلّ من الصين والاتحاد السوفياتي دور نشر باللغات الأجنبية ، ونشر فيها ترجمات لإبداعاته الأدبية . ولولا ذلك لما عرف العالم الخارجي الكثير عن الأدبين الصيني والسوفياتي المعاصرين . وفي رأينا فإنّ العرب بحاجة إلى خطوة مشابهة ، يتغلبون بواسطتها ، ولو بصورة جزئية ، على العزلة الثقافية الشديدة ، التي يعانون منها على الصعيد الخارجي ، وما دامت الأقطار العربية تنفق أموالاً طائلة على نشاطاتها الإعلامية الخارجية فلماذا لاتوجّه جزءاً من تلك النشاطات إلى العمل الثقافي الخارجي في صورة نشر ترجمات لإبداعات أدبية عربية باللغات الأجنبية ؟ !

٥ ـ إيلاء أهمية خاصة لترجمة الإبداعات الأدبية العربية إلى لغات شعوب العالم الثالث ، والشعوب الإسلامية بوجه خاصّ . فأوروبا ليست العالم ، وشعوب العالم الثالث وفي مقدمتها شعوب العالم الاسلامي ، هم شركاؤنا في التاريخ والمصير ، ولنا مصلحة كبيرة في أن نتواصل معهم ثقافياً . ومن المؤكد أنّ العرب يرتكبون خطأً جسيماً إذا قصروا نشاطهم الثقافي الخارجي على الأقطار الأوروبية والغربية ، ومارسوا بذلك المركزية الأوروبية نيابة عن الأوروبيين ، بدافع من التبعية الثقافية لأوروبا.

٦ ـ وأخيراً نرى من الضروري أن نشجع الأجانب على تلقي الأدب العربي عبر لغته الأصلية ، وذلك لايكون إلا بتطوير تعليم العربية لغير أبنائها . ففي سياق تعليم العربية للأجانب نستطيع أن نعرفهم إلى أبرز الأدباء العرب وأهم الإبداعات الأدبية العربية . ومن المؤكد أنّ تعليم العربية لغير أبنائها ينبغي أن يشكل أحد وسائلنا الرئيسية لتعريف العالم الخارجي بثقافتنا عموماً ، وبأدبنا على وجه الخصوص [٤٠].

وبعـد : فإنّ لنا نحن العرب ، مصلحة ثقافية كبيرة في أن يُستقبل أدبنا في العالم بصورة مناسبة . والترجمة هي السبيل الرئيسي لتعريف العالم بإبداعاتنا الأدبية . ولكنّ حركة نقل تلك الإبداعات إلى اللغات الأجنبية مازالت دون المستوى المطلوب ، وهذا يقتضي تدخلنا

لدعم تلك الحركة وتشجيعها ، من خلال إجراءات ملموسة على صعيد المترجمين والناشرين والمتلقين . فنحن لسنا مطالبين برعاية مصالحنا السياسية والاقتصادية والأمنية فحسب ، بل نحن مدعوون أيضاً ، بالدرجة نفسها ، لرعاية مصالحنا الثقافية الخارجية . أوليس العمل الثقافي الخارجي هو الشكل الأحدث والأرقى والأذكى للسياسة الخارجية ؟

■

الهوامش :

(١) على الرغم من أنّ استخدام هذا المصطلح قد شاع في الآونة الأخيرة، فإننا نميل إلى عدم استخدامه ، لما يخلّفه في النفس من ظلال سلبية مردّها اشتقاق هذه الكلمة ، أي التعجيم ، من (عجم) وارتباطها اللغوي بكلمات : الأعاجم والعجماوات ، والعجمة . (راجع شحادة الخوري : ١٩٨٩)

(٢) عندما يترجم النص الأدبي من لغة إلى أخرى ، فإنه يهاجر من ثقافة لغة المصدر وأدبها إلى ثقافة لغة الهدف وأدبها ، مبدلاً بذلك هويته الثقافية . ولهذا تعتبر الترجمة عملية هجرة يقوم بها النصّ .

(٣) راجع بخصوص هذه المسألة

: W.Reese(1980) ; M. Naumann (1984)

(٤) في معظم الحالات لاتعود عملية ترجمة الإبداعات الأدبية العربية بأيّ مردود ماليّ على المؤلفين . فحقوق الترجمة ملك للناشر ، لاللمؤلف . وفي كلّ الاحوال ينبغي ألاّ تكون هناك أية أوهام بهذا الخصوص .

(٥) يرجع الفضل في بلورة هذه المقولة إلى الباحث العربي الدكتور بسام طيبي ، أستاذ العلاقات الدولية في جامعة غوتنغن الألمانية الغربية . لمزيد من التفصيلات راجع الفصل الأول من كتابه . ((B. Tibi : 1981) أمّا الأدبيات المتوافرة باللغة العربية حول مسائل التغلغل الثقافي فهي كثيرة ، ولا يتسع المجال لإيرادها جميعاً ، ولذا فإننا نكتفي بالإشارة إلى : (عزيز الحاج : ١٩٨٣)

(٦) نستند في تصورنا لمنظومة التبعية إلى مقولات الباحث والمفكر العربي الدكتور سمير أمين (١٩٧٤)

(٧) لقد أوجدت كلّ دولة من الدول الصناعية الغربية المتطورة نظاماً متكاملاً للنشاطات الثقافية الخارجية ، وهو نظام له أجهزته ومؤسساته ، التي

تمارس تلك النشاطات بصورة مباشرة ، مثلما تفعل الملحقيات الثقافية في سفارات تلك الدول ، أو بصورة غير مباشرة من خلال "منظمات وسيطة" لها كيان مستقل نسبياً ، ولكنها تموّل ويشرف عليها من قبل وزارات الخارجية في المقام الأول . أمّا أبرز مؤسسات العمل الثقافي الخارجي فهي المراكز الثقافية المنتشرة في معظم عواصم البلدان الأجنبية ، حيث تمارس نشاطات ثقافية كتعليم اللغات الأجنبية ، وعرض الأفلام والمسرحيات ، وإقامة المعارض الفنية والمحاضرات والندوات والحفلات الموسيقية..

ويلي المراكز الثقافية من حيث الأهمية مؤسسات التبادل الجامعي ، التي تقدّم المنح الدراسية للطلاب الجامعيين وللخريجين الذين يودّون إتمام دراساتهم العليا في جامعات الدول الغربية . أمّا الأموال التي تنفقها الدول الغربية على نشاطاتها الثقافية الخارجية فهي طائلة حقاً ، مما يثير من حين لآخر انتقادات بعض الأوساط المتقوقعة الانعزالية ، التي لاتعي أهمية العمل الثقافي الخارجي ، ولكنّ القائمين على ذلك العمل لايحاورن جواباً ، وسرعان ما يسكتون تلك الانتقادات مشيرين إلى أنّ ما ينفَق على النشاطات الثقافية الخارجية هو استثمار للمستقبل ، يخدم السياسة الخارجية ، وبالتالي المصالح السياسية الخارجية للبلاد المعنيّة على المدى الطويل . ولقد تكوّن في الدول الغربية إجماع على أنّ العمل الثقافي الخارجي يمثّل دعامة أساسية من دائم السياسة الخارجية . راجع بهذا الخصوص: B. C. Witte (1987)

(٨) يدرس في قسم الأدب الانكليزي بجامعة "البعث" وهي أحدث الجامعات السورية وأصغرها ، (٣٥٠٠) طالباً وطالبة ، أمّا جامعات دمشق وحلب واللاذقية فإنّ عدد طلاب قسم الأدب الإنكليزي في كلّ منها يربو على ذلك بكثير . فكم عدد الطلاب الذين يدرسون اللغة العربية وآدابها في جامعات الأقطار الناطقة بالانكليزية ؟ لمزيد من المعلومات يرجى الرجوع إلى الدليل الذي تصدره كلّ جامعة من الجامعات العربية .

(٩) نحيل من يودّ التأكد من ذلك إلى دليل الجامعات في كلّ قطر من الأقطار الغربية .

(١٠) لانتطرق في هذا البحث إلى استقبال الأدب العربي في أقطار العالم الثالث ، وذلك لأننا لانعرف عنه الشيء الكثير ، رغم أننا نعي أهميته البالغة

(١١) من أفضل الأمثلة التي يمكن أن يسوقها المرء للتدليل على صحّة هذه المقولة رائعة الأديب الكلاسيكي الألماني يوهان ف. غوته "فاوست" التي نُقلت إلى العربية عدّة مرات ، ولكنّ تلك الترجمات العربية كانت بعيدة عن التعادل الجمالي والمضموني مع النص الأصلي بعد الأرض عن السماء . راجع : ي . ف . غوته (١٩٥٨) و (١٩٥٩) و (١٩٨٠) و(١٩٨٩).

(١٢) فيما يتعلق بشؤون الترجمة الأدبية ونظريتها يرجى الرجوع إلى: J. Levy (1969)

كما ننصح القارئ الذي يجيد الألمانية بالرجوع إلى كتاب F. Apel) (1983)وبخصوص مفهوم التعادل الجمالي في الترجمة الأدبية نحيل القارئ إلى (ي . نايدا ١٩٧٦)(K. Reiss (1971) ; W. Koller (1983))

(١٣) فيما يتعلق بترجمة أعمال أدبية عربية إلى اللغة الألمانية راجع بحثنا : (ع. عبود ١٩٨٧)

(١٤) أثناء قيامنا بإعداد هذا البحث نشرت إحدى المجلات الأسبوعية العربية خبر صدور ترجمة سويدية لديوان الشاعر العربي الفلسطيني محمود درويش ، كما قرأنا في إحدى الصحف السورية خبر صدور ترجمة روسية لأعمال الشاعر الفلسطيني معين بسيسو . وفي ربيع ١٩٩٠ صدرت بالألمانية ترجمات لبعض أعمال رفاعة الطهطاوي (R. al _ Tahtawi (1990) ونوال السعداوي (N. El - Saadawi (1990 وحنان الشيخ- H. al Scheich (1990)ويحيى الطاهر عبد الله (J. T. Abdallah (1990 كما حملت الصحافة العربية خبر نقل عدد كبير من آثار الروائي العربي الكبير نجيب محفوظ إلى اللغات الأجنبية . ولكنّ نشر أخبار من هذا النوع يخضع لعوامل الصدفة ، أكثر مما يعبّر عن سعي لتغطية منهجية لحركة ترجمة الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية .

(١٥) نعني بذلك السلسلة البيبليوغرافية السنوية (Index Translationum)وهو فهرس يورد ما تزوّده به الجهات الرسمية القطرية من معلومات حول ما يصدر في أقطارها من ترجمات . ولكن إذا كانت تلك

الجهات ، في الوطن العربي مثلاً ، مقصّرة في جمع البيانات البيبليوغرافية المتعلقة بحركة الترجمة في بلادها ، فكيف تستطيع أن تزوّد الـ (يونسكو) بتلك البيانات. ولهذا لا غرابة في ألاّ يحتوي هذا الفهرس إلا على معلومات قليلة حول الترجمة في الأقطار العربية .

(١٦) على سبيل المثال نذكر أنّ معظم ما صدر بالألمانية من ترجمات لأعمال من الأدب العربي الحديث قد صدر عن دار نشر صغيرة في برلين الغربية اسمها (Edition Orient) وعن داري نشر سويسريتين صغيرتين هما (Unionsverlag)و (Lenos) أمّا صدور ترجمة ألمانية لأثر أدبي عربي حديث في دار نشر ألمانية كبيرة فهو شذوذ عن القاعدة.

(١٧) جرت تلك المساجلة الغنية بالدلالات على صفحات جريدة (Frankfurter Allgemeine Zeitung) وهي إحدى الصحف اليومية الألمانية الكبرى ، وتلعب صفحاتها الثقافية ، وملحقها الثقافي الأسبوعي وملحق الأدب الذي تصدره فصلياً ، دوراً كبيراً في توجيه الحركة الثقافية الألمانية . راجع مقالنا : ١٩٨٨

(١٨) انظر ادوار سعيد وتحليله الخلفيات التاريخية والايديولوجية لتلك النزعة (١٩٨١).

(١٩) من الضروري أن نشير في هذا السياق إلى أنّ هذا النوع من الصعوبات التي يواجهها المستشرق الأجنبي ذو طبيعة عملية بحت ، ولاعلاقة له البتة بدأب المستشرق وحده . فكثير من المستشرقين الأوروبيين يتمتعون بأخلاق عمل تستحق أن يُحتذى بها ، وهم يتعمقون في مجال اختصاصهم تعمقاً نتمنى أنّ يتحلى به أكبر عدد من الباحثين العرب . وعلى سبيل المثال فقد زارت المستشرقة الألمانية المعروفة روتراود فيلاندت في أواخر ١٩٨٩ م المنطقة العربية ، وألقت في الجامعات التي زارتها ثلاث محاضرات ، كان أبرزها وأكثرها استثاراً بالاهتمام محاضرة حول "صورة المرأة الأوروبية في الأدب العربي الحديث "، (المؤلفة : ١٩٨٩، مخطوط) .ومع أنّ هذه المستشرقة متخصصة في الأدب العربي الحديث ، وقد كتبت فيه دراسة مقارنية

رائدة عنوانها "صورة الأوروبيين في الأدب القصصي والمسرحي العربي الحديث " راجع [R . Wielandt (1980) : ، فقد لاحظ مستمعو المحاضرة الآنفة الذكر أنّ الباحثة قد أغلفت روايات هامّة جداً بالنسبة لموضوع بحثها ، مثل روايتي شكيب الجابري "قدر يلهو" و "وداعاً ياأفاميا" وروايتي فاضل السباعي "الظمأ والينبوع" و "ثم أزهر الحزن" ورواية حنا مينا "الربيع والخريف"، بينما أسهبت في الاستشهاد بأعمال روائية ليس لها قيمة فنية أو فكرية كبيرة . وخلال النقاش تبيّن أنّ ذلك لايرجع إلى سوء نيّة ، ولا إلى تقصير ، بل إلى سبب براغماتي بسيط جداً ، يتمثل في أنه لم تتح للباحثة فرصة الاطلاع على الآثار الأدبية التي أشرنا اليها . ومن هنا تأتي أهمية تقديم مساعدة عملية للمترجمين والمستشرقين الأجانب وذلك بمدهم بالكتب والمجلات.

(٢٠) لقد حدا هذا الاختلاف في المنظور التأويلي ببعض منظري الأدب إلى وضع نظرية تأويل خاصة بالآداب الأجنبية ، أطلقوا عليه تسمية "علم تأويل الغربة "[راجع G. Neuner (1988) :]

(٢١) ثمة على هذا الصعيد بعض الاستثناءات التي نذكر منها قيام المستشرق والمترجم السويسري المعروف "هارتموت فهندريش" بترجمة مختارات من قصص محمد المخزنجي إلى الألمانية . راجع(M. al - Machsangi (1987 : والشيء نفسه يمكن أنّ يقال على المنة أعمال أدبية للطاهر عبد الله وحنان الشيخ (انظر المراجع المشار إليها في الحاشية ١٤).

(٢٢) نستند في تقديرنا هذا إلى مانشرته الصحافة العربية من معلومات حول ترجمة الإبداعات الأدبية العربية إلى الفرنسية ، ولانمتلك أية دراسات ببليوغرافية دقيقة حول هذا الموضوع.

(٢٣) فيما يتعلق بمشكلات ترجمة النصوص الشعرية نحيل القارئ إلى الباب الثاني من كتاب [(J . Levy (1969]

(٢٤) راجع فالترهينك (١٩٨٣) ، ص١١ وما يليها .

(٢٥) نعرف من معلومات صحفية أنّ بعض مسرحيات سعد الله ونوس قد تُرجم إلى ثلاث لغات أجنبية على الأقل هي : الروسية والألمانية والفرنسيّة .

(٢٦) بهذه المناسبة نجد من واجبنا التنويه بسلسلة كتب "استطلاعات (Erkundungen) "التي كانت تصدرها دار نشر" Volk und Welt " الألمانية التي تقدم للقارئ الألماني أفضل ما في الآداب الأجنبية من قصص قصيرة. وقد صدرت ضمن هذه السلسلة مختارات قصصية عربية (١٩٧١) ، وجزائرية (١٩٧٣) وفلسطينية (١٩٨٣) وعراقية (١٩٨٥) ،وكان آخر ما صدر ضمن تلك السلسلة من مختارات القصة القصيرة المصرية ، أختارتها وزودتها بحواشٍ وخاتمة ، وألفت قسماً كبيراً من قصصها المستشرقة والمترجمة الألمانية المعروفة دوريس كليلياس ، راجع .[: (1989) D. Killias] وحبذا لو قامت الجهات المعنية باستقبال الآداب الأجنبية في العالم بتقييم تجربة "استطلاعات" والاستفادة منها.

(٢٧) لقد بيّنا بصورة نقدية ملموسة كيف قُزّم الأديب الكلاسيكي الألماني الشهير فريدريش شيللر من خلال ترجمات عربية رديئة ومشوّهة ، تمّ معظمها عن لغات وسيطة ، لا عن لغة المصدر الأصلية . راجع بحثنا (١٩٨٦).

(٢٨) الترجمات الأدبية الرديئة في الأدب العربي كثيرة ، وقد حللنا الترجمة العربية لرواية هاينريش مانّ "الملاك الأزرق" ، وهي ترجمة قام بها خيرات بيضاوي ، بصورة تفصيلية في كتابنا [١٩٩٣] . بهذا الخصوص راجع أيضاً بحث بسام طيبي (١٩٨١).

(٢٩) يعتبر ليفي إساءة فهم النص الأصلي مصدراً أساسياً من مصادر الأخطاء الترجمية. [J . Levy (1969)]

(٣٠) لمزيد من المعلومات راجع بحثناالمشار إليه في الحاشية (١٣)

(٣١) أخذ العرب في الأعوام الأخيرة يولون اهتماماً ملحوظاً لدراسة صورتهم في الخارج ، وقد صدرت عدة دراسات حول هذا الموضوع . نذكر منها : سامي مسلم (١٩٨٥).

(٣٢) يخطئ من يعتقد أنّ الإعلام الثقافي الخارجي ينبغي ألا يعرض إلاّ الجوانب الإيجابية ، وأن يخفي السلبيات التي ينطوي عليها الواقع العربي . فإعلام كهذا يستخفّ بعقول المتلقين الأجانب ، ويعطي بالتالي مردوداً عكسياً . أمّا

الإعلام الخارجي السليم فيقدّم صورة متوازنة وصادقة للمجتمع العربي ، بإنجازاته ومشكلاته ، فيكسب بذلك احترام المتلقي الأجنبي وثقته . والأدب المترجم إلى اللغات الأجنبية يؤدي تلك الوظيفة على أفضل وجه.

(٣٣) من أبرز الذين تصدّوا لهذا الزعم المستشرقة الألمانية الكبيرة " زيغريد هونكه" التي بينت في كتابها الشهير " شمس العرب تسطع على الغرب (١٩٨٦) ما قدّمه العرب والمسلمون من إنجازات حضارية كبيرة .

(٣٤) راجع بهذا الخصوص محمد غنيمي هلال (١٩٨٧) : محمد مفيد الشوباشي (١٩٦٨) ، صلاح فضل (١٩٨٥).

(٣٥) الأخيران أديبان من أصل عربي ، يكتبان بالألمانية . وقد استخدم رفيق شامي في كتاباته شكل الحكاية الخرافية الشرقية ، وكتب يوسف نعوّم بأسلوب الحكواتي ، فرفدا الأدب الألماني المعاصر بشكلين فنيين جديدين.

(٣٦) هناك على سبيل المثال عدد كبير من الإصدارات البيبليوغرافية حول العلاقات الأدبية الألمانية ـ الاسكندنافية ، والألمانية ـ الفرنسية ، والألمانية ـ الانكليزية ، والألمانية ـ البولونية ، بل والألمانية ـ العربية.(M. Maher u. W. Uhle (1979)) فلماذا لانتعلم من تجارب الآخرين على هذا الصعيد ؟

(٣٧) إنّ هذا النوع من اللقاءات ضروري جداً ، فهو يعرّف المترجمين الأجانب بعضهم بالبعض الآخر ، ويؤدي إلى قيام تنسيق وتعاون بينهم ، ويحفزهم على الإقدام على ترجمة مزيد من الأعمال الأدبية . ولذا نجد أنّ الأقطار المتقدمة ، التي تعي أهمية الترجمة الأدبية ودورها في العلاقات الثقافية الدولية ، تلجأ إلى تنظيم ندوات كهذه بصورة دورية . فما أحوجنا إلى إقامة ندوات كهذه ، ندعم بها ترجمة أدبنا إلى اللغات الأجنبية ، ونكسر هذا الطوق الثقافي الخارجي المريع ، الذي ضربه حولنا أعداء أمّتنا ، وساهمنا في تكريسه بجهلنا وتخلفنا .

(٣٨) على هذا الصعيد نقترح أنّ يضاف إلى الجوائز العربية القائمة بند خاص بالترجمة والمترجمين ، كما نقترح إحداث جوائز خاصة بالترجمة ، تمنح للمترجمين الأجانب والعرب الذين لهم إنجازات بارزة في مجال الترجمة عن العربية إلى اللغات الأجنبية .

(٣٩) هناك أمثلة كثيرة تدحض الرأي القائل بأنّ المرء لايترجم بصورة مناسبة إلاّ إذا كانت لغته الأم هي لغة الهدف . ومع أنّ هذا الرأي واسع الانتشار ، وله مبرراته ، فإنه رأي خاطئ وضار جداً . فهو يحرم الأمة العربية من الاستفادة من مواهب أبنائها الذين يملكون كفاءة وموهبة في حقل الترجمة التعجيمية ، ويؤدّي بالتالي إلى الاعتماد على ترك الترجمة التعجيمية للمترجمين الأجانب . ومن الأمثلة الملموسة التي تدحض الرأي الداعي إلى ترك الترجمة التعجبية للمترجمين الأجانب السيدة سلمى الخضراء الجيوسي على صعيدالترجمة إلى الانكليزية ، والشاعر عبد اللطيف اللعبي على صعيد الترجمة إلى الفرنسية ، والمرحوم الدكتور ناجي نجيب الذي قام بترجمة عدة أعمال أدبية هامة من العربية إلى الألمانية . راجع بهذا الخصوص بحثنا المشار اليه في الهامش (١٢).

(٤٠) فيما يتعلق بالدور الذي يمكن أنّ يلعبه تعليم العربية لغير أبنائها في الاعلام الخارجي العربي راجع مقالنا (١٩٨٩ / آ) ، وارجع أيضاً إلى علي محمد القاسمي (١٩٧٩) ، ص ١٥ ــ ٤٨ ، ورشدي أحمد طعيمة (١٩٨٩) ، ٣١- ٣٤ ، وسليمان داود الواسطي (١٤٠١ هـ) ص ٢٢٠- ٢٣٥ .

مراجع البحث :

١ - العربية :

-أمين ، سمير (١٩٧٤) : التطور اللامتكافئ . بيروت : دار الطليعة .

-جوته ، يوهان فولفغانغ (١٩٥٨) : فاوست . تعريب محمد عوض محمد . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة .

-جوته ، يوهان فولفغانغ (١٩٦٩) : مأساة فاوست . تعريب محمد عبد الحكيم كرارة . الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٦٩.

-جوته ، يوهان فولفغانغ (١٩٨٠) : فاوست الترجمة الكاملة ترجمة سهيل أيوب ، دمشق (الينابيع).

-جيته (١٩٨٩) فاوست ترجمة وتقديم عبد الرحمن بدوي ، الكويت ، من المسرح العالمي ، ٢٣٢ - ٢٣٤.

- الحاج ، عزيز (١٩٨٣) . الغزو الثقافي ومقاومته ، بيروت ، المؤسسة العربية.

-الخوري ، شحادة (١٩٨٠) : دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب، دمشق : دار طلاس.

-سعيد ، ادوار(١٩٨١) : الاستشراق المعرفة ، السلطة ، الانشاء . نقله إلى العربية . د . كمال أبو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت.

-الشوباشي ، محمد مفيد (١٩٦٨) : رحلة الأدب الغربي إلى أوروبا : القاهرة ، دار المعارف .

طعيمه ، رشدي أحمد (١٩٨٩) تعليم العربية لغير الناطقين بها مناهجه وأساليبه . منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الرباط.

-طيبي ، بسّام (١٩٨١) : حول حركة ترجمة الأعمال العلمية والأدبية من اللغات الأوروبية إلى العربية . في : شؤون عربيه ، ع٧٤/ ١٩٨١ ، ص ١١٦- ١٢٩.

-عبود ، عبده (١٩٨٦) : أهكذا يكون المسرح العالمي ؟ حول الترجمة العربية لمسرحيات شيللر . الحياة المسرحية ، ع ٢٨ــ ٢٩ ، ١٩٨٦ ، ص ٩- ١٨.

-عبود ، عبده (١٩٨٧) : نحو الخروج من القمقم . الأدب لعربي الحديث في ضوء ترجمة أعماله إلى الألمانية . في : البيان ، ع ٢٥٨، ٩/ ١٩٨٧، ص ٩٦ - ١٢٢.

-عبود ، عبده (١٩٨٨) : سبيل الأدب العربي إلى العالمية . نجيب محفوظ نموذجاً . الاسبوع الأدبي ، العدد (١٤٦) ، ٢٢/١٢/١٩٨٨ ، ص٤.

-عبود ، عبده (١٩٨٩) آ : العمل الثقافي العربي في الخارج ، وتدريس العربية لغير الناطقين بها . "الأسبوع الأدبي " ، ع ١٦١ ، ٦/٤/١٩٨٩ ، ص٤.

-عبود ، عبده (١٩٩٣) : الرواية الألمانية الحديثة . دراسة استقباليه مقارنة . دمشق ، منشورات وزارة الثقافة .

– فضل ، صلاح (١٩٨٥) : تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية .بيروت : دار الآفاق الجديدة.

-فيلاندت ، روتراود (١٩٨٩) : صورة المرأة الأوروبية في الأدب العربي الحديث (محاضرة).

-القاسمي ، علي محمد (١٩٧٩) : اتجاهات حديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى . الرياض ، جامعة الرياض.

-مسلم ، سامي (١٩٨٥) : صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية ، بيروت ١٩٨٥ . (مركز دراسات الوحدة العربية).

-نايدا ، يوجين أ (١٩٨٦) : نحو علم للترجمة . ترجمة ماجد النجار . بغداد (.وزارة الثقافة).

-هلال ، محمد غنيمي (١٩٨٧) : الأدب المقارن . بيروت : دار العودة.

-هونكه ، زيغريد (١٩٨٦) : شمس العرب تسطع على الغرب . ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ط٢، بيروت . دار الآفاق.

-هينك ، فالتر (١٩٨٣) : الدراما الحديثة في ألمانيا . ترجمة وتقديم عبده عبود . دمشق (منشورات وزارة الثقافة).

-الواسطي ، سلمان داورد (١٤٠٥ هـ) : دارسو اللغة العربية من الأجانب ونوعياتهم في : وقائع ندوات تعليم العربية لغير الناطقين بها ، الجزء الثاني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج .

■

٢ - الأجنبية :

- Aboоud, Abdo (1984) : Deutsche Romane im arabischen Orient , Frankfurt / M. Bern .

- Abdallah , Jachja Taher (1990) : Menschen am Nil, Aus dem Arabischen von Hartmut Fahndrich und Irmgard Schrand , Basel .

- Apel , Friedmar (1983) : Die Literarische Ubersetzung , Heidelberg.

- Kilias, Doris (1989) : 32 agyptische Erzahler, Berlin .

- Koller,Werner (1983) : Einfuhrung in die Ubersetzungswissenschaft , Heidelberg .

- Levy , Jiri (1969) : Die Literarische Ubersetzung . Theorie einer Kunstgattung , Frankfurt Bonn .

- al- Machsangi , Muhammad (1987) : Eine blaue Fliege . A. d. Arab . V. Hartmut Fahndrich, Basel .

- Maher , Hustafa u. Wolfgang Uhle (1979) : Deutsche Autoren in arabiscger Sprache , Munchen .

- Naumann , Manfred (1984) : Blickpunkt Leser, Leipzig.

- Neuner , Gerhard (Hg.) (1988) : Kulturkontraste im DaF-Unterricht , Munchen .

- Reese, Walter (1980) : Literarische Rezeption , Stuttgart.

- Reiss , Katharina (1971) : Moglichkeiten und Grenzen der Ube tzungskritik , munchen .

el- Saadawi ، Nawal (1990): Ringelreihen. A. d. Arab. V. Sus e Enderwitz, Frankfurt / M.

- al - Scheich , Hanan (1990) : Sahras Geschichte. A.d. Arab . V. ronika Theis , Basel .

- al- Tahtawi , Rifaa (1990) : Ein Muslim entdeckt Europa. H V. Karl Stowasser , Munchen .

- Tibi , Bassam (1980) : Die Krise des modernen Islam , M nchen ,

- Wielandt, Rotraud (1980) : Das Bild der Europaer in der odernen arabischen Erzahl - und Theater - literatur , Beirut iesbaden.

- Witte , Berthold C. (1987) : Forderung der deutschen Sprache als Teil auswartiger Kulturpolitik . In : D. Sturm (Hg.) , Deutsch als Fremdsprache Weltweit , Munchen 1987 , S. 159 - 172 .

***

٤ . ـ من التواصل اللغوي إلى التبادل الثقافي

٤ـ ١ـ حول البعد الثقافي اللغوي

في العلاقات العربية ـ الألمانية

٤ـ ٢ـ نافذة العرب على المجتمع الألماني وثقافته

■

٤ـ١ـ حول البعد الثقافي اللغوي

في العلاقات العربية ـ الألمانية

١ـ عمق الهوّة :

ثمة حقيقة لايختلف حولها اثنان ، هي أنّ هنالك حواجز ثقافية (بمعنى حضارية) تنتصب بين الشعوب ، حتى بين تلك التي تنتمي إلى دائرة حضارية واحدة ، كشعوب القارة الأوروبية ، التي تحسب بصورة عامة على الحضارة الغربية المسيحية . ومن الطبيعي أنّ تكون تلك الحواجز أكبر وأضخم عندما يتعلق الأمر بأمّتين تنتميان إلى دائرتين حضاريتين مختلفتين ، وتقطنان إضافة إلى ذلك منطقتين جغرافيتين بعيدتين عن بعضهما البعض . وتعلوا تلك الحواجز وترتفع عندما يتوافر عامل ثالث هو الاختلاف في درجتي التطوّر الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

إنّ الاعتبارات الثلاثة الآنفة الذكر متوافرة جميعاً في حالة الأمّتين العربية والألمانية . فالألمان ينتمون حضارياً إلى دائرة الحضارة الشرقية ـ الإسلامية ، بل يشكلون محور تلك الحضارة . وتقع ألمانيا في الجزء الشمالي من أوروبا الوسطى ، حيث تفصلها عن المنطقة العربية مسافات ومساحات شاسعة ، إذ إنّ أقرب نقطة في ألمانيا تبعد آلاف الكيلومترات من أقرب نقطة في الوطن الغربي ، وذلك خلافاً لأقطار أوروبا الجنوبية (إسبانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان وبلغاريا .. وغيرها) ، فهي قريبة جغرافيّاً من الوطن العربي ومتصلة به بحراً عبر البحر

الأبيض المتوسط ، الذي يضيق في أحد المواضع إلى درجة التلاشي (مضيق جبل طارق) . وأخيراً ، وليس آخراً ، فإنّ المجتمع الألماني مجتمع صناعي متطور من النمط الرأسمالي الحديث ، بكلّ ما يعنيه ذلك على الصعد الاقتصادية والتكنولوجية والاجتماعية والثقافية والسلوكية والأخلاقية ... أمّا المجتمع العربي فهو ،وبصرف النظر عن الفوارق القطرية في درجات التطور والتخلف ، مجتمع متأخّر غير صناعي ، تسوده علاقات تتراوح بين البدائية والرأسمالية المحيطية (١) . فالمقدمات التي تجعل الحواجز الحضارية بين العرب والألمان تتسامق ، متوافرة كلها، ومن الطبيعي أنّ تتوافر نتائجها أو عقابيلها على صعيد التواصل الإنساني والثقافي بين هاتين الأمتين ، وهي عقابيل ليس من الصعب تكهنها ، ويمكن إيجازها في أنّ تلك الحواجز تجعل التواصل بين العرب والألمان عسيراً مما يخلق أرضية ملائمة لظهور الكثير من حالات سوء التفاهم عبر - الثقافي.(interkulturell) ، وسوء التفاهم بدوره يمهّد الطريق لنشوء خلافات ، وربما صراعات سياسية قد تتطور إلى صراعات عسكرية . ويكفي في هذا السياق أنّ نذكّر بالحروب الصليبية في العصور الوسطى , وبالغزوات الاستعمارية الحديثة ، وبحرب الخليج الأخيرة . فقد كانت لتلك المواجهات السياسية والعسكرية الكبرى التي جرت بين العالم العربي وأوروبا أبعاد ثقافية أو حضارية ، إلى جانب أبعادها السياسية والاقتصادية . وألمانيا لم تكن بعيدة عن أيّ من تلك المواجهات . فقد كان الألمان في صفوف الغزاة الصليبيين ، وكانوا من أكثر أولئك الغزاة تعصّباً ، مما حمل الأديب الكلاسيكي المعروف لسينغ (Lessing) إلى تأليف مسرحية " ناتان الحكيم " ، التي تعتبر من أروع ما في المسرح الألماني من أعمال ، صوّر فيها جانباً من تواجد الفرسان الصليبيين في القدس وسلوكهم (٢) . وفيما يخصّ الغزو الاستعماري الحديث فمن المعروف أنّ الألمان قد بدأوا في وقت متأخر محاولاتهم لإقامة امبراطورية استعمارية لأنفسهم ، وعندما اصطدموا بحقيقة أنّ المناطق القابلة لأن تتخذ مستعمرات قد تمّ اقتسامها بين الـ...

الاستعمارية التقليدية ، اتجه الاندفاع الاستعماري الألماني شرقاً ، وإن كان ذلك لم يمنع ألمانيا القيصرية ، وألمانيا النازية فيما بعد ، من القيام بمساع للحصول على مناطق نفوذ استعماري في المشرق العربي وشمالي أفريقيا (٣) . وأخيراً فقد وقفت حكومة جمهورية ألمانيا الاتحادية في حرب الخليج الثانية إلى جانب الولايات المتحدة ، فقدمت لها لدعم المالي والدبلوماسي والإعلامي ، وقدمت لاسرائيل دعما ماليا وعسكرياً. ولئن كانت ألمانيا لم تدخل الحرب بصورة مباشرة إلى جانب الولايات المتحدة ، على نمط ما فعلته بريطانيا وفرنسا ، فلأن الدستور الألماني لايسمح بذلك ، ولأنّ قطاعات واسعة من الرأي العام الألماني ، بقيادة " حركة السلام" ، قد كانت ضدّ تلك الحرب ، تحت شعار " لادم من أجل البترولّ (٤) . صحيح أنّ الألمان لم يكونوا دائماً في مقدّمة القوى الأوروبية أو الغربية المعادية للعرب ، الطامعة في ثرواتهم وفي موقع بلادهم الاستراتيجي ، المقتلعة لهويتهم الحضارية ، وذلك لاعتبارات لايتسع المجال لعرضها ، ولكنهم كانوا في كلّ الحالات والمرّات ضمن تلك القوى.

إنها حقائق لابدّ من توضيحها في بداية أيّ حوار عربي ـ ألماني ، لأنّ أي حوار من هذا النوع يجب أنّ ينطلق من تلك الحقائق وأن يقوم عليها ، إن كان حواراً جديّاً ، ولا يجوز له أن يتجاهلها حفاظاً على انسجام موهوم ، يقفز أصحابه فوق التناقضات والمشكلات العميقة الجذور ، المتعددة الأبعاد . فالحوار الحقيقي يقف على أرض الحقائق الصلبة ، ويعي مقدماته وشروطه .

٢ـ حواجز لدى الطرفين :

والحواجز الثقافية (الحضارية) بين العرب والألمان حواجز متشابكة ، متعددة الأبعاد والجوانب ، لبعضها جذور تاريخية ، إضافة لأسبابه الراهنة ، مثل صورة كلّ من الشعبين في وعي الشعب الآخر وثقافته . وهذا يجعل من الصعوبة بمكان أنّ يقدّم المرء في بحث قصير عرضاً وافياً لتلك الحواجز وأبعادها وجوانبها . ولذا سنقتصر على

عرض بعد واحد من أبعاد تلك الحواجز ألا وهو البعد اللغوي ، منطلقين في ذلك من مقولة[٤] مفادها أنّ اللغة ليست بمجرد " وعاء" للثقافة (الحضارة) ، بل هي نفسها ظاهرة ثقافية (حضارية) . وعندما ننظر إلى العلاقة بين الثقافة واللغة على هذا الشكل ، تتضح لنا الصلة الوثيقة بين الحواجز اللغوية والحواجز الثقافية (حضارية) [٥] . كما ننطلق من حقيقة أخرى ، هي أنّ أيّ تواصل بين أمّتين أو ثقافتين (حضارتين) لا يمكن أنّ يتم دون القنوات اللغوية أو خارجها . فاللغة هي الوسيلة الضرورية للتواصل الانساني والثقافي بين الشعوب . إنّ هذه المقولة لا تنفي وجود أشكال غير لغوية من التواصل الإنساني ، كالتواصل بالايماء والجسد والصور ، ولكن ، هذه مسألة أخرى.

عندما نتحدث عن الحواجز اللغوية بين العرب والألمان فإننا نعني بذلك ، وبتبسيط شديد ، حقيقة أنّ الألمانية لغة محدودة الانتشار في الوطن العربي ، وبالتالي فإنّ عدد العرب الذين يجيدونها ضئيل ، وأنّ العربية لغة محدودة الإنتشار في ألمانيا ، مما يعني أنّ عدد الألمان الذين يتقنونها ضئيل أيضاً . تلك حقيقة معروفة للجميع ، ولا تتطلب أن يبرهن المرء عليها بوساطة معطيات إحصائية .[٦] فكيف يمكن أنّ نفسر هذه الظاهرة ؟

٣ـ الألمانية لغة أجنبية :

فيما يخصّ الألمانية كلغة أجنبية فإنّ ضعف انتشارها في العالم العربي يرجع إلى أسباب متعددة ، منها أنّ هذه اللغة ليست لغة تداول عالمية كالانكليزية ، بل هي لغة ذات أهمّية إقليمية فحسب ، ولكنه يرجع أيضاً إلى نظام تعليم اللغات الأجنبية في الأقطار العربية ، والسياسة اللغوية التي يقوم عليها ذلك النظام . وعلى أية حال فإنّ الألمانية لاتدرّس كلغة أجنبية أولى أو ثانية في أيّ من مراحل التعليم في الغالبية العظمى للبلدان العربية ، وحيث تدرّس فإنها تدرّس في

الجامعات على نطاق محدود . ولكن كان هناك استثناء من هذه القاعدة فإنها مصر ، التي تدرّس الألمانية في مدارسها وجامعاتها كلغة أجنبية أولى تقف على قدم المساواة مع اللغات الأجنبية الأخرى ، وتحوي عدة جامعات مصرية أقساماً للغة الألمانية وآدابها.(٧) إلاّ أنّ هذا الاستثناء ، على أهميته ، لايلغي القاعدة ولايشكل بديلاً لها . ومهما يكن من أمر، فبعد مرور عدّة عقود على حصول الأقطار العربية على استقلالها السياسي ، فإن القائمين على تعليم اللغات الأجنبية في تلك الأقطار ، والمسؤولين عن سياساته ، لايفكرون بإدخال لغات أجنبية أخرى إلى ذلك التعليم ، أوروبية كانت تلك اللغات ، كالألمانية والروسية والاسبانية والايطالية وغيرها من اللغات الأوروبية الرئيسة ، أم غير أوروبية ، مثل لغات الشعوب المجاورة ، كالايرانية والتركية . وبدلاً من أنّ يتبعوا سياسة لغوية نابعة من حاجات المجتمع العربي ، تراعي وضعه الإقليمي ، فإنّ واضعي تلك السياسة يصّرون على حصر تعليم اللغات الأجنبية في لغتي الدولتين الاستعماريتين السابقتين بريطانيا وفرنسا ، اللتين نهبتا ثروات الوطن العربي ، وجزّأتاه إلى كيانات قطرية كثيرة ، وسعتا إلى اقتلاع ثقافته ومحو لغته القومية (٨).

فيما يخصّ اللغة الألمانية فإنّ بعض الجامعات العربية يضم منذ فترة غير قصيرة أقساماً أو شعَباً للغة الألمانية وآدابها ، وهذا ينطبق على الجامعات المصرية بشكل خاصّ ولكنه لايقتصر عليها . فأقسام كهذه موجودة في بعض جامعات المغرب العربي والعراق . ولكن من الملاحظ أنها تعيش على هامش الحياة العلمية والثقافية لبلدانها ، وليس لها تأثير فاعل في تلك الحياة . ومن الطبيعي أن تكون أقسام هذا شأنها عاجزة عن أن تلعب دوراً مؤثراً في العلاقات الثقافية بين الأقطار العربية وألمانيا، وأن توجه تلك العلاقات بحيث تخدم المصلحة العربية . فهي لم تقدم إسهاماً جاداً في التخفيف من حدّة الحواجز الثقافية بين العرب والألمان ، عبر نشر اللغة الألمانية في الأوساط الطلابية والأكاديمية على الأقل ، كما لم تتمكن من أن تمارس دور مراكز بحث في الشؤون

الألمانية ، ولم تفلح في التأثير بشكل جذري على استقبال الثقافة الألمانية في الوطن العربي من خلال الترجمة ، مما جعل قسماً كبيراً من ذلك الاستقبال يتمّ إلى يومنا هذا عن طريق لغات أجنبية وسيطة ، كالانكليزية والفرنسية ، بدلاً من أن يتم عن الألمانية مباشرة . وغني عن الشرح ما يجرّه ذلك على الاستقبال من سلبيات [٩].

وهكذا نجد ، نحن العرب ، أنفسنا في وضع لانحسد عليه بخصوص الشؤون الألمانية . فلا اللغة الألمانية منتشرة في بلادنا بصورة كافية ، بحيث نجد في صفوفنا عدداً مناسباً من الأشخاص الذين يجيدون تلك اللغة ، ويتمكنون من النفاذ إلى الثقافة الألمانية دون وسيط ؛ وليس لدينا ما يكفي من المترجمين الذين ينقلون إلى العربية ما هو مفيد وضروري من المؤلفات العلمية والآثار الأدبية الألمانية ، وليس لدينا مختصّون في الشؤون الألمانية ، يمارسون البحث والتأليف في تلك الشؤون ، ويقدمون للرأي العامّ العربي معلومات موثوقة عما يدور في ألمانيا سياسياً واقتصادياً وثقافياً ، ويزودون صنّاع القرار السياسي من العرب بدراسات تمكّنهم من رسم سياسات ألمانية سليمة تخدم المصلحة العربية . وتبلغ نتائج الجهل العربي بالشؤون الألمانية حداً محزناً في حالة الدبلوماسيين العرب الذين يمثلون بلادهم في الأقطار الناطقة بالألمانية . فقل أنّ نجد بين هؤلاءالدبلوماسيين من أُهّل تأهيلاً لغوياً وثقافياً يمكنه من أداء مهمته بنجاح [١٠] . ولذلك تراهم يمارسون عملهم بصورة عشوائية ، وكأن أحدهم " أطرش في الزفة " ، كما يقول المثل الشعبي . ولا عجب بعد ذلك في أن تجني الدبلوماسية العربية في ألمانيا هذا الكمّ الهائل من الفشل ، وأن تساهم هي نفسها ، من خلال أفعال أشخاصها وتصرفاتهم ، في تدهور صورة العرب في الرأي العام الألماني ، ناهيك عن عجز تلك الدبلوماسية عن أنّ تقدم أي شيء لتحسين تلك الصورة . ولئن كان الدبلوماسي " رسول" شعبه إلى البلد الأجنبي الذي يوفد إليه ، فماذا نتوقع من "رسول" لم يزود بالكفاءة اللغوية والثقافية الضرورية لأداء تلك الرسالة ؟ [١١].

كثيراً ما تسمع في العالم العربي رأياً يقول أصحابه إنّ نشر اللغة الألمانية مهمّة ألمانية وليس مهمّة عربية . ويستمدّ هذا الراي كثيراً من قوة الاقناع التي يتمتع بها من سياسة التوسع اللغوي العدوانية التي مارستها فرنسا ، ومازالت تمارسها ، في الوطن العربي عموماً ، وبشكل خاصّ في المغرب العربي الذي تعدّه منطقة نفوذ لغوي وثقافي لها . وفي الحقيقة ما من أحد يستطيع أن ينكر أنّ لألمانيا مصلحة ثقافية في نشر لغتها في الخارج ، ولذلك فإنّ الحكومة الألمانية ترصد مبالغ كبيرة نسبياً لرعاية اللغة الألمانية في العالم (١٢). ولكن في الوقت نفسه من الخطأ الاعتقاد أنّ الطرف الألماني وحده هو صاحب المصلحة في أن يتعلم العرب اللغة الألمانية . فتماماً كما للألمان مصلحة في نشر لغتهم ، فإنّ للعرب مصلحة اقتصادية وسياسية وثقافية كبيرة في أن يتعلموا هذه اللغة ، وأن يتواصلوا مع المجتمع الألماني بشكل جيّد ، وأن تستفيد الثقافة العربية مما تحويه اللغة الألمانية من كنوز ثقافية وعلمية ، وأن ترعى المصالح السياسية والاقتصادية والثقافية العربية في الأقطار الناطقة بالألمانية ، وهي أقطار ذات وزن اقتصادي وسياسي وثقافي كبير ، داخل " الجماعة الأوروبية" وعلى المستوى العالمي بصورة مناسبة . فالألمانية لغة أكبر مجموعة سكانية داخل الجماعة الأوروبية ، ومن يدعو إلى إهمال تعليمها في الوطن العربي فإنه يدعو في الواقع إلى إهمال المصالح العربية المرتبطة بالأقطار الناطقة بالألمانية.

٤ - العربية لغة أجنبية :

إذا نظرنا إلى تعليم العربية لغةً أجنبية في ألمانيا نجد أنّ وضع هذه اللغة ليس بأفضل من وضع الألمانية في الوطن العربي ، بل هو أسوأ منه بكثير ، من الناحيتين الكمية والنوعية . ومن الناحية الكمية لا نملك إحصاءات حول العدد الراهن لمتعلمي اللغة العربية في ألمانيا ، بل لم يقم أحد بمحاولة معرفة ذلك العدد ، ولكننا نعلم أنه عدد محدود جداً ، وهو في كلّ الأحوال أصغر بكثير من عدد العرب الذين يتعلمون

الألمانية. فليس للعربية أي تواجد يُذكَر في مراحل التعليم قبل الجامعي في ألمانيا ، ويقتصر ذلك التواجد على شُعب اللغة العربية في معاهد الاستشراق والعلوم في الجامعات ، وعلى مؤسسات تعليم الكبار ، وأبرزها " الجامعات الشعبية ((Volkshochschulen) " . على صعيد الجامعات من الملاحظ أنّ عدد الطلاب الألمان الذين ينتسبون إلى أقسام الاستشراق والعلوم الإسلامية قد ارتفع في الأعوام الأخيرة بصورة ملحوظة ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها أوضاع الجامعات الألمانية ، التي تعاني من ازدحام شديد وانفجار طلابي هائل ، وخلخلة في العلاقة بين الدراسة الجامعية والأفق المهني ، مما زاد من استعداد الطالب الألماني لأن يدرس علماً يتعلق بثقافة نائية كالاستشراق ، وأن يتعلم لغة أجنبية غير مألوفة كاللغة العربية . إنّ أقسام الاستشراق والعلوم الإسلامية ليست المستفيد الوحيد من هذا الوضع ، بل ثمة أقسام كثيرة أخرى كانت في الماضي " خاوية على عروشها " فأصبحت الآن تعجّ بالدارسين.

ولكن من الملاحظ في الوقت نفسه أنّ عدد الطلاب الألمان المنتسبين إلى أقسام الاستشراق والعلوم الإسلامية ، الذين يتعلمون اللغة العربية ، سرعان ما يتقلص ويهجر الطلاب هذين الفرعين إلى فروع أخرى ، هاجرين معهما اللغة العربية ، مما يجعل عدد الدارسين الذين يمضون في دراسة الاستشراق والعلوم الإسلامية ، وفي تعلم اللغة العربية، حتى الشوط الأخير محدوداً جدّاً . أمّا أسباب ذلك التراجع فهي كثيرة منها سوء الآفاق المهنية للخريجين ، والمصاعب التي يعاني منها دارس ثقافة غريبة نائية كالثقافة العربية الإسلامية ، وفي مقدمة تلك المصاعب صعوبة تعلم اللغة العربية وإجادة استخدامها لأداء الوظائف العمليّة والبراغماتية للغة . ولاتنجم تلك الصعوبات عن غرابة النظام اللغوي العربي بالنسبة للألمان على صعد الكتابة والنطق والقواعد فحسب ، بل تنجم أيضاً عن تخلف طرائق تدريس العربية لغير الناطقين بها . فهذا التدريس يتصف عموماً بالعزوف عن كافة التجديدات الديداكتيكية

والطرائقية التي شهدها تعليم اللغات الأجنبية في العالم طوال نصف القرن الأخير . فمن المعروف أنّ ذلك التعليم قد ودّع منذ وقت طويل طريقة " الترجمة والقواعد " القديمة ، واستبدلها بطرائق حديثة ، تستند إلى ما توصلت إليه العلوم الإنسانية ، وعلى رأسها علم اللغة الحديث (اللسانيات) وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم التربية ، ومن نتائج ، أبرزها الطريقة السمعية ــ البصرية ، والطريقة التواصلية ، وطريقة السوجستوبيديا والهيبنوبيديا (١٣) . أمّا في معاهد الاستشراق والعلوم الإسلامية التابعة للجامعات الألمانية فما زالت العربية تُدرَّس إلى يومنا هذا بوساطة طريقة " الترجمة والقواعد " ، وكأنّ لا جديد في هذا العالم ، وكأنّ العربية لغة قديمة ميتة ، يجب أنّ تُستثنى من اللغات الأجنبية التي يمكن أن تدرس بطرائق حديثة ؛ وليست لغة يتواصل بوساطتها ما يربو على (٢٣٠) مليون نسمة في الوطن العربي وفي المهاجر . قد يسأل سائل : لمَ هذا الإصرار العجيب على تعليم العربية بهذه الطريقة المهترئة ؟ والجواب عن هذا السؤال هو أنّ تلك المسألة مرتبطة بالعقلية السائدة في أوساط الاستشراق الألماني ، وهي عقلية رجعية متحجرة ،تنظر إلى الثقافة العربية من زاوية أنها لغة حضارة عريقة بائدة ، وليست لغة أمّة حديثة .. معاصرة ذات ثقافة متجددة ، تطمح لأن يكون لها مكان لائق بين الثقافات الحديثة . إنّ قسماً كبيراً من المستشرقين الألمان يعدّ العرب أمة ذات حضارة " سادت ثم بادت " ولا يريد أن يعرف أنّ لأولئك الذين صنعوا ذلك الماضي التليد أحفاداً يناضلون من أجل حياة كريمة في عالم اليوم . أمّا أسباب هذا التعامي عن حاضر الأمة العربية فيجب البحث عنها في تاريخ الاستشراق الألماني ، والاستشراق الغربي بوجه عام ، وفي الخلفيات الأيديولوجية والمصلحية لذلك الاستشراق (١٤) . وعلى أية حال فقد طبع هذا الموقف الاستشراقي الرجعي تدريس اللغة العربية في العالم وفي معاهد الاستشراق والعلوم الإسلامية بطابعه ، وحال دون استيعاب ما استجدّ في العالم ، وفي ألمانيا نفسها ، على صعيد طرائق تدريس اللغات

الأجنبية . بعد ذلك لاعجب في ألّا يجد كثير من الطلاب الألمان ، الذين تحمّسوا في البداية لتعلم اللغة العربية ، رغبة في مواصلة تعلّم هذه اللغة ، وأن ينزحوا إلى لغات أخرى ، بل إلى فروع دراسية أخرى أكثر حداثة ومعاصرة . ولئن كان الألمان قد تمكنوا من خلال " الارتباط التربوي" (Padagogische Verbindungsarbeit) الذي تقوم به فروع معهد غوته في الأقطار العربية من أنّ يؤثروا على تدريس اللغة الألمانية في تلك الأقطار ، وأن يساعدوا في تحديث طرائقه ، فإنّ العرب لايملكون بعد أداة متطورة يتمكنون من خلالها من توجيه تعليم اللغة العربية في ألمانيا .
" فمعهد الخرطوم الدولي لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها " غير قادر على أداء هذه المهمة التي يُنتظر منه أن ينجزها . صحيح أنّ هذا المعهد يقوم بتدريب مدرسين للعربية من الأقطار الإسلامية في آسيا وأفريقيا ، وأنه قد أنجز كتاباً تعليمياً مؤلفاً بطريقة حديثة إلى حدّ ما(١٥)، ولكنّ هذا المعهد لم يسع للتأثير على تدريس اللغة العربية في معاهد الاستشراق الألمانية وتوجيهه طرائقياً . ومن جهة أخرى فإنّ مدرسي اللغة العربية الذين تعيرهم الجامعات العربية إلى الجامعات الألمانية هم أشخاص لم يتلقوا إعداداً تربوياً في تدريس العربية لغير الناطقين بها ، ولا يملكون سوى الكفاءة اللغوية . أمّا الكفاءة التربوية الضرورية لجعل المرء مدرساً للعربية كلغة أجنبية فقل أن تتوافر في أحد منهم . وفي كلّ الأحوال فإنّ تواجد هؤلاء الأشخاص في أقسام الاستشراق والدراسات الاسلامية العربية لم يؤد ، إلا في حالات نادرة، إلى الارتقاء بتدريس اللغة العربية في تلك الأقسام وتحديثه ، ليقترب من حيث طرائقه ومناهجه من تدريس اللغات الأجنبية الحديث . ولكنّ الصورة التي رسمناها لواقع تدريس العربية في الجامعات الألمانية لايجوز أنّ تقودنا إلى استنتاج أنّ كلّ شيء هادئ وساكن على هذا الصعيد . ففي الأعوام الأخيرة تنامى في الأوساط المعنيّة بتعليم اللغات الأجنبية في ألمانيا وعي بضرورة القيام بعمل ما لتلافي الخلل الذي يعاني منه تعليم العربية في الجامعات الألمانية وخارجها ، فأحدث (معهد بوخوم للغة

العربية) ، الذي يقيم دورات مكثفة قصيرة لتعليم العربية وفقا للطرائق الحديثة ، وقد أُسند التدريس فيه إلى معلّمين مؤهّلين لغوياً وتربوياً على حد سواء ، فكان إحداثه ردّاً مناسباً على تمسّك معاهد الاستشراق بأساليبها التي عفى عليها الزمن [١٦] . أمّا " الجامعات الشعبية " في ألمانيا ، فإنّ عدداً كبيراً منها يقدّم دورات لتعليم اللغة العربية ، وهو يُسند التدريس فيها إلى مدرسين هواة من الطلاب والخريجين العرب المقيمين في ألمانيا ، وهم أشخاص غير معدّين لغوياً ولاتربوياً ، وبالتالي فإنّ نوعية التدريس الذي يمارسونه لن تكون مناقضة لتلك المقدمات . إلاّ أنّ هذا التدريس يظل ، على الرغم من طابعه غير المحترف ، أقل تشنّجاً وورائية من التدريس الذي يمارس في معاهد الاستشراق والعلوم الإسلامية ، بل قد تجد بين مدرسي العربية في " الجامعات الشعبية" من يمارس تدريساً حديثاً ، ويملك حساسية متقدمة بالنسبة للقضايا الطرائقية لتعليم العربية للألمان [١٧].

٥- نتائج ومترتبات :

يمكننا أن نستنتج من هذا العرض السريع لواقع تعليم اللغة العربية في ألمانيا وتعليم اللغة الألمانية في العالم العربي أنّ العلاقات اللغوية بين العرب والألمان ليست على مايرام ، بل تعاني من تقصير كبير ، ولئن كان الطرفان : العربي والألماني معنيين بذلك التقصير ، فإنّ تقصير الطرف العربي وإهماله لمصلحته الثقافية الخارجية أكبر بكثير من تقصير الطرف الألماني . وفي كلّ الأحوال فإنّ الوضع الراهن للعلاقات اللغوية يؤثر سلبياً على التواصل بين الأمتين ، بل يستطيع المرء أن يحمله القسط الأكبر من مسؤولية الأزمة التي يعاني منها التواصل العربي الألماني . ولعل ما نشر في وسائل الاعلام الألمانية بمناسبة حرب الخليج الأخيرة أكبر وأحدث مثال على أنّ التواصل بين العرب والألمان يعاني من أزمة خطيرة ، بل من فشل ذريع . ففي سياق تلك الحرب ـ الكارثة، انبرت للتشهير بالعرب أقلام ألمانية لا تعرف شيئاً عن العرب ،

ولم تكن المنطقة العربية يوماً ضمن دائرة اهتمامها ، كالشاعرين الألمانيين المعروفين " هانس ـ ماغنوس انتسنسبرغر Hans Magnus " (Enzensberger) و " فولف بيرمان (Wolf Biermann) " ، فقد استغلت تلك الأوساط المتعاطفة مع " إسرائيل " ، لأسباب ألمانية بحت عقدة الذنب الجماعي ـ الهولوكوست .. الخ حرب الخليج الثانية للانتقال إلى موقع المعاداة السافرة للعرب وتشبيههم بالنازيين [١٨] . لقد أظهرت تلك الحرب ، وما كتب وقيل بمناسبتها من قبل كثير من الكتاب والمفكرين والفنانين الألمان ، ضآلة ما يعرفه الألمان والعرب عن بعضهم البعض ، وضيق قاعدة التفاهم العربي ـ الألماني وهشاشتها ، وضخامة الحواجز الثقافية (الحضارية) التي تفصل بين الأمتين العربية والألمانية . على ضوء ذلك يكون من الضروري بل من الحيوي للطرفين ، وللعرب بوجه خاصّ ، أن يفعلوا شيئاً لمعالجة أزمة التواصل التي اتضح حجمها وأبعادها بمناسبة حرب الخليج . فما العمل ؟

على المدى القصير من الضروري فتح حوار عربي ـ ألماني في أقرب وقت ممكن ، والمضيّ في ذلك الحوار وتطويره ، كي يدخل في عمق المشكلات التي تعاني منها العلاقات العربية ـ الألمانية . ومن الأمور السارة أنّ الخطوة الأولى على هذا الصعيد قد تمت بنجاح [١٩] . أمّا على المدى البعيد فلا بدّ من اتباع استراتيجية للتخفيف من الحواجز اللغوية بين العرب والألمان ، وذلك كمقدّمة ضرورية لتيسير التواصل الإنساني والثقافي بين الشعبين ، ليتعرّف كلّ طرف أوضاع الطرف الآخر ومشكلاته . أمّا السبل المؤدّية إلى إذابة تلك الحواجز اللغوية فهي متعددة من بينها التواصل بوساطة لغة أجنبية وسيطة ، كالانكليزية أو الفرنسية ، ومنها الترجمة بأشكالها المختلفة . أمّا النشاط اللغوي الذي يؤدي إلى تعلم كلّ من الشعبين لغة الآخر ، فهو ليس أقصر السبل ولا أسهلها ، ولكنه على المدى البعيد أفضلها وأكثرها جدوى وفاعلية . فمن يتعلم لغة شعب يكتسب في الوقت نفسه كثيراً من المعلومات والمعارف عن ثقافة ذلك الشعب ومجتمعه ، ويكتسب بالتالي القدرة

على التواصل مع ذلك الشعب . فما من أحد يستطيع أنّ يكتسب اللغة بمعزل عن اكتساب الكفاءة الثقافية والتواصلية المرتبطة بتلك اللغة [٢٠]. وتعلّم اللغة لايتمّ بمعزل عن عواطف المتعلّم ومشاعره ، ولذا فهو يـؤدّي إلى تغيير الموقف العاطفي للمتعلم من تلك اللغة وشعبها . وهكذا يؤدّي تعلّم لغة شعب ما إلى تفهم ذلك الشعب والتعاطف معه . وهذا هو مصدر الأهمية القصوى لتعليم اللغات الأجنبية وتعلّمها ، وسبب العناية الكبيرة التي توليها الدول المتقدمة لنشر لغاتها في الخارج . وإذا عمّمنا هذه المقولة على العلاقة بين العرب والألمان تكون النتيجة المنطقية لذلك أن ينظر الشعبان إلى علاقاتهما اللغوية باعتبارها حجر الزاوية في علاقاتهما الثقافية ، وأن يبذلا كلّ ما في وسعهما لدعم هذا النوع من العلاقات وتطويره . لقد استوعب الجانب الألماني تلك الحقيقة منذ وقت طويل ، وتحديداً منذ أواسط الستينيات ، وذلك عندما نوقشت قضايا العمل الثقافي الخارجي في إحدى لجان البرلمان الألماني [٢١] . أمّا في العالم العربي فإنّ النقاش حول هذه الأمور لم يبدأ بعد بصورة جدية ، ويبدو لنا أنّ العرب لم يعوا حتى الآن أهمية النشاط الثقافي الخارجي ، ودوره في تحسين صورة العرب في الخارج ، وكسب التفاهم والتعاطف للقضايا العربية [٢٢] . لذا تراهم يفاجؤون في كلّ مرة تظهر فيها الدراسات الميدانية واستطلاعات الرأي العام أنّ تلك الصورة سلبية [٢٣] . ومهما يكن من أمر فإنّ المعالم الأساسية لأيّة خطّة يمكن أنّ تودي إلى الارتقاء بالعلاقات اللغوية بين العرب والألمان إلى المستوى الذي نعتبره ضرورياً هي التالية :

١ـ ترسيخ الألمانية لغة أجنبية من الدرجة الأولى ضمن تعليم اللغات الأجنبية في مراحل التعليم المختلفة في الوطن العربي . ومن البديهي ألاّ يعني ذلك فرض تلك اللغة الأجنبية على التلاميذ والطلاب العرب ، وذلك على نمط ما تفرض الفرنسية عليهم في بعض الأقطار العربية ، فهذا أمر يتعارض مع أبسط المبادئ

التربوية (٢٤) . فاختيار اللغة الأجنبية ينبغي أن يتم وفقاً لمبدأ الطوعية والاقتناع . ومانطالب به على صعيد تعليم اللغـة الألمانيـة في الوطـن العربي نطالب بمثله على صعيد تعليم اللغة العربيـة في مـدارس ألمانيـا وجامعاتها . فالعلاقات اللغوية السليمة لابدّ من أنّ تكـون علاقـات متوازنة ومتكافئة ، لا بطريقة المقايضة ، بل بطريقة تكافؤ الفرص . فالعربية ينبغي أن تتمتع في ألمانيا بفرص التعليم والتعلـم نفسـها الـتي تتـاح للغـة الألمانيـة في الأقطـار العربيـة . أمّـا مسـألة مـا إذا كـان التلاميذ والطلاب الألمان سيُقبلون على تعلّم العربية بالدرجة نفسـها التي يقبـل بهـا زملاؤهـم العـرب علـى تعلـم الألمانيـة فتلـك مسـألة أخرى، والمهمّ في رأينا هو أن تتوافـر فـرص متـاكافئـة للغتـين . قـد يبدو هذا الهدف للوهلة الأولى خيالياً غـير قـابل للتحقيـق ، ولكننـا لانـرى ذلـك بـل نعـدّه هدفـاً واقعيـاً يستحقّ أن يبـذل المتهمّـون بالعلاقات اللغوية بين العرب والألمان كلّ جهد ممكن لتحقيقه . ولا نتصور أن يتمّ ذلك دفعة واحدة ، بل علـى مراحـل . ولانتوقـع أنّ تصدر في الجانب العربي مقاومة لتلك المساعي اللغوية عـن التلاميـذ والطـلاب وأوليـائهم ، مـادام الأمـر اختياريـاً ، بـل نتوقـع أن تـأتي المعارضة من جانب جماعات الضغـط (اللوبيهـات) الفرانكوفونيـة والأنجلوفونية القوية المتمركـزة في الأدوار العليـا مـن وزارت التربيـة والتعليم العالي . إنهـا الأوسـاط نفسـها الـتي تقـاوم تعريـب التعليـم العالي (دراسة الطب والعلوم الطبيعية والهندسية).. وتبذل كلّ ما في وسعها لتكريـس التبعيـة الثقافيـة والعلميـة العربيـة للأجنبي . إنّ تلـك الأوساط ، التي تستمد قوّتها من قوة الجهات الأجنبيـة الـتي تسـاندها ، تقاوم إدخال أية لغة أجنبية جديـدة إلى المـدارس والجامعـات في الوطـن العربي ،و ترى في ذلك تقليصاً لنفوذها ، وذلـك نتيجـة لإلغـاء الوضـع الاحتكاري الذي تتمتع به اللغتان الانكليزية والفرنسية . ويبدو أنّ هذه اللوبيهات قوية ومهيمنة على القـرار الـتربوي والسياسـي المتعلـق بتعليـم اللغات الأجنبية، بدليل أنها قد نجحت في إفشال كل الجهود التي بذلـت لإصلاح نظام تعليم اللغات الأجنبية ، كالمحاولة التي تمـت في سـورية في أواخر الستينيات ، عندما أضيفت اللغتان الألمانية والروسـية إلى اللغـات

الأجنبية التي تعلم في المدارس السورية ، ولكنّ جماعات الضغط الآنفة الذكر تمكنت من إفشال تلك التجربة الرائدة وإيقافها، على الرغم من توافر كلّ شروط النجاح وفرصه لها ، وفي مقدمة تلك الشروط توافر الكادر التدريسي المؤهل لغويا وتربوياً [٢٥] . أمّا لدى الطرف الألماني فمن المؤكد أنه ستظهر في صفوفه قوى تعارض الإعلاء من شأن اللغة العربية ، والتوسع في تعليمها كلغة أجنبية في مدارس ألمانيا وجامعاتها ، ولن تجد تلك القوى صعوبة في تقديم الحجج أو الذرائع التي تسوّغ بها موقفها ، كالقول إنّ هناك لغات أجنبية أخرى أحق بأن تعطى الأولوية، مثل لغات شعوب أوروبا الجنوبية والشرقية ، أو التركية واليابانية والصينية ... وغيرها ، وأن العربية لغة صعبة التعلّم ، ولاحاجة بالتلميذ والطالب الألماني إليها. وعلى أية حال فإنّ أيّ تصور أو اقتراح حول تدريس العربية كلغة أجنبية في ألمانيا لابدّ من أن يأخذ الترتيبات والاتفاقات الأوروبية المتعلقة بتعليم اللغات الأجنبية بعين الاعتبار ، فهي قرارات ملزمة لأعضاء " الجماعة الأوروبية " كلهم. ولكن على الرغم من ذلك فإنّ العربية تتمتع بفرص جيدة لأن يختارها التلاميذ والطلاب الألمان لغة أجنبية أولى أو ثانية ، إذا أتيحت لهم حرية الاختيار من جهة ، وإذا تطور تدريس العربية للأجانب ديداكتيكياً وطرائقياً ، وارتقى إلى مستوى تدريس اللغات الأجنبية الأخرى . فالعربية هي اللغة والرسمية لما يربو على عشرين دولة ، تتمتع بأهمية اقتصادية وسياسية واستراتيجية كبيرة ، وهي لغة لا غنى عنها لكل مهتم بالحضارة الاسلامية ، وهي لغة الجاليات العربية التي تقطن في ألمانيا نفسها .. إلى آخر العوامل والاعتبارات الكثيرة ، التي يمكن أن تدفع نسبة لابأس بها من التلاميذ والطلاب الألمان لأن يختاروا العربية لغة أجنبية .

٢ـ من الضروري أن يضطلع الاستشراق في الجامعات الألمانية بدور أكبر في صياغة العلاقات اللغوية والثقافية بين العرب والألمان وتطويرها . ومما لاجدال فيه أنّ قضية الاستشراق الأكاديمي قضية شائكة ومعقدة . فالقائمون على أقسام الاستشراق في الجامعات الألمانية

أشخاص تكوّنوا فكرياً على أيدي أساتذتهم ، وفي أذهانهم تصورات وقناعات ثابتة وراسخة حول مضامين فرعهم العلميّ وطرائقه ووظائفه، ويتمتع هؤلاء الأساتذة بحريّة كاملة في كلّ الأمور المتعلقة بالتدريس والبحث . ولذا فمن الصعب أن يتصور المرء حدوث تطوّرات جذرية وسريعة داخل الاستشراق الألماني . أمّا المصدر الأول للتغيير ، وهو تغيير بطيء وتدريجي بالضرورة ، فهو تعاقب الأجيال ، أي حلول جيل جديد من المستشرقين محلّ الجيل القديم في كراسي الاستشراق ، ومن الطبيعي أن تكون للجيل الجديد تصورات جديدة نابعة من خبراته وقناعاته. وبالفعل ثمة مؤشّرات كثيرة تدلّ على حدوث تبدّل أجيال واعد وإيجابي في الاستشراق الألماني . وفي كلّ الأحوال إذا أُريد لهذا الاستشراق أن يكون علماً عصرياً ، وأن يقوم بدور ذي شأن في الحوار الثقافي بين العرب والألمان ، فلا بد له من أن يحقق الأمور الآتية:

آ- أن يعيد النظر بصورة نقدية في فهمه لنفسه ، ودوره الاجتماعي والثقافي ، وطرائقه ، ومناهجه الدراسية ، وخططه البحثية ، وذلك على ضوء ما شهدته العلوم الإنسانية من تطورات هائلة ، وما يشهده العالم من تحولات على مختلف الصعد ، وما استجدّ في الوطن العربي وفي ألمانيا خلال العقود الأخيرة . فالاستشراق الألماني لم يستوعب تلك التطورات التاريخية بصورة كافية ، واعتبر نفسه في منأى عنها ، وكأنه يعيش في البرج العاجي الشهير (٢٦).

ب- وكنتيجة حتمية لإعادة النظر هذه سيكون لزاماً على الاستشراق الألماني أنّ يتوجه إلى الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة ، ليعطيها حقها من الاهتمام والدراسة ، بعد أن تجاهلها تجاهلاً شبه تامّ ، وانصرف بشكل أساسي إلى ممارسة الفيلولوجيا القديمة وتحقيق المخطوطات . وعندما يتوجه الاستشراق الألماني نحو العالم العربي الحديث ويغوص في قضاياه ، فسيكون بوسعه أن يقدم مساهمة جليلة للحوار العربي - الألماني .

ج- وأخيراً وليس آخراً من الضروري أن يقوم الاستشراق الألماني بتطوير تدريس اللغة العربية الذي يُمارس في معاهده من النواحي

الديدكتيكية والطرائقية ، بحيث تدرّس العربية وفقاً لأحدث المناهج والطرائق المتبعة في تعليم اللغات الأجنبية . وهذا يتطلب من تلك المعاهد إعداد مدرسيها ، ليس لغوياً فحسب ، بل تربوياً كذلك ، فتعليم اللغة العربية السائد حتى اليوم في معاهد الاستشراق الألمانية لا يليق بتلك المعاهد ، ناهيك عن أنه يلحق بالعربية ضرراً فادحاً ، لأنه يحرمها من فرص الانتشار .

٣- تحتاج أقسام اللغة الألمانية وآدابها (جرمانستيك) في الجامعات العربية إلى إصلاح جذري ، ينبغي أن يكون هدفه إخراج تلك الأقسام من الإطار الهامشيّ الضيّق الذي وضُعت فيه ، لتساهم بشكل أقوى في صياغة العلاقات العربية - الألمانية . فلا مبرر لأن تكون أقسام " الجرمانستيك" العربية نسخة قديمة شاحبة عن " الجرمانستيك " الألمانية (٢٧) ، بل المطلوب منها أن تعي وضعها الخاص ومهماتها المتميزة . ولن تتمكن " الجرمانستيك " العربية من ممارسة دور أكبر في الحياة الأكاديمية والثقافية العربية ما لم تسترشد بحاجات المجتمع العربي ، وتحدد وظائفها على ضوء تلك الحاجات . أمّا الوظائف الأساسية للجرمانستيك العربية فهي ، في رأينا :

آ- نشر اللغة الألمانية بين الطلاب والعاملين في الجامعات كمساهمة في إذابة الحواجز اللغوية بين العرب والألمان . فتدريس اللغة الألمانية في الأقطار العربي مهمة عربية ، وينبغي أن تمارس من قبل مؤسسات تعليمية عربية . وإذا كان لألمانيا دور في ذلك ، فينبغي أن يكون دوراً داعماً ومسانداً فقط . أمّا اضطلاع فروع (معهد غوته) أو غيرها من المؤسسات الثقافية الألمانية بدور أساسي في تعلم اللغة الألمانية في بعض الأقطار العربية فيرجع إلى تقاعس المؤسسات التعليمية العربية المعنية بالأمر عن القيام بهذا الدور ، وهو وضع غير صحي في كلّ الأحوال.

ب- ممارسة البحث العلمي في الشؤون الألمانية الهامة بالنسبة للعالم العربي ، سياسية كانت تلك الشؤون أم اجتماعية واقتصادية

وثقافية وتاريخية ... الخ . فبهذه البحوث تستطيع " الجرمانستيك " العربية أن تساهم في سدّ النقص الشديد في المعلومات المتعلقة بألمانيا ، وفي تصحيح الأفكار والأحكام المسبقة والرغائبيّة السائدة لدى العرب حول هذا البلد ، وفي تمكين المجتمع العربي من الاستفادة من الخبرات والتجارب الألمانية عل كافة الصعد ، وفي تمكين صنّاع القرار السياسي في الوطن العربي من وضع سياسة ألمانية سليمة مستندة إلى دراسات علمية ، لا إلى الارتجال والمصالح الآنية . إنّ البحث العلمي ينبغي أن يشغل الحيز الأكبر من نشاط أقسام " الجرمانستيك " العربية وبرامجها ، وأن يكون على رأس اهتمامها وأولوياتها . فالحاجة العربية إلى بحوث كهذه كبيرة جداً ، وما الأخطاء الفادحة التي ارتكبتها السياسة العربي في الساحة الألمانية ، وما زالت ترتكبها ، إلا تعبير عن غياب تلك الدراسات (٢٨).

ج- تزويد الكوادر التي تعمل في المجالات المرتبطة بالعلاقات العربية الألمانية بالتأهيل اللغوي والثقافي : كالصحفيين ، والدبلوماسيين، والأدلاء السياحيين ورجال الأعمال .. فالتعامل مع الساحة الألمانية والعمل فيها ، وهي ساحة اقتصادية وسياسية وإعلامية وثقافية هامّة وضخمة ، يحتاج إلى أشخاص مؤهلين لغوياً وثقافياً ، يفهمون تلك الساحة ، ويملكون الكفاءة اللازمة للتعامل معها ، والعمل فيها بصورة فاعلة وناجحة .

٤- من الضروري أن يكثّف الألمان دعمهم لتدريس الألمانية في العالم العربي ، وأن يبدأ العرب برعاية تدريس العربية في ألمانيا ودعمه . في هذا السياق لا بدّ من ملاحظة أنّ ألمانيا تمارس هذه المهمة منذ وقت طويل ، وذلك عبر فروع (معهد غوته) المتواجدة في عدد من الأقطار العربية ، ومن خلال مدرسي اللغة الألمانية الذين توفدهم " إدارة التبادل الأكاديمي الألمانية (DAAD) " إلى الجامعات العربية . ولكن بالمقابل هناك أقطار عربية كثيرة ليس لـ (معهد غوته) فروع فيها ، وكثيرة هي الجامعات العربية التي لم ترسل " إدارة التبادل الأكاديمي " مدرسين

إليها ، فظلت اللغة الألمانية في تلك الأقطار دون دعم أو رعاية . من الواضح أنّ للألمان في هذه المرحلة أولوياتهم الثقافية الخارجية ، ويأتي على رأسها رعاية الثقافة الألمانية ودعم تدريس الألمانية في أقطار أوروبا الشرقية ، وذلك لأسباب سياسية معروفة . إلاّ أنّ هذا لايعني أنّ ألمانيا الموحدة قد تخلّت عن دورها في العالم العربي ، الذي لها فيه مصالح اقتصادية وسياسية لا يُستهان بها ، وبالتالي فإنها ستواصل تواجدها الثقافي فيه.(٢٩).

أمّا الجانب العربي فإنّ تقصيره على صعيد رعاية تدريس اللغة العربية في ألمانيا كبير جداً ، بل لا نجافي الحقيقة إذا قلنا إنه لم يفعل حتى الآن شيئاً على هذا الصعيد ، وعلى الأرجح أنه لم يع بعد أنّ هناك شيئاً يمكن أن يُفعل . لقد شكّل إحداث " معهد الخرطوم الدولي لتعليم العربية لغير الناطقين بها " ، ومعاهد تعليم العربية للأجانب في مصر وتونس وسورية والأردن والمملكة العربية السعودية والمغرب خطوات في الاتجاه الصحيح ، إلاّ أنّ هذه المعاهد كلها لم تتمكن من القيام بنشاط لغوي وثقافي خارجي يمكن أن يقارن بذلك النشاط الذي تمارسه فروع (معهد غوته) في العالم العربي (وفي العالم بصفة عامة)! ويمكن القول إنّ المعاهد الآنفة الذكر لم تبذل أيّ مجهود من أجل دعم تعليم اللغة العربية في ألمانيا ، وكأن هذه اللغة يتيم ليس له أهل يمدون له يد العون والرعاية . وعلى هذا الصعيد ننصح العرب بأن يدرسوا التجربة الألمانية في رعاية اللغة والثقافة الألمانيتين في الخارج بكل تواضع وجدية ، فهي غنية بالدروس لكلّ أمّة لم تهتدِ بعد إلى سبل رعاية مصالحها الثقافيّة الخارجية.

تلك هي ، في رأينا أبرز معالم الاستراتيجية التي يمكن أن يؤدي اتباعها إلى الارتقاء بالعلاقات اللغوية بين العرب والألمان إلى مستوى تتضاءل فيه الحواجز اللغوية بين الشعبين إلى حدّ مقبول ، ليصبح التواصل الإنساني والثقافي أكثر يسراً مما كان عليه حتى الآن . ومن المؤكد أنّ تحقيق استراتيجية كهذه يتطلب أن يبذل الطرفان كلاهما ،

العربي والألماني ، جهوداً كبيرة ، ولكن الطرف العربي مطالب ببذل جهودٍ أكبر ، وذلك لأن تقصيره أكبر ، ولأنه صاحب المصلحة الأكبر. وهل نحن بحاجة لأن نذكّر بحقيقة أنّ ألمانيا دولة صناعية متطورة ، وأنّ العالم العربي مجموعة من الأقطار المتأخرة أو النامية ، التي تحتاج إلى التعاون مع دولة صناعية كألمانيا أكثر من حاجة الأخيرةإلى التعاون معها؟ وهل نحن بحاجة لأن نذكّر بالحساسية البالغة التي تتصف بها الساحة الألمانية بالنسبة للعرب ، وذلك نتيجة " للعلاقة الخاصة " التي تمكّنت (إسرائيل) من إقامتها مع ألمانيا ، مستغلة " عقدة الذنب الجماعي " الألمانية الشهيرة ؟ وهل يعرف العرب أصلاً ما تعنيه تلك (العلاقة الخاصة) سياسياً واقتصادياً وثقافياً وعسكرياً ؟ لو عرف العرب ذلك لما تعاملوا مع الساحة الألمانية بالاستهتار الذي تعاملوا به إلى اليوم مع تلك الساحة ، ولبذلوا جهوداً أكبر لتحسين التواصل والتفاهم بينهم وبين الألمان . وهذا لايتمّ إلاّ بتذليل الحواجز اللغوية والثقافية . فكل جهد يبذل على هذا الصعيد هو استثمار لصالح الأجيال العربية والألمانية القادمة . وعندما يبلغ التواصل الإنساني والثقافي بين الأمتين العربية والألمانية المستوى الذي نتمناه ، فلن يعود من السهل على الأوساط المتصهينة والعنصرية في ألمانيا أن تضلل الجماهير الألمانية وتتلاعب بوعيها وتألبها على العرب.

وفي الختام لا بدّ من أن نشير إلى أنّ ما قلناه في هذا البحث عن العلاقات اللغوية والثقافية بين العرب والألمان لاينطبق على علاقة العرب بالساحة الألمانية فحسب ، بل ينطبق أيضاً ، وإن يكن بدرجات وأشكال مختلفة ، على علاقتهم الشعوب الأجنبية جميعها . فهذه العلاقات مازالت في الواقع هزيلة ضحلة ، لاتستند إلى تواصل لغوي وثقافي عميق ، أو إلى قاعدة اجتماعية واسعة ، مما يسهل على أعداء الأمة العربية اختراق الساحات الخارجية كلها ، بما في ذلك ساحات العالمين الاسلامي والثالث والمعسكر الاشتراكي سابقاً ، تلك الساحات التي اعتبرها العرب فترة طويلة ساحات مؤيدة لهم . ولكنّ التنامي [illegible]

الأخيرة في أوروبا الشرقية ينبغي أن تجعل العرب يستفيقون من هذا الحلم الكاذب . فقد نجح الأعداء في تلك الساحات أيضاً في تشويه صورة العرب ، وتأليب الرأي العام ضدهم ، وإعاقة ظهور التعاطف مع قضاياهم العادلة . ولذا فإنّ ما قلناه حول ما هو مطلوب عربياً على صعيد تطوير العلاقات اللغوية والثقافية مع الألمان ينطبق ، إلى هذا الحدّ أو ذاك ، على الساحات الخارجية الأخرى . فالأمة العربية تعيش على الصعيد الخارجي عزلة لغوية وثقافية خانقة ، تتحول في كلّ مرة تحدث فيها مواجهة بين الأمة وبين أعدائها التاريخيين إلى عزلة سياسية ، رسمية وشعبية ، قاتلة . ترى ألم يحن الوقت بعد لأن يعي العرب هذه الحقيقة الكبرى ، وأن يستخلصوا ما يترتب عليها من نتائج ؟

■

الهوامش :

(١) نستخدم هنا مفهوم "الرأسمالية المحيطية" وفقاً لكتابات سمير أمين (١٩٨٥) ، د. سنجهاز (١٩٨٦).

(٢) G. E. Lessing (1954)

وهي مسرحية دعا فيها الكاتب إلى التسامح الديني . وقد عُرِّبت في أواسط الأربعينات في القدس ، و لم يُعد طبعها أو عرضها لأنّ مضامينها الفكرية لا توافق المناخ الفكري السائد في المنطقة العربية.

(٣) راجع بهذا الخصوص L. Rathmann (1971)

(٤) راجع بهذا الشأن :

taz: Golf- Journal ; Das Parlament (6. sep . 91) :

لم يكن موقف حركة السلام الألمانية انحيازاً إلى قيادة الدولة العربية المعروفة التي اجتاحت جارتها الصغيرة ، وأعطت الإدارة الأمريكية والغرب فرصة لتدشين النظام العالمي الجديد على جثث مئات الألوف من أبناء الأمة العربية ، وإلحاق هزيمة جديدة كبرى بالعرب .

(٥) راجع بخصوص هذه المسألة U . Fix (1991)

(٦) نحيل من يريد الحصول على أرقام إحصائية حول تعليم اللغة الألمانية في الخارج إلى :

D. Sturm (Hg.) (1987) : S. 11-26 .

أمّا الطرف العربي فلم يقم ، وفقاً للمعلومات المتوافرة لنا ، بأية محاولة لمعرفة عدد الأجانب الذين يتكلمون العربية أو يتعلمونها.

(٧) فيما يتعلق باللغة الألمانية وأوضاع تدريسها في الوطن العربي راجع بحثنا (١٩٨٩) ، و كذلك كتيب : ٢٥ عاماً معهد غوته في القاهرة (١٩٨٨).

(٨) بخصوص نقد سياسة تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي راجع مقالنا (١٩٨٨).

(٩) لمزيد من المعلومات حول حركة الترجمة من الألمانية إلى العربية راجع بحثنا (١٩٩٠) ، وكذلك (A. Abboud : 1984)

(١٠) يبدو أنّ الدافع الرئيسي وراء وجود هؤلاء الأشخاص في السفارات العربية في ألمانيا هو الرغبة في التمتع بالامتيازات المادية وغير المادية للدبلوماسيين . ونحن لا نأخذ عليهم تلك الرغبة ، ولكننا نأخذ عليهم عدم قدرتهم على أداء مهامهم بصورة مناسبة . وينطبق ذلك بشكل خاصّ على الملحقين الثقافيين والصحفيين ، الذين لا يمكن أن يستغنوا عن الكفاءة اللغوية والثقافية ، ولكنّ تلك الكفاءة قل أن تتوافر في أحد منهم . صحيح أننا لانملك دراسة ميدانية حول هذا الموضوع ، ولن نجد في السفارات العربية في ألمانيا من يسمح بإجراء دراسة كهذه ، لأسباب غير خافية على أحد ، ولكننا نعرف من خبراتنا الشخصية أنه قل أن نجد بين الدبلوماسيين العرب العاملين في السفارات العربية في ألمانيا منْ أهل لوظيفته تأهيلاً لغوياً وثقافياً مناسباً . ولذلك تستعين تلك السفارات ".بمتعاقدين محليين " لسدّ هذه الثغرة الخطيرة .

(١١) فيما يتعلق بصورة العرب في الرأي العام الألماني راجع : س. مسلم (١٩٨٥).

(١٢) تتمّ هذه الرعاية عبر منظمة وسيطة(Mittlerorganisation)

هي " معهد غوته لرعاية اللغة والثقافة الألمانيتين في الخارج " . فهذه المنظمة تمارس نشاطاتها الثقافية واللغوية بصورة مستقلة نسبياً عن الجهات الحكومية ، ولكنها تتلقى في الوقت نفسه دعماً مالياً كبيراً من وزارة الخارجية الألمانية ، بلغ عام ١٩٩١ ما يزيد على (٥٠٠) مليون مارك . جدير بالذكر أيضاً أنّ معهد غوته لايدرس اللغة الألمانية مجاناً ، بل لقاء رسوم مناسبة ، ويعمل وفقا لمبدأ " الاقتصادية. "

(١٣) لمزيد من المعلومات حول طرائق تدريس اللغات الأجنبية راجع : ن. خرما/ ع. حجاج (١٩٨٨) السيد ، م . أ(١٩٨٨

و(K. - R. Bausch /H. Christ / W.

Hullen/.(H. J. Krumm (Hg.) (1989)

(١٤) بهذا الخصوص ارجع إلى : إ. سعيد (١٩٨١).

(١٥) نعني بذلك "الكتاب الأساسي لتعليم العربية لغير الناطقين بها "، وهو كتاب تعليمي يقع في جزأين (١٩٨٦ أو ١٩٨٩) وأعلن عن جزء ثالث. ومن الجدير بالذكر أنّ "معهد الخرطوم" يصدر كذلك مجلة اختصاصية يتعلق قسم كبير من مقالاتها بقضايا تعليم العربية للأجانب. ولكنّ المعهد المذكور لم يتطور بالدرجة التي تجعله قادراً على توجيه تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في العالم، ولاندري ماإذا كانت هذه المهمة واردة أصلاً بالنسبة إليه، ولكنها مهمة ملحة، ومن الضروري أن تقوم مؤسسة تربوية عربية بالاضطلاع بها.

(١٦) المقصود بذلك هو

: (Das Landesinstitut fur Arabisch)

وهو معهد حكومي غير جامعي يعنى بتدريس اللغات التي تعدّ صعبة، كالعربية واليابانية والصينية، بطرائق حديثة.

(١٧) لعل أكبر دليل على تقدم هؤلاء المدرسين في استيعاب مشكلات تعليم العربية للأجانب هي مبادرتهم للدعوة إلى عقد "المؤتمر الأول لمدرسي العربية في ألمانيا"، وقد انعقد هذا المؤتمر في نيسان من عام (١٩٩١) في مدينة "مانهايم"، وحضره عدد من العاملين في حقل تعليم العربية في الجامعات. ولكنّ الارتجال وسوء التحضير أفشلا المؤتمر، وحرماه من الخروج بنتائج تكون في مستوى الموضوع الذي انعقد لمعالجته. إلاّ أنّ انعقاد هذا المؤتمر يمثل لحد ذاته مؤشراً لتنامي الإحساس بالأزمة التي يعاني منها تدريس العربية في ألمانيا، وبضرورة عمل شيء ما للخروج من تلك الأزمة.

(١٨) انظر مراجع الحاشية (٤).

(١٩) عُقدت الجولة الأولى من الحوار العربي ــ الألماني في العاصمة الأردنية عمّان يومي ٦ و٧ حزيران ١٩٩١، وذلك بمبادرة من كاتب هذه السطور. وقد تبنى المدير السابق لمعهد غوته بدمشق، الدكتور بيتر شابرت (Peter Schabert) وهو مستشرق متنوّر ومنفتح ومستوعب لمشكلات العلاقات العربية ـ الألمانية، تلك المبادرة، وعمل على تحقيقها بالتعاون مع "منتدى الفكر العربي" في عمان. حول هذا الحوار راجع تقريرنا (١٩٩١)

(٢٠) راجع بهذا الخصوص : U. Fix (1991)

(٢١) راجع بهذا الخصوص : B. C. Witte (1989)

(٢٢) لقد أشارت الخطة القومية الشاملة للثقافة ، التي صدرت عن " المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم " بوضوح إلى أهمية النشاط الثقافي الخارجي ، وحددت محاور ذلك النشاط ، ولكنّ تلك الخطة لم تأخذ بعد طريقها إلى التنفيذ ، ولم تتحول إلى دليل عمل تسترشد به الجهات المعنية بهذه المسألة في العالم العربي .

(٢٣) راجع بهذا الخصوص : س. مسلم (١٩٨٥).

(٢٤) في سورية تفرض اللغة الفرنسية على التلاميذ من خلال نظام " سحب "أو " يانصيب " ، وبذريعة وجود اتفاق ثقافي بين الحكومتين السورية والفرنسية حول هذه المسألة ، وأنّ مسايرة رغبات التلاميذ تؤدي إلى إلغاء قسم كبير من الصفوف التي تدرَّس فيها اللغة الفرنسية ، وبالتالي إلى انتشار البطالة في صفوف مدرّسي تلك اللغة . ترى هل يوافق الفرنسيون على أن تفرض لغة أجنبية على أبنائهم بالطريقة نفسها؟

(٢٥) تلجأ جماعات الضغط الفرانكوفونية والأنجلوفونية إلى ذرائع تبرر بها تكريس الاوضاع الشاذة التي تسود تعليم اللغات الأجنبية في الوطن العربي ، مثل : دعونا نوفر أولاً شروط النجاح لتعليم الانكليزية والفرنسية ، قبل أن نفكر بإضافة لغات أجنبية جديدة.

(٢٦) راجع بهذا الخصوص : B. Tibi (1984)

(٢٧) يتطور علم اللغة الألمانية وآدابها في ألمانيا بسرعة مذهلة ، وينفتح على مجالات وطرائق واختصاصات ومهمات جديدة . أمّا "الجرمانستيك " التي تمارس في بعض الجامعات العربية فهي ضعيفة الديناميكية والتجدد ، تشبه " الجرمانستيك" الألمانية في الستينيات والسبعينيات . وفي جميع الأحوال ينبغي أن تكون " للجرمانستيك " العربية وظائف نابعة من الحاجات الاجتماعية والثقافية للوطن العربي ، وبالتالي فمن الضروري أن تكون مختلفة عن الجرمانستيك

الألمانية من حيث المضامين والمناهج والوظائف . ولقد تطورت نظرة الألمان أنفسهم إلى هذه المسائل تطوراً كبيراً في الأعوام الأخيرة ، وأخذوا يدعون إلى جرمانستيك عبر - ثقافية... (interkulturelle Germanistik)

بينما استمر علماء " الجرمانستيك " العرب في التمسك بمفهومهم القديم لهذا العلم . راجع بهذا الخصوص : P. Zimmermann (Hg.) (1989)

(٢٨) لقد ساعد غياب سياسة ألمانية مدروسة وسليمة للدول العربية السياسية الاسرائيلية على استغلال الساحة الألمانية إلى أقصى حدّ ممكن ، فحصلت " إسرائيل " من الحكومة الألمانية على عشرات المليارات من الماركات في صورة " تعويضات " عن ضحايا العهد النازي من اليهود ، ثم حصلت على مساعدات إقتصادية وعسكرية أخرى بلغت قيمتها مليارات الماركات ، وتطورت العلاقات الألمانية - الاسرائيلية إلى (علاقات خاصّة) ، بينما وقفت السياسة الخارجية العربية في الساحة الألمانية عاجزة ، بل مشلولة ، ولم تتمكن من عمل أيّ شيء لمواجهة تلك التطورات الخطيرة . إنّ السياسة الخارجية العربية لم تفشل في أية ساحة خارجية كفشلها في الساحة الألمانية ، وقد كان فشلها شاملاً ، وعلى جميع المستويات . فعلى المستوى الرسمي فشلت السياسة الخارجية العربية في حمل الحكومة الألمانية على انتهاج سياسة شرق - أوسطية متزنة ، تأخذ المصالح العربية بعين الاعتبار ، وعلى الصعيد الشعبي فشلت السياسة العربية في كسب الرأي العام الألماني ، الذي تركته لإسرائيل وأصدقائها من الألمان ، يوجهونه كما يحلو لهم ، ويعبئونه بالأفكار والحجج والصور والمعلومات المعادية للعرب وقضاياهم . ترى هل كان ذلك سيحدث لو كانت للدول العربية سياسة ألمانية مدروسة ، وضعها متخصصون في الشؤون الألمانية ؟ حول العلاقات العربية الألمانية راجع :

'M. ABEDISEID (1976) ; K. KAISER U. U. STEINBACH (HG.) (1981)

(٢٩) حول دور ألمانيا الموحدة في العالم العربي راجع الأبحاث والأوراق المقدمة إلى ندوة (الحوار العربي - الألماني) ، وقام (منتدى الفكر العربي) بنشرها في كتاب . راجع كذلك بحثنا (١٩٩١) ، ومراجع الحاشية (٤).

أبرز المراجع :

آ- العربية :

-السيد ، محمود أحمد (١٩٨٨) : تعليم اللغة بين الواقع والطموح . دمشق : دار طلاس.

-أمين ، سمير (١٩٨٥) : التطور اللامتكافئ . دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية . ت. برهان غليون . بيروت : دار الطليعة.

- خرما ، نايف وعلي حجاج (١٩٨٨) : اللغات الأجنبية ، تعليمها وتعلمها . الكويت ، وزارة الاعلام (عالم المعرفة ، ١٢٦).

-سعيد ، إدوار (١٩٨١) : الاستشراق : المعرفة ، السلطة ، الإنشاء . ت. كمال أبو ديب ، بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية.

-سنجهاز : ديتر (١٩٨٦) : الإمبريالية وإعادة الإنتاج التابع . ت. ميشيل كيلو ، دمشق : منشورات وزارة الثقافة.

-عبود ، عبده (١٩٨٨) : تعليم اللغات الأجنبية في العالم العربي : نظرة على الأبعاد الاجتماعية والحضارية . مجلة (العربي) الكويتية ، العدد ٣٥٢ ، ص ٢٦- ٣٠ .

-عبود ، عبده (١٩٨٩) : اللغة الألمانية من منظور ثقافي عربي . مجلة جامعة البعث ، العدد ٦، ص ٢٧١- ٣٠٠.

-عبود ، عبده (١٩٩٠) : التشويه المضاعف . واقع التعريب عن الألمانية ومشكلاته . مجلة (فكر وفن) ، ع ٥١ ، ص ٥٣ - ٧٥.

-عبود ، عبده (١٩٩١) : الحوار العربي الألماني إلى أين (تقرير) في : المستقبل العربي ، العدد ١٥٢ ، ١٠ - ١٩٩١ ، ص ١٦٥ - ١٧٤.

-مسلم ، سامي (١٩٨٥) : صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية .

■

ب- الأجنبية :

Abbuod , Abdo (1984) : Deutsche Romane im arabischen Orient. Frankfurt a. M.

Abediseid , Mohammad (1967) : Die deutsch - arabischen Beziehungen Probleme und Krisen. Stuttgart.

Baush , K.- R./Christ , H. / Hullen , W./ Krumm , H. J. (Hg.) (1989) : Handbuch Fremdsprachenunterricht. Tubingen.

Fix , Ulla (1991): Sprache : Vermittler von Kultur Und Mittel soziokulturellen Handelns . In : Informationen Deutsch als Fremdsprache , 2/1991 , S. 136 - 147.

Kaiser , Larl u. Udo Steinbach (Hg.) (1981) : Deutsch - arabische Beziehungen. Munchen Wien.

Lessing . Gotthold Ephraim (1954) : Nathan der Weise. In : Gesammelte Werke , Bd . 2, Berlin.

Ratmann . Lothar (1971) : Geschichte der Araber , Bd. 2, Berlin.

Sturm , Dietrich (Hg.) (1987) : Deutsch als Fremdsprache weltweit. Munchen.

Tibi , Bassam (1984) : Anmerkungen zur Orientalismusdebatte. In: Neue Politische Literatur , 3/1984.

Witte , Berthold (1987) : Forderung der deutschen Sprache als Teil auswartiger Kulturpolitik. In : D. Sturm (Hg.) (1987) S. 159 - 172.

Zimmermann , Peter (Hg.) (1989) : Interkulturelle Germanistik : Dialog der Kulturen auf Deutsch? Frankfurt / M. Bern.

taz : Golf - Journal ، Das Parlament (6.- 13. Sep. 1991)

***

٤ - ٢ - نافذة العرب على المجتمع الألماني وثقافته

١ - الموقع الهامشي :

إذا ألقينا نظرة على خريطة تعليم اللغات الأجنبية في مدارس الوطن العربي وجامعاته نجد أنّ اللغة الألمانية لا تشغل أكثر من حيز محدود ، بل محدود جداً على تلك الخريطة . فقد استقر هذا التعليم في معظم الأقطار العربية على لغتين أجنبيتين هما : الانكليزية والفرنسية ، وذلك لاعتبارات كثيرة ، بعضها وجيه ، والبعض الآخر غير وجيه . وفي مقدمة الأسباب الوجيهة والعملية حقيقة كون الانكليزية تمثّل في عالم اليوم لغة التعامل والتداول العالمية الأولى ، وبلا منازع . فالبشرية بحاجة إلى لغة من هذا النوع ، لغة يتفاهم بوساطتها الناس في كلّ أرجاء المعمورة على اختلاف ألسنتهم القومية ، ذلك الاختلاف الذي يشكل حاجزاً كبيراً يعرقل التواصل بين الشعوب ويحدّ منه [١] . ومن ناحية أخرى أدى اقتصار تعليم اللغات الأجنبية في العالم العربي على اللغتين الآنفي الذكر إلى إغفال تعلم وتعليم لغات أجنبية كثيرة أخرى ، لاتتمتع بسعة الانتشار التي تتمتع بها الانكليزية أو الفرنسية ، ولكنها بالرغم من ذلك لغات على جانب كبير من الأهمية ، بحيث لايجوز لنا في العالم العربي أن نغفلها ونشطبها من قائمة اللغات الأجنبية التي نعلّمها ونتعلمها . وتنطبق هذه المقولة على لغات الشعوب والأمم المجاورة ، تلك الشعوب ، التي تربطنا بها روابط التاريخ والحضارة المشتركين والمصير المشترك ، كالفارسية والتركية والأوردو والسواحيلي والأندونيسية ، كما ينطبق على بعض اللغات الأوروبية الرئيسية

كالاسبانية والروسية والبرتغالية والايطالية واليونانية والسويدية . والألمانية هي إحدى تلك اللغات الأوروبية الرئيسة التي أُهمل تعليمها عربياً ، ووقعت ضحية السياسات التربوية المتبعة على صعيد تعليم اللغات الأجنبية في الأقطار العربية .(٢)

على صعيد التعليم ما قبل الجامعي لاتدرّس الألمانية كلغة أجنبية إلاّ في عدد قليل جدا من الأقطار العربية وعلى نطاق محدود . وتأتي على رأس تلك الأقطار جمهورية مصر العربية التي تعلّم الألمانية في مدارسها المتوسطة والثانوية كلغة أجنبية أولى على قدم المساواة مع الانكليزية والفرنسية . ومن تلك الأقطار الجمهورية الجزائرية والمملكة المغربية .(٣) أمّا في باقي الأقطار العربية فلا نعثر لتعليم الألمانية في المدارس الاعدادية والثانوية على أثر . وعلى الصعيد الجامعي لايختلف الوضع جذريّاً عمّا هو عليه في التعليم ما قبل الجامعي ، فليس هناك أقسام للغة الألمانية وآدابها إلاّ في بعض الجامعات المصرية وجامعات الجزائر والمغرب وتونس والعراق والأردن . وباستثناء أقسام التجرمن في الجامعات المصرية ، وهي أقسام كبيرة نسبياً لناحية أعداد الدارسين والمدرّسين فيها ، فإنّ تلك الأقسام صغيرة جداً ومحدودة التأثير . (٤) إضافة إلى ذلك هناك أعداد من الطلاب العرب الذين يتعلمون اللغة الألمانية كلغة أجنبية ثانية في بعض الجامعات العربية ، كما هي الحال في سوريا على سبيل المثال ، حيث يستطيع دارسو اللغة الانكليزية وآدابها أنّ يختاروا اللغة الألمانية في إطار مقرر " اللغة الأوروبية الثانية " (٥) . وإضافة إلى هاتين المجموعتين ثمة مجموعة ثالثة من الأقطار العربية التي ليس للغة الألمانية أيّ تواجد في مؤسساتها التعليمية الجامعية وما قبل الجامعية ، وإلى هذه المجموعة ينتمي بعض دول الخليج العربي واليمن وموريتانيا . ولئن دلّ ذلك كله على شيء فهو يدلّ على أنّ اللغة الألمانية لاتتبوأ على خريطة تعليم اللغات والآداب الأجنبية في العالم العربي سوى موقع هامشي .

٢ ـ النموذج السوري :

إذا أخذنا سوريا كمثال نوضّح من خلاله وبشيء من التفصيل أوضاع تعليم اللغة الألمانية في العالم العربي نجد أنّ وضع الألمانية في هذا القطر لايشذ عن القاعدة الآنفة الذكر . فقد استقر تعليم اللغات الأجنبية في المدارس والجامعات السورية منذ وقتٍ طويل لصالح لغتين أجنبيتين فقط ، هما الانكليزية والفرنسية ، واستبعدت اللغات الأجنبية الأخرى كافة ، بما في ذلك لغات الشعوب المجاورة واللغات الأوروبية الهامة كالاسبانية والروسية والألمانية . فالألمانية لاتدرّس البتّة في مراحل التعليم ما قبل الجامعي ، تماماً كما هي الحال عليه في معظم الأقطار العربية ، ويقتصر تواجد هذه اللغة في المرحلة الثانوية على بضع عشرات من التلاميذ الذين يقدّمون الألمانية كلغة أجنبية في امتحان الشهادة الثانوية " كأحرار " (٦) . أمّا على الصعيد الجامعي فليس لتعليم الألمانية وجود مستقل يستحق الذكر . صحيح أنّ لكل طالب جامعي ، بصرف النظر عن فرعه الدراسي ، الحق في أنّ يختار الألمانية كلغة أجنبية. ولكنّ هذه الإمكانية قائمة من الناحية النظرية فحسب . أمّا من الناحية العملية فلا توفر الجامعات السورية شيئاً من مستلزمات تعلم الألمانية كلغة أجنبية ، فالخطط الدرسية لاتخصص أية ساعات للألمانية ، ولايوجد بالتالي مدرسون ولاتدريس . أمّا الطالب الذي يصرّ على تقديم امتحان مقرر اللغة الأجنبية بالألمانية فهو مضطر لأن يتعلم هذه اللغة خارج الجامعة عبر المشاركة في الدورات التي يقيمها المركز الثقافي الألماني (معهد غوته) أو تقيمها معاهد اللغات السورية الخاصة .(٧) وهكذا بقي عدد الطلاب السوريين الذين يتعلمون الألمانية كلغة أجنبية أولى محدوداً جداً ، فهو لايتجاوز العشرات ، من أصل عشرات الآلاف من الطلاب الذين تزخر بهم الجامعات السورية .

يتمثل التواجد الأساسي للغة الألمانية في الجامعات السورية في تواجدها كلغة " أوروبية ثانية " ضمن دراسة الأدبين : الانكليزي

والفرنسي ، أو بالأصح ضمن دراسة الأدب الانكليزي وحدها . فهذه الدراسة تشتمل على مقرر تطلق عليه تسمية " الأوروبية الثانية " ، يستطيع الطالب في إطاره أن يختار واحدة من عدة لغات أوروبية ، كالفرنسية والروسية والألمانية والاسبانية . ومقرر " الأوروبية الثانية " هذا يقف على قدم المساواة مع المقررات الأخرى التي تتكون منها دراسة الأدب الانكليزي ، أي أنّ له مائة درجة ، ويمكن أن ينجح الطالب فيه أو يرسب . ولذا لا بدّ للجامعة من أن توفر له المدرسين والكتاب الجامعي . وفي إطار هذا المقرر شهدت الألمانية في الأعوام الأخيرة انتعاشاً ملحوظاً ، وإقبالاً متزايداً من جانب الطلاب ، ولاسيما في جامعة دمشق ، حيث تجاوز عددهم الألف وخمسمائة طالب ، مما حمل مدرسي هذا المقرر على الاعتقاد أنّ الوقت قد حان لإحداث قسم للغة الألمانية وآدابها في الجامعة المذكورة .[٨] أمّا في الجامعات السورية الأخرى فإنّ الاقبال على الألمانية أضعف بكثير منه في جامعة دمشق ، لأسباب كثيرة لايتسع المجال لتفصيلها .[٩]

وبغضّ النظر عن الدوافع التي تجعل دارسي الأدب الانكليزي يختارون الألمانية كلغة " أوروبية ثانية " ، لا بدّ لنا أن نتساءل : ما هي المحصلة النهائية أو ما هو المردود العملي لتعلم هذه اللغة في الإطار الآنف الذكر ؟ إنه تساؤل لايمكن الإجابة عنه دون التطرق إلى الاعتبارات التربوية التي حدت بواضعي منهاج دراسة الأدبين الانكليزي والفرنسي في سوريا إلى ادخال مقرر " اللغة الأوروبية " إلى تلك الدراسة . يبدو أنّ الاعتبار التربوي الأساسي وراء تلك العملية يكمن في إتاحة الفرصة لدراسي الأدبين الآنفي الذكر لأن يقابلو أو يقارنوا لغتين أوروبيتين ، وأن يتبينوا بالتالي بعض أوجه التشابه والاختلاف القائمة بينهما ، مما يجعلهم قادرين على فهم اللغة الأوروبية الأولى التي يدرسون أدبها بصورة أفضل . إنه على مايبدو الاعتبار نفسه الذي حمل واضعي منهاج دراسة اللغة العربية وآدابها على إدخال مقرر كاللغة العبرية أو الفارسية إلى تلك الدراسة . ولكن مهما يكن من أمر فإنّ السؤال الأهم هو :

بأية درجة يجيد متعلمو اللغة الألمانية من الطلاب السوريين هذه اللغة نتيجة لتعلمهم إياها كلغة أوروبية ثانية ؟ هل يكتسبون كفاءة لغوية وثقافية تمكّنهم من الاستفادة من تلك اللغة في قراءة الصحف أو استخدام المراجع العلمية ، أو فهم البرامج الاذاعية والتلفزيونية ، أو التواصل مع السائحين ، أو القيام بأعمال الترجمة ؟ والجواب عن هذا السؤال هو النفي . فالطالب السوري يتعلم اللغة الألمانية ثلاثة فصول دراسية فقط ، وهي موزعة على ثلاث سنوات دراسية بطريقة تجعله ينسى في السنة اللاحقة ماأكتسبه في السنة السابقة من معارف لغوية . وفي كلّ الأحوال فإنّ مجمل ما يتعلمه الطالب خلال دراسته لايتعدى " المرحلة الأساسية الأولى " من تعلم الألمانية كلغة أجنبية ، وهو مستوى لايؤهله للاستفادة من اللغة الألمانية أو استخدامها في شيء . وفي معظم الحالات تتبخر المعارف التي اكتسبها طالب اللغة الإنكليزية وآدابها على صعيد اللغة الألمانية في زمن قياسي ، ولايبقى عالقاً في ذهنه سوى بضع مفردات وتعابير . وباختصار فإنّ المردود العملي ، أو المحصلة النهائية ، لتعلم الألمانية وتعليمها كلغة " أوروبية ثانية " ضمن دراسة الأدب الانكليزي في الجامعات السورية ضئيل جداً ويكاد أنّ يكون لا شيء .

وقد برز في الأعوام الأخيرة تطوران هامّان على صعيد تدريس اللغة الألمانية في الجامعات السورية : الأول هو إحداث المركز الإستشاريّ لتدريس اللغة الألمانية في جامعة حلب ، ومركز تدريس اللغة الألمانية بجامعة تشرين ، وذلك في إطار إحداث مراكز اللغات الحيّة في الجامعات السورية . أمّا التطور الثاني فقد تمثل في ضم اللغة الألمانية وآدابها إلى اللغات والآداب الأجنبية التي ينبغي أن تحوي كليات الآداب والعلوم الإنسانية أقساماً لدراستها ، وذلك بموجب مشروع اللائحة الجديدة لكليات الآداب الذي تمت الموافقة عليه من قبل مجلس التعليم العالي سنة ١٩٩١ ، ولكنه لم يدخل بعد حيز التطبيق . هذان التطوران سيغيران في وقت قد يطول أو يقصر ، وضع تدريس اللغة الألمانية وآدابها في سورية بصورة جذرية ، وسيضعان هذه اللغة في موقع

يتناسب مع مكانتها الإقليمية والعالمية . إلا أنّ الأمر لم يزل إلى اليوم يتعلق بأمانٍ مستقبلية . أمّا " على الأرض " فقد ظل المكان الذي يحتله تدريس اللغة الألمانية على خريطة تدريس اللغات والآداب الأجنبية في المؤسسات التعليمية السورية بعيداً عن تلك الآفاق كل البعد . ذلك هو، بإيجاز شديد ، واقع تعليم اللغة الألمانية في مدارس سوريا وجامعاتها . وهو واقع أهم سماته عدم وجود الألمانية كلغة أجنبية أولى أو ثانية في مراحل التعليم ما قبل الجامعي ، وعدم وجود أقسام للغة الألمانية وآدابها في الجامعات . وعلى الرغم من كلّ ما يتسم به واقع تعليم الألمانية في سورية من خصوصية قطرية فإنّ هذا الواقع يشترك مع نظرائه في باقي الأقطار العربية في سمة أساسية ، هي موقعه الهامشي في مشهد تعليم اللغات والآداب الأجنبية .

٣- الحاجة العربية إلى الألمانية

٣-١- المجال التجاري :

ولربّ قائل : ولكنّ هذا هو واقع تعليم كل اللغات الأجنبية غير العالمية ، بما في ذلك بعض اللغات الأوسع انتشاراً من الألمانية ، كالصينية والاسبانية والروسية ، فما حاجتنا إلى تعليم لغة غير عالمية كالألمانية ؟ ألا يغني تعلم لغة عالمية كالانكليزية عن تعلم باقي اللغات الأجنبية ، التي لم يعد لها أكثر من أهمية إقليمية في أحسن الأحوال ؟ لاشك في أنّ تساؤلات كهذه وجيهة جداً ، ولايجوز للمرء أن يتجاهلها ، لأنها تعبّر عن رأي الأغلبية العظمى من الناس . وفي الواقع فإنّ لغة تدوال عالمية كالانكليزية تغني عن اللغات الأجنبية الأخرى في كثيرٍ من المجالات ، ولكن ليس في المجالات كلها . فقد جرت العادة مثلاً أن تتم المراسلات التجارية الخارجية بالانكليزية ، وذلك بغضّ النظر عن اللغات القومية للجهات التي تتعامل تجارياً مع بعضها البعض. فالتجارة ميدان براغماتي ، الغلبة فيه للحلول الأسهل والأكثر عملية.

هذه حقيقة لم تعد موضع نقاش . ولكنّ ذلك لا يعني أنّ اللغات الأخرى لم تعد لغات للتجارة والاقتصاد . فنحن بحاجة إلى متابعة الكتب والمجلات والصحف والنشرات الاقتصادية التي تصدر في مختلف الأقطار وبمختلف اللغات ، وذلك لمتابعة التطورات الاقتصادية في تلك الأقطار . كذلك فإنّ إجادتك للغة شركائك التجاريين الأجانب تعود عليك بالفائدة لأنها تمكّنك من فهمهم والتواصل معهم بصورة أفضل . وهذا يعني أننا بحاجة إلى إجادة اللغات القومية للأقطار التي تربطنا بها علاقات اقتصادية واسعة ، وفي مقدمة تلك الأقطار الدول الناطقة بالألمانية التي تمثل قوة اقتصادية عظمى في عالم اليوم .

٣ـ ٢ـ السياحة :

وإذا نظرنا إلى مجال السياحة والزيارات نجد أنّ الوضع لايختلف كثيراً عما هو عليه في المجال التجاري والاقتصادي . فالسائح أو الزائر العربي لبلد ألماني اللغة يستطيع أيضاً أن " يتدبر أمور حياته اليومية " بالانكليزية وحدها ، سواء في الشارع ، أم في الفندق والمطعم والمقهى والمستشفى ، ولايحتاج بالضرورة إلى الألمانية . ولكن أو ليس من الأفضل لهذا السائح أو الزائر أن يلم بتلك اللغة ، ليتمكن من معرفة ما يدور حوله ، ومن التواصل مع أهل البلاد ؟ إنّ السائح العربي الذي لا يلمّ بالألمانية يخرج بانطباعات سطحية جدّاً عن البلاد التي يزورها ، لأنه غير قادر على التواصل مع الناس والمشاركة في الحياة الاجتماعية والثقافية المرتبطة باللغة أوثق الارتباط .. فالسياحة نشاط إنساني لايقتصر على تفقد الأماكن الأثرية ومشاهدة المناظر الطبيعية والتعرف إلى الحياة الليلية ، بل يجب أن ينطوي على تعارف وتواصل بين الشعوب . ولكنّ العلاقات السياحية العربية ـ الألمانية لا تقتصر على السائحين الذين يقضون إجازاتهم في أحد الأقطار الناطقة بالألمانية، بل لها شقّ آخر يتمثل في حركة السيّاح الألمان ، الذين يؤمون الأقطار العربية، ويشكلون في بعض الحالات مورداً هاماً من مواردها

الاقتصادية.[١٠] فمن المعروف أنّ الألمان يحرصون على ممارسة السياحة خارج بلادهم ، ويسعون للتعرف إلى البلدان الأجنبية ، ولاسيما الجنوبيّ منها ، بمناخها الدافئ ، وحضاراتها القديمة . وفي كل عام يتوجه ملايين الألمان إلى خارج بلادهم ، وبشكل خاص إلى الأقطار المتوسطية ، لقضاء إجازاتهم السنوية . والعالم العربي يمتلك فرصاً جيدة لاجتذاب السياح والمصطافين الألمان ، وذلك لما يتحلى به من مواصفات مناخية وحضارية . ولكنّ نجاح العرب في ذلك يتوقف على عدة عوامل ، ومن بينها وجود إعلام سياحي عربي متطور ، يخاطب السائح الألماني بلغته القومية ، وتوافر الأدلاء السياحيين وغيرهم من العاملين في المرافق السياحية الذين يجيدون الألمانية ، ويعرفون كيف يتعاملون مع السائح الألماني بصورة مناسبة .[١١]

٣-٣- الدبلوماسية :

وثمة مجال آخر لانستغني فيه عن اللغة الألمانية هو المجال الدبلوماسي أو السياسي الخارجي . فالدبلوماسيون العرب الذين يقيمون في بلد ناطق بالألمانية ، حيث يمثلون مصالح بلادهم ، يستطيعون بدورهم أن يتدبروا أمورهم " بالانكليزية أو الفرنسية ، خصوصاً وأنّ الفرنسية هي لغة السلك الدبلوماسي . وما دام الأمر كذلك فلم إنفاق الوقت والمال على تعلم لغة أجنبية يمكن الاستغناء عنها كالألمانية ؟ صحيح أنّ بوسع الدبلوماسي العربي أن يكتفي بالفرنسية أو الانكليزية ، وأن يستغني عن الألمانية ، ولكن أليس من الأفضل له ، وللقطر العربي الذي يمثل مصالحه في بلد ألماني اللغة ، أن يلم بالألمانية ، وإن تطلب منه ذلك بذل بعض الجهد ؟ من الصعب أن نتصوّر كيف يمكن أن يمثل دبلوماسي بلاده بصورة ناجعة وفعالة في بلاد لا يعرف لغتها وثقافتها ، وبالتالي لايقدر على قراءة صحافتها ، ولا على متابعة ما يدور في حياتها السياسية والاقتصادية والإعلامية إلاّ بمساعدة ترجمان . إنّ دبلوماسياً كهذا لن يكون أكثر من " أطرش في

الزفة " ، كما يقول المثل الشعبي . ولكنّ السفارات والقنصليات العربية في الأقطار الناطقة بالألمانية تعجّ بمثل هؤلاء الطرشان ، الذين لايريدون أن يتجشموا عناء تأهيل أنفسهم لغوياً . ولعل هذا هو أحد الأسباب الأساسية لعدم نجاعة الدبلوماسية العربية وعدم فعاليتها في الأقطار المذكورة . لذلك ليس بوسعنا أن نتصوّر كيف أن ترسم وزارات الخارجية العربية سياساتها وعلاقاتها مع الأقطار الألمانية اللغة دون باحثين ومختصين في الشؤون الألمانية ، لايجيدون اللغة الألمانية فحسب ، بل يحيطون بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الألمانية بصورة دقيقة . ولبالغ الأسف فإنّ ما لايستطيع المرء أن يتصوره حاصل فعلا ، وهذا أحد أسباب الإخفاق الذي مُنيت به السياسة الخارجية العربية تجاه الأقطار الناطقة بالألمانية ، وسبب تمكّن الجهات المعادية للعرب من أنّ تسيطر على الساحة الألمانية ، وأن تجني الثمار الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية الكبيرة لتلك السيطرة .

٤- ٣- الدراسة والتعلم :

ولكن حتى إذا سلمنا جدلاً بأن رجل الأعمال والسائح والدبلوماسي ليسوا بحاجة إلى اللغة الألمانية ، وأنّ بوسعهم الاستعاضة عنها بلغة تداول عالمية كالانكليزية ، تظل هناك فئات لاغنى لها عن اللغة الألمانية بحال من الأحوال ، وفي مقدمة تلك الفئات الطلاب والدارسون العرب ، الذين يتلقون العلم في الجامعات والمعاهد الألمانية . فالنشاطات الدراسية ، من محاضرات وحلقات بحث وما إلى ذلك ، تتم باللغة الألمانية ، والأبحاث ورسائل التخرج تكتب كلها بالألمانية . ولذا يستحيل على الطالب العربي الذي يدرس أو يتدرب في إحدى الدول الناطقة بالألمانية أن يمارس دراسته أو تدريبه دون أن يجيد الألمانية ، بل إنّ إجادة هذه اللغة شرط مسبق لابدّ من توافره قبل الشروع بالدراسة . إلا أنّ حاجتنا إلى الألمانية على الصعيد الجامعي والعلمي لاتقتصر على الدراسة والتدريب ، بل ينبغي أن تشمل أيضاً استيعاب نتائج البحوث

والدراسات الألمانية في العلوم كلها ، التطبيقي ، والنظري ، الطبيعي والإنساني منها. فالأقطار الناطقةبالألمانية أقطار متقدمة علمياً ، ولديها على هذا الصعيد ما يجدر بنا أن نستوعبه ونستفيد منه ، أو أنّ نأخذ به علماً على الأقل . فاستيعاب نتائج البحوث العلمية في البلدان المتطورة يمثل بالنسبة للمجتمعات النامية ضرورة ملحّة من ضرورات التطور والتنمية [١٢].

٣ - ٥ - الإعلام :

ومن المجالات التي لاغنى للعرب فيها عن اللغة الألمانية مجال الإعلام . فنحن بحاجة ماسّة إلى متابعة ماتنشره الصحافة ووسائل الإعلام الألمانية حول القضايا العربية من جهة ، وإلى مخاطبة الرأي العامّ الألماني ، ونقل وجهات النظر العربية إليه ، وكسبه إلى جانب تلك القضايا من جهة أخرى . ومن البديهي أنّ ذلك لا يمكن أن ينجز بلا اللغة الألمانية . وتتم هذه العملية بوسائل مختلفة أبرزها الأقسام الألمانية في الإذاعات العربية[١٣] والبيانات والمؤتمرات الصحفية التي تقيمها السفارات العربية الموجودة في الأقطار الألمانية اللغة ، كما تتم من خلال الصحفيين ومراسلي وسائل الإعلام الألمانية المقيمين في العالم العربي ، أو الذين يزورونه لتغطية أحداث ومواضيع معيّنة.[١٤] وليس خافياً على أحد أنّ الإعلام الصهيوني يبذل في الساحة الألمانية جهوداً استثنائية ، مستغلاً " عقدة الذنب الجماعي " لدى الألمان في تعبئة الرأي العام الألماني ضد العرب ، ومنع قيام أيّ تضامن أو تفهم ألماني للقضايا العربية . ولذا لا بدّ للعرب من أن يبذلوا بدورهم جهوداً إعلامية غير عادية في الأقطار الناطقة بالألمانية ، إذ أرادوا أن يتصدوا للحملات الإعلامية المكثفة التي تشنها الصهيونية والأوساط الألمانية المرتبطة بها ، وأن يحولوا دون أن ينجرف الرأي العام الألماني بصورة كاملة وراء الإعلام الصهيوني ، مثلما حدث قبل عدوان حزيران ١٩٦٧ ، وخلال حرب تشرين ١٩٧٣ ، وحديثا بمناسبة حرب الخليج الثانية ، وهو

انحراف يتعدّى التعبير عن التعاطف والتأييد إلى تقديم الدعم الاقتصادي والعسكري والسياسي للجهة المعادية ، وهو دعم يتناسب مع القدرات الألمانية .[١٥]

٤- الترجمة كميدان رئيس

٤- ١- أهمية الترجمة عن الألمانية

لاجدال في أنّ المجالات التي أتينا على ذكرها حتى الآن هي مجالات حيوية وهامة . ولكن المجال الذي نحتاج فيه إلى اللغة الألمانية أكثر من أيّ مجال آخر هي الترجمة بفرعيها : العلمّي والأدبيّ . فالألمانية تحتوي على صعيد الفلسفة وعلم النفس وعلم الإجتماع والأدب والنقد والحقول العلمية والثقافية الأخرى كنوزاً لاتستغني عنها أية ثقافة حديثة، وبالتالي فإنّ نقلها إلى العربية يشكل إثراء كبيراً للثقافة العربية ، وإسهاماً كبيراً في تطويرها وتجديدها .[١٦] فليس باستطاعة أية ثقافة حديثة أن تستغني عن ترجمة مؤلفات فلاسفة من أمثال (كانت) و(هيجل) و (نيتشه) و (ماركس) و (إنجلز) و (شوبنهار) و(هايدیجر) و(لوثر) و(بلوخ) ومدرسة فرانكفورت ،[١٧] على سبيل المثال لاالحصر ، ولا عن ترجمة مؤلفات علماء نفس من أمثال (فرويد) و(يونغ) و(آدلر) ، ولا أن تعرض عن مؤلفات علماء اجتماع من أمثال (ماكس فيبر) و(نيكلاس لوهمان) و(يورغين هابرماس) . وأية ثقافة حديثة متطورة يمكن أن تستغني عن استقبال آثار أدباء عالميين من أمثال (لسينغ) و (غوته) و(شيلر) و(هاوبتمان) و(توماس مان) ، و(كافكا) ، و (بيتر فايس) و (هلدرلين) و (ريكله) و (دورنمات) و (فريش) و (هاينريش بول) و(غونتر غراس) ... وسواهم من الروائيين والمسرحيين والشعراء الألمانيي اللغة ، الذين يتمتعون بمكانة رفيعة في الأدب العالمي . إنها أمثلة من مجالات العلوم الانسانية والفكر والأدب ، ولاشكّ في أنّ هناك على صعيد العلوم الأخرى مؤلفات

يمكن أن يمثل نقلها إلى العربية إسهاماً كبيراً في تطوير حياتنا العلمية والثقافية بالمعنى الواسع لهذه الكلمة .[١٨]

٤-٢- مشكلات حركة الترجمة

٤- ٢-١- العشوائية :

ولعل أبلغ دليل على استحالة الاستغناء عن التفاعل مع الثقافة الألمانية من خلال الترجمة هي تلك الأعمال الفكرية والأدبية والعلمية الألمانية التي تم نقلها إلى العربية منذ أن بدأت حركة استقبال الثقافة الألمانية عربياً في مطلع هذا القرن . فهذه الأعمال تعد بالعشرات ، مما حدا بالباحثين مصطفى ماهر وفولفغانغ أوله على محاولة حصرها بيبليوغرافياً[١٩] . ولكنّ حركة الترجمة هذه تعاني من مشكلات كبيرة، تحدّ من جدواها و فاعليتها الثقافية .

فعلى الرغم من أنّ هذه الحركة واسعة نسبياً بالمقارنة مع نظيراتها على صعيد لغات أوروبية رئيسة كالإسبانية والايطالية والبرتغالية ، فإنها من الناحية الكمّية لاتغطي أكثر من جزء ضئيل من الآثار والمؤلفات الألمانية الجديرة بالترجمة على ضوء الحاجة الثقافية العربية . ولو أردنا أن نعدد تلك الأعمال والمؤلفات لحصلنا على قائمة طويلة جداً . فما أكثر المفكرين والأدباء والعلماء الألمان ، الذين لم يُترجَم إلى العربية شيء من أعمالهم إلى اليوم ! وأكتفي هنا بالإشارة إلى حالة واحدة ، هي حالة الروائي والمسرحي غونتر غراسّ الذي يعتبر بحق من أكبر أعلام الأدب العالمي المعاصر ، وقد ترجمت رواياته وقصصه إلى عدد كبير من اللغات الأجنبية ، أمّا المكتبة العربية فهي خالية تماما من ترجمة لأي عمل من أعماله الروائية . كذلك فإنّ المفكرين والأدباء والعلماء الألمان الذين قيض لهم أنّ يُستقبَلوا في العالم العربي من خلال الترجمة فلم يعرّب سوى جزء يسير من مؤلفاتهم وأعمالهم ، وقد تم ذلك بصورة فوضوية وعشوائية تجعل من المستحيل أنّ يتبين المرء أيّ نظام أو منطق ينظم ذلك الاستقبال .

ولعلّ أفضل مثال نسوقه على ذلك هو الفيلسوف والشاعر الألماني المعروف (فريدريش نيتشه) ، الذي يتمتع في العالم العربي بشهرة فائقة . ولكن على الرغم من تلك الشهرة اقتصرت ترجمة كتاباته إلى العربية حتى وقت قريب على كتاب " هكذا تكلم زرادشت" ، وبقيت الحال كذلك إلى مطلع الثمانينيات ، حيث عُرّب مؤلفان صغيران من مؤلفاته هما : " الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي " و " أصل الأخلاق وفصلها " ، وقد اجتزئا من المؤلفين الأصليين بصورة تعسفية .(٢٠) إنّ مصير (نيتشه) في الترجمة العربية ليس حالة فردية البتة . فحظ زملائه من الفلاسفة والأدباء الألمان ليس أوفر من حظه . فقد وقعوا جميعا ضحية تلك العشوائية المتطرفة ، التي تعاني منها حركة الترجمة العربية .

٤- ٢- ٢- الترجمة عن لغات وسيطة :

أمّا الشق الثاني من إشكالية تلك الحركة فيتمثل في كون القسم الأعظم من الأعمال والمؤلفات الألمانية لم يُنقل إلى العربية عن الألمانية مباشرة ، بل ترجم عن لغات وسيطة وبالتحديد عن الانكليزية والفرنسية . والأمثلة على ذلك كثيرة ، بل كثيرة جداً ، ونكتفي هنا بالتطرق إلى بعضها . وما دمنا قد تطرقنا آنفا إلى (نيتشه) فلنبق مع ذلك المثال. فمؤلفاته المعرّبة الثلاثة جميعاً قد عُرّبت عن لغة وسيطة ، هي الفرنسية ، ولم يترجَم أيّ منها عن الألمانية . وهذا مثال آخر : إنّ أكثر الفلاسفة الألمان ترجمة إلى العربية هو (هيجل) ، وقد كانت حصة الأسد في تعريب مؤلفاته لمترجمين أولهما عبد الفتاح إمام ، وهو أستاذ فلسفة مصري يعمل في جامعة الكويت ، ويشرف على إصدار " المكتبة الهيجلية " ، التي تصدر في بيروت عن " دار اكتوبر" (٢١) . لقد ترجم إمام عدداً من أعمال (هيجل) الهامة ،ولكن عن الانكليزية . أمّا

المترجم الثاني فهو جورج طرابيشي الذي عرّب " علم الجمال " لهيجل، ولكن عن الفرنسية [٢٢]. ولعل " علم ظهور العقل " هو أحد مؤلفات (هيجل) القليلة التي ترجمت عن الألمانية مباشرة [٢٣] . وما قلناه عن هذا الفيلسوف الألماني الكبير ينطبق أيضاً على علم آخر من أعلام الثقافة الألمانية ، هو مؤسس التحليل النفسي (سيغموند فرويد) الذي لعب المترجم جورج طرابيشي دوراً مركزياً في نقل مؤلفاته إلى العربية ، ولكن عن اللغة الفرنسية بالطبع . وفي حالة (فرويد) أيضاً تندر الترجمات المنجزة عن الألمانية ، ومن هذه الاستثناءات المفرحة الترجمة العربية لكتاب " تفسير الأحلام " التي أنجزها مصطفى صفوان ، وترجمة كتاب " الطوطم والطابو " ، التي قام بها الباحث السوري المعروف بوعلي ياسين .[٢٤] ومن الحالات البالغة الأهمية حالة الفيلسوف الألماني " إمانوميل كانت " ، الذي يعتبر واحداً من أكبر الفلاسفة في العالم . فماذا ترجم من أعماله إلى العربية ؟ في هذه الحالة أيضاً كانت حصة الأسد لمترجم لاينقل عن الألمانية ، بل عن الانكليزية ، هو أحمد الشيباني، الذي عرب " نقد العقل المجرد " و " نقد العقل العملي "[٢٥].

إنّ (نيتشه) و (هيجل) و(فرويد) و(كانت) لايمثلون حالات استثنائية ، بل حالات نمطية جداً في حركة ترجمة الأعمال والمؤلفات الفكرية والأدبية والعلمية الألمانية إلى اللغة العربية ، تلك الحركة التي تشكل فيها الأعمال المترجمة عن لغات وسيطة نسبة لاتقل عن ٨٠٪ من مجمل الآثار الألمانية المترجمة . ولربّ قائل : أوليس المهم هو أن تترجم المؤلفات ، بغض النظر عن اللغة التي تترجم عنها ؟ وهل هناك فرق بين أنّ تترجم المؤلفات المذكورة عن الألمانية مباشرة وبين أن تترجم عن لغات أخرى ؟ لا جدال في أن ترجمة تلك الأعمال الفكرية والأدبية والعلمية الهامة عن لغات وسيطة أفضل بكثير من عدم تعريبها على الإطلاق . فاستقبال الأعمال المذكورة مترجمة إلى العربية بصورة تعتورها النواقص أفضل من عدم استقبالها البتّة ، خصوصاً وأنّ الترجمة عن لغات وسيطة كانت في معظم الحالات الخيار الوحيد المتاح عملياً .

فلو لم يقم أحمد الشيباني بتعريب " نقد العقل المجرد " و " نقد العقل العملي " عن الانكليزية لحرمت المكتبة الفلسفية العربية من هذين المؤلفين الفلسفيين الهامّين إلى يومنا هذا .

٤-٢-٣- سلبيات الترجمة عن لغات وسيطة :

رغم ذلك كلّه لايجوز أنّ يغيب عن أذهاننا ما للترجمة عن لغة وسيطة من عواقب سلبية بالنسبة للأعمال المترجمة . فهي تعني في حالة الآثار الأدبية كارثة فنية في كثير من الحالات ،وذلك لأنّ العمل الأدبي الذي لايعرّب عن لغته الأصلية بل عن لغة وسيطة يتعرض للتشويه (للخيانة) مرتين : مرة عند نقله من لغته الأصلية إلى اللغة الوسيطة ، ومرة عند ترجمته عن اللغة الأخيرة إلى العربية . وعلى هذا الشكل قد تتضاعف الخسارة الأسلوبية والجمالية ، بل والدلالية ــ المضمونية ، مما يؤدّي إلى تحول عمل أدبي عالمي ذي نوعية جمالية وفكرية من الطراز الأول إلى عمل أدبي من الدرجة الثالثة ، وهذا ما يحمل القارئ العربي الذي لايعرف الأثر الأدبي المذكور إلاّ في ترجمته العربية ، على التساؤل: هل يستحق أديب ألماني مثل (غوته) كلّ ذلك الاحتفاء ؟ أو أن يقول في نفسه : " لم أتوقع أن يكون (شيلر) ضحلاً ، ولا أن يكون (بريخت) سخيفاً ،ولا أن يكون (كافكا) تافهاً إلى هذا الحد. إنّ الشهرة العالمية التي اكتسبها هؤلاء الأدباء ليس لها أساس ، وارجعوا إلى أعمالهم المترجمة لتجدوا فيها الدليل على ذلك ! " إنّ قارئاً كهذا لا يؤاخذ على رأيه ، فهو يعتقد أنه قد قرأ أعمال غوته وشيلر وبريخت وكافكا فعلاً ، ولم يخطر بباله أنّ تلك الأعمال المنسوبة إلى أولئك الأدباء هي في الواقع من صنع مترجمين من أمثال سهيل أيوب ، الذي ترجم " فاوست " عن الانكليزية ، أو خيرات البيضاوي الذي ترجم " الملاك الأزرق " عن الإنكليزية أيضاً ، أو بكر الشرقاوي ، الذي ترجم " حياة غاليليه " عن الإنكليزية أو جرجس منسي والدسوقي فهمي ، اللذين ترجما " المحاكمة " و " أمريكا " عن الانكليزية . ولكنّ هذا

لايعني أنّ كل ترجمة أدبية تنجز عن لغة وسيطة هي ترجمة رديئة بالضرورة . فهناك بين المترجمين عن لغات وسيطة من يترجم بأمانة وإتقان ورصانة ، مما يخفف من حجم الخسارة الأسلوبية والجمالية التي يتعرض لها العمل الأدبي . نذكر من هؤلاء الشاعر والكاتب المسرحي السوري ممدوح عدوان ، الذي عرّب عن الانكليزية عدة أعمال للأديب الألماني (هرمان هيسه) فجاءت الترجمة العربية أقرب إلى التكافؤ الأسلوبي والجمالي مع العمل الأصلي من بعض الترجمات التي أنجزت عن الألمانية مباشرة [٢٦] . ولكن هناك من ناحية أخرى مترجمون لاتتمثل مشكلتهم في أنهم ينقلون عن لغة وسيطة فقط ، بل تتمثل أيضاً في أنهم يلجؤون إلى " سلق " العمل الأدبي ، أمّا لنقص في كفاءتهم كمترجمين ، أو سعياً وراء " غزارة الإنتاج " ، والنتيجة واحدة في الحالتين ، ألا هي تشويه العمل الأدبي الأجنبي أسلوبياً ودلالياً . نذكر من هذه الترجمات المشوهة بشدة جمالياً ودلالياً رواية " الملاك الأزرق"، التي عربها عن الإنكليزية خيرات البيضاوي ، ملحقاً بها أشد أنواع التشويه النصي والأسلوبي والدلالي ، وروايتي " المحاكمة " و " أمريكا " لكافكا ، اللتين عربتا أيضاً عن الانكليزية بصورة لاتحسدان عليها.[٢٧] أمّا التشويه الأسلوبي والجمالي الذي لحق برائعة (غوته) الشهيرة " فاوست " على يد المترجم سهيل أيوب ، فتحتاج دراسته إلى بحث مستقل . [٢٨]

لئن كانت الخسارة الجمالية التي تلحق بالعمل الأدبي عند تعريبه عن لغة وسيطة كبيرة في بعض الحالات ، وإن كانت درجتها تختلف باختلاف كفاءة المترجم وأخلاقه وموهبته ، فإنّ العواقب السلبية لترجمة مؤلف فكري أو علمي ألماني عن لغة وسيطة لا تكون على نفس الدرجة من الحدة ، وذلك لأنّ الجانب الأبرز لمؤلف كهذا هو الجانب المضموني .[٢٩] ولكنّ ذلك لايعني البتّة أنّ عواقب كهذه غير واردة في هذه الحالة أيضاً ، بحيث يمكن القول إنه لافرق بين نقل المؤلف الفكري والعلمي عن لغته الأصلية أو عن لغة وسيطة . فالمؤلفات الفكرية

والعلمية التي تُعرب عن لغتها الأصلية مباشرة تكون أقلّ تعرضاً للتشويه المضموني من تلك التي تترجَم عن لغة وسيطة . كما لا يجوز أن يغيب عن الذهن أنّ للأعمال الفكرية والعلمية أيضاً جوانب أسلوبية ، تختلف أهميتها من عمل لآخر ومن مؤلف لآخر . ومن أبرز الأمثلة على ذلك مؤلفات عالم النفس (سيغموند فرويد) ، التي تمثل ، على الرغم من مضمونها العلمي المنهجي ، نثراً علمياً على درجة من الجمال مما حدا ببعض المعنيين بجمال النصوص العلمية إلى إحداث " جائزة سيغموند فرويد للنثر العلمي " . أن هذه الجوانب الأسلوبية التي تتحلى بها المؤلفات العلمية والفكرية قد تتعرض للضياع إذا ترجمت تلك المؤلفات عن لغات وسيطة . ولكن في هذه الحالة أيضاً يلاحظ وجود ترجمات جيدة وأخرى رديئة . فهناك بين الذين يترجمون أعمالاً فكرية أو علمية عن لغات وسيطة من يشوه تلك الأعمال مضمونياً وشكلياً ، ومنهم من يتصرف بأمانة وشعور بالمسؤولية حيال الأثر الذي يقوم بترجمته ، سواء قام بالترجمة عن اللغة الأصلية أو عن لغة وسيطة . نذكر من هؤلاء المترجمين على سبيل المثال الدكتور فؤاد زكريا ، الذي عرب كتاب مؤرخ الفن الألماني الكبير (آرنولد هاوزر) : " الفن والمجتمع عبر التاريخ " عن الانكليزية برصانة ودقة تثيران الإعجاب (٣٠) . كما نذكر ترجمة بعض مؤلفات عالم الفيزياء الألماني (فيرنر هايزنبرغ) ، التي أنجزها الدكتور أدهم السمّان عن الفرنسية برصانة وأناقة تستحقان التقدير (٣١) . ولكنّ ترجمات جيّدة كهذه قليلة ، لسوء الحظ ، أمّا القسم الأعظم من الترجمات الأدبية والفكرية والعلمية التي أُنجزت عن لغات وسيطة فهو من النوع التجاري الرديء (٣٢) . نقول ذلك من باب الاعتراف بحقيقة مرّة ، لا رغبة في الإساءة إلى أحد . فمن واجبنا أنّ ننحني إكباراً لكلّ من ينجز ترجمة أدبية أو علمية جيدة ، سواء تمت هذه الترجمة عن اللغة الأصلية أم عن لغة وسيطة ، لأننا نعتبر ترجمة كهذه إغناء للثقافة العربية . أمّا الترجمات الرديئة والتجارية فهي لاتسيء إلى الثقافة المرسلة ، أيّ إلى الثقافة الألمانية في هذه الحالة ، بقدر

ما تسيء إلى الثقافة المستقبلة ، أي الثقافة العربية ، التي تحولت تلك الترجمات إلى جزء منها . وعندما نقرر حقيقة موضوعية ، هي أنّ قسماً كبيراً من الترجمات التي تمت عن لغات وسيطة هي ترجمات مشوهة لا يوثق بها ولا يجوز الاعتماد عليها ، فإننا لا نفعل ذلك من باب إطلاق أحكام إجمالية وتعسفية . فقد بينا في كتاب " الرواية الألمانية ــ دراسة استقبالية مقارنة " وفي دراسات ترجمية أخرى ، أين يكمن التشويه في تلك الترجمات . (٣٣)

علامَ تدلّ ظاهرة تعريب هذا العدد الكبير نسبيا من الأعمال والمؤلفات الأدبية والفكرية الأدبية والفكرية والعلمية الألمانية عن لغات وسيطة ؟ إنّ أول ما تدل عليه هذه الظاهرة ، في رأينا ، هو وجود حاجة ثقافية عربية ملحّة إلى تلك الأعمال والمؤلفات ، وهي حاجة لم تتمكن حركة الترجمة الألمانية ـ العربية من تلبيتها ، مما حمل دور النشر والمترجمين على نقل الأعمال المطلوبة عن لغات وسيطة ، وهذا أمر مشروع ، أملته الحاجة والضرورة ، ولااعتراض عليه من حيث المبدأ . فحيث يوجد " طلب " على " بضاعة " ثقافية يكون من الطبيعي أن تتم تلبية ذلك " الطلب ".(٣٤) ولكنّ عجز حركة التعريب عن الألمانية عن تلبية تلك الحاجة الثقافية العربية هو أمر يحتاج بدوره إلى تفسير . ومن حقنا أن نتساءل : لماذا قلة الترجمات عن الألمانية ، مادامت الحاجة إلى تلك الترجمات كبيرة ؟ ألقلة الذين يملكون القدرة على الترجمة عن الألمانية ؟ كلا ، فهناك في معظم الأقطار العربية أشخاص درسوا في الجامعات الألمانية ، وهم يجيدون لغتي المصدر والهدف ، ويستطيعون أن يزاولوا الترجمة . وهناك في جامعات بعض الأقطار العربية ، وفي مصر بالتحديد ، أقسام للغة الألمانية وآدابها منذ أكثر من أربعة عقود (٣٥)، ناهيك عن وجود عشرات الأشخاص الذين درسوا اللغة الألمانية وآدابها في الجامعات الألمانية ، وحصل بعضهم على درجة الدكتوراه . (٣٦) ترى لماذا لم تنعكس تلك المعطيات بصورة إيجابية على حركة الترجمة من الألمانية إلى العربية بالدرجة المطلوبة ؟ لماذا لم يظهر من بين هذا

العدد الكبير من خريجي الجامعات الألمانية ومن المتخصصين في اللغة الألمانية وآدابها عدد كافٍ من المترجمين ؟ للوهلة الأولى يبدو هذا السؤال محيّراً ، ولكنّ من يتتبع مصائر بعض هؤلاء الخريجين يتوصل سريعاً إلى الإجابة . فظروف عمل هؤلاء الخريجين وضآلة المردود المادي للترجمة واعتداء دور النشر العربية على حقوق المترجم ، هي العوامل الرئيسة التي أشاعت الإحباط في نفوس القادرين على الترجمة ، وأدّت إلى إصابة حركة الترجمة من الألمانية إلى العربية بالشلل .(٣٧) ولكن قبل هذا وبعده هناك حقيقة موضوعية لا مراء فيها ألا وهي أنّ في العالم العربي نقصاً شديداً في المترجمين الذين ينقلون عن الألمانية ، علميين كانوا أم أدبيين ، تحريريين أم شفهيين ،(٣٨) وهذا جانب من جوانب حاجة العالم العربي إلى اللغة الألمانية .

٥ـ المترتبات :

ما هي النتائج التي يمكن استخلاصها من هذا العرض السريع للغة الألمانية على ضوء حاجة المجتمع العربي إليها في ميادين التجارة والسياحة والدبلوماسية والإعلام والعلم والثقافة ؟ إنّ أهم تلك النتائج هو ، في رأينا ، ما يلي :

١ـ هناك في العالم العربي حاجة متزايدة إلى اللغة الألمانية في مختلف المجالات ، وهي حاجة ليس بوسع تعليم اللغة الألمانية في شكله القائم حالياً أنّ يلبيها . فهذا التعليم لايتناسب مع الحاجة الاجتماعية والثقافية العربية إلى الألمانية ، ولا مع المكانة الاقليمية والدولية لهذه اللغة. إنّ تلبية تلك الحاجة لا تكون إلا بتطوير تعليم اللغة الألمانية في المدارس الثانوية وفي الجامعات العربية ، لتصبح قادرة على إنّ تمدّ المجتمع العربي بما يحتاج إليه من كوادر مؤهلة لغوياً وثقافياً . أمّا اللغة الوسيطة فلا تحل مشكلات التواصل الاجتماعي والثقافي بين المجتمعين العربي والألماني بصورة ناجعة ، ناهيك عمّا تنطوي عليه استراتيجياً من خطر

الإمبريالية الثقافية . فالاكتفاء بالتواصل عبر لغة تداول عالمية كالإنكليزية يضرّ على المدى البعيد بالتعددية اللغوية والثقافية في العالم ، ويؤدي إلى هيمنة الثقافة الانجلو ـ أمريكية ، وهي مسألة لكثير من الناس في هذا العالم تحفظات جوهرية عليها (٣٩)

٢ـ من الضروري إصلاح دراسة اللغة الألمانية وآدابها في الجامعات العربية لتكون أكثر التصاقاً بالحاجات الاجتماعية والثقافية العربية ، لا أن تكون مجرد صورة مشوهة عن مثيلتها في ألمانيا . وهذا لا يكون إلا بإعادة النظر في الأهداف التعليمية والبنية التنظيمية لتلك الدراسة . فأقسام اللغة الألمانية وآدابها لا يجوز لها أن تكتفي بتخريج أشخاص يجيدون الألمانية ويلمون بالأدب الألماني فحسب ، بل ينبغي عليها أن تخرّج الكوادر المؤهلة التي يحتاج اليها المجتمع العربي ، وفي المقدمة منها نوعان من الكوادر هما : آ- المترجمون في مجال اللغتين العربية والألمانية بكل فئاتهم : من علميين وأدبيين وتحريريين وشفهيين .

ب- الباحثون والمختصون في الشؤون الألمانية ، الذين يمدّون المجتمع العربي بالأبحاث والدراسات والاستشارات التي تعين الدول العربية في علاقاتها الاقتصادية والسياسية والعلمية والثقافية والإعلامية مع الأقطار الناطقة بالألمانية . أمّا الشكل الأمثل للمؤسسات التعليمية ، الذي يمكن أنّ يحقق تلك الأهداف ، فهي أقسام أو معاهد اللغة والدراسات الألمانية في الجامعات العربية ، التي ينبغي أن تناط بها مهمتان رئيستان هما : آ - تعليم اللغة الألمانية للطلاب والموفدين وللفئات الأخرى التي ترغب في تعلّم هذه اللغة ب - دراسة المجتمع والثقافة الألمانيتين على مختلف الصعد الاقتصادية والسياسية والتاريخية والحقوقية والفكرية والعلمية ، لا على صعيد اللغة والأدب فحسب ، مع إعطاء الأولوية للجوانب التي تهمّ العرب أكثر من سواها ، كالعلاقات العربية ـ الألمانية . أمّا حصر الدراسة في اللغة والأدب الألمانيين فهو يقلل من الفائدة التي يعود بها وجود أقسام اللغة الألمانية وآدابها على المجتمع العربي ، فهذا المجتمع لايحتاج إلى متخصصين في

اللغة والأدب فحسب ، بل وإلى متخصصين في مختلف الشؤون الألمانية. وغني عن الشرح أنّ مهمة تلك الأقسام لا تقتصر على التدريس والتأهيل ، بل ينبغي أن تشمل البحث العلمي في الشؤون الألمانية . فالمكتبة العربية فقيرة جداً بالدراسات الألمانية ، ومن غير الجامعات يمكن أن يمدها بتلك الدراسات ؟

وبعد : فإنّ استمرار الوضع السائد على صعيد تعليم اللغة الألمانية وآدابها في العالم العربي لايخدم مصالح المجتمع العربي في شيء ، بل يلحق ضرراً كبيراً بتلك المصالح وقد حان الوقت لإعادة النظر في ذلك الوضع على ضوء حاجات هذا المجتمع ومصالحه . وهذا القول لاينطبق على تعليم الألمانية فحسب ، بل على مجمل تعليم اللغات والآداب الأجنبية في العالم العربي . فقد حان الوقت لوضع استراتيجية جديدة لهذا التعليم ، استراتيجية تنطلق من متطلبات التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للوطن العربي ، ليتحول تعليم اللغات والآداب الأجنبية إلى وسيلة من وسائل التنمية والازدهار الحضاري ، بدلا من أن يكون مجرد بوابة من بوابات التغريب والتغلغل الثقافي الأجنبي .

■

الهوامش :

(١) من المعروف أنّ محاولات التغلب على الحواجز اللغوية من خلال إحلال لغة اصطناعية عالمية مثل "الاسبيرانتو" قد باءت بالفشل، واستقر الرأي في المنظمات والهيئات الدولية كمنظمة الأمم المتحدة والجماعة الأوروبية على ترتيبات لغوية ، تعتبر بموجبها لغات معينة لغات رسمية أو لغات عمل . ففي منظمة الأمم المتحدة مثلاً هناك لغتان رسميتان هما : الانكليزية والفرنسية ، إضافة إلى ثلاث لغات عمل هي: الإسبانية والروسية والصينية . أمّا في المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (يونسكو) ، وهي أبرز المنظمات الفرعية لهيئة الأمم المتحدة ، فهناك إضافة إلى اللغتين الرسميتين ، الانكليزية والفرنسية ، ثلاث لغات عمل هي : الإسبانية والروسية والعربية . وتبذل الأقطار الناطقة الألمانية جهوداً كبيرة لتصبح الألمانية لغة عمل إضافية ، ولكنّ هذه الجهود لم تكلل بالنجاح إلى اليوم .

راجع بهذا الخصوص

W. Koller : 1983 , S. 21 ff

(٢) لهذه السياسات اللغوية جذور تاريخية وخلفيات سياسية معروفة ، وذلك على الرغم من كل محاولات تزيينها بالشعارات والعبارات الوطنية . فهي تعكس بالتأكيد مصالح سياسية خارجية لدول أجنبية تتمتع في العالم العربي بنفوذ سياسي واقتصادي وثقافي كبير ، ولا تعكس بأية حال حاجات ثقافية عربية . وأبلغ دليل على ذلك ما يجري في بعض الأقطار العربية من فرض للغة أجنبية معينة على التلاميذ ، خلافاً لرغباتهم ورغبات أوليائهم بخصوص سياسة تعليم اللغات الأجنبية في العالم العربي راجع بحثنا : (١٩٨٧)

(٣) راجع بهذا الخصوص

D. Sturm (Hg.) : 1987 , S. 243 ff

وفيما يتعلق بتعليم الألمانية في الجزائر راجع

: K. Elkorso : 1991

(٤) توجد أقسام للغة الألمانية وآدابها في عدة جامعات مصرية ، ولهذه الأقسام تاريخ عريق إلى حدّ ما ، وقد أنجبت عدداً من المختصين المعروفين . كماتصدر عن قسم اللغة الألمانية وآدابها بجامعة عين شمس مجلة متخصصة في اللغة الألمانية وآدابها بعنوان (Kairoer germanistische Studien) : وهي المجلة العربية الوحيدة في هذا المضمار . حول تدريس اللغة الألمانية وآدابها في مصر راجع : ك . رضوان (١٩٨٣) .

(٥) حول واقع وآفاق تدريس اللغة الألمانية في الجامعات السورية راجع بحثنا (١٩٩٢) .

(٦) بالنسبة للغة الألمانية بالذات فقد جرت في أواسط الستينيات محاولة لإدخال هذه اللغة إلى التعليم الإعدادي والثانوي ، وأوفدت وزارة التربية السورية حوالي عشرين طالباً إلى الألمانيتين لدراسة اللغة الألمانية وآدابها بهدف أن يصبحوا مدرسين للغة الألمانية . ولكنّ الوزارة المذكورة مالبثت أن تراجعت عن خططها المتعلقة بهذه المسألة ، وألغت شعب الألمانية من المدارس . أمّا خريجو الأدب الألماني ، الذين تم تأهيلهم كمدرسين ، وأنفقت الدولة السورية مبالغ طائلة على إيفادهم ، فقد أحيلوا إلى وظائف إدارية لا علاقة لها باختصاصهم . وهكذا أحبطت محاولة جادة لادخال التعددية إلى تعليم اللغات الأجنبية في سوريا ، وكُرست الثنائية القائمة . وما يقال عن تعليم الألمانية في هذا القطر ينطبق إلى حد بعيد على تعليم الروسية ، التي لم تنل بعد المكان اللائق بها في خريطة تعليم اللغات والآداب الأجنبية ، وذلك بالرغم من العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية المتطورة ، التي كانت قائمة بين سوريا والاتحاد السوفياتي سابقاً ، وهي علاقات بلغت درجة التحالف الاستراتيجي . وجلّ ما تم التوصل إليه على صعيد تدريس اللغة الروسية هو إحداث "مركز استشاري" لتدريس هذه اللغة في جامعة دمشق.

(٧) افتتح المركز الثقافي لجمهورية ألمانيا الديمقراطية بدمشق عام ١٩٦٨ في أعقاب إقامة علاقات دبلوماسية بين معظم الدول العربية وج . أ . د . على أثر تكشف فضيحة التعويضات المالية الضخمة التي قدمتها ألمانيا الاتحادية "لاسرائيل" وإقامة علاقات دبلوماسية بين هاتين الدولتين عام ١٩٦٥ . أمّا

المركز الثقافي لجمهورية ألمانيا الاتحادية (معهد غوته) ، الذي افتتح في دمشق في أواخر الخمسينيات ، فقد أغلق في خضم الأزمة الحادة التي شهدتها العلاقات العربية ـ الألمانية الغربية في منتصف الستينيات ، بعد أن أقامت حكومة جمهورية ألمانيا الاتحادية علاقات دبلوماسية مع "إسرائيل" ، مما أدّى إلى اعتراف معظم الدول العربية بجمهورية ألمانيا الديمقراطية وإلى إقامة علاقات دبلوماسية معها . وقد أعيد فتح (معهد غوته) بدمشق في عام ١٩٧٩ بعد أن تطبعت العلاقات السورية ـ الألمانية الغربية . وبعد أن حلّت جمهورية ألمانية الديمقراطية نفسها كدولة والتحقت بجمهورية ألمانيا الاتحادية عام ١٩٩٠ حُلّ المركز الثقافي لجمهورية ألمانيا الديمقراطية بدمشق ، وبقي مركز ثقافي ألماني واحد هو (معهد غوته) الذي يشارك في دورات اللغة الألمانية التي يقيمها حوالي ٦٠٠ طالب سوري في العام . وقد استقطب هذا المعهد الراغبين في تعلم اللغة الألمانية من السوريين ، مما أفقد معاهد اللغات السورية القدرة على المنافسة. إلا أنّ وجود المعهد المذكور قد شجّع مزيداً من السوريين ، ومن طلاب الأدبين الانكليزي والفرنسي في جامعة دمشق بصفة خاصة ، على تعلّم اللغة الألمانية.

(٨) في عام ١٩٨٦ تقدّم ثلاثة من مدرسي اللغة الألمانية بمذكرة إلى رئاسة جامعة دمشق يطالبون فيها بإحداث قسم كهذا ، معللين طلبهم بارتفاع عدد طلاب الألمانية كلغة أوروبية ثانية ، وبالأهمية الكبيرة التي تتمتع بها هذه اللغة .

(٩) لمزيد من المعلومات راجع بحثنا A.Abbuod : 1992

(١٠) ينطبق ذلك على أقطار المغرب العربي ومصر والأردن وسوريا .

(١١) لهذا السبب تدرّس الألمانية في المعاهد الفندقية المغربية . راجع بهذا الصدد. A. Faouzi : 1986 :

(١٢) أنّ كلّ أمّة لا تفعل ذلك تتخلف عن ركب الحضارة العالمي ، حتى وإن أوهمت نفسها أنها تقف في طليعة ذلك الركب . ولعل أبسط أشكال استيعاب البحوث الدولية هو نشر مراجعات وعروض وملخصات لأهم

الإصدارات والمنشورات العلمية الأجنبيـة . ولسوء الحظ فإننا لا نعرف دولة عربية واحدة تفعل ذلك بالشكل المطلوب ، بل يلاحظ أننا في العالم العربي لم نقتنع بعد حتى بضرورة إصدار كشّاف بالبحوث العلمية الدولية ، وذلك هو أقل ما يمكن أن نفعله على هذا الصعيد.

(١٣) يبث بعض الإذاعات العربية برامج باللغة الألمانية على الموجة القصيرة ، ولكن هذه البرامج ضئيلة المردود ، وذلك لرداءة مادتها الإعلامية ، وضعف البث من الناحية التقنية .

(١٤) لم تبث السفارات العربية الموجودة في الأقطار الناطقة بالألمانية أية مهارة في مخاطبة الرأي العام الألماني بقطاعاته المختلفة ، وذلك لأسباب كثيرة ، أبرزها في رأينا عدم تمتع العاملين في تلك السفارات ، وبصورة خاصة الملحقين الثقافيين والصحفيين منهم ، بتأهيل لغوي وثقافي كاف ، وعدم استعانة تلك السفارات بمختصين في الشؤون الألمانية . بالمقابل نجد أنّ سفارات "اسرائيل" في الأقطار الناطقة بالألمانية تبذل جهوداً ضخمة جدا ومدروسة من أجل كسب الرأي العام في تلك البلدان ، وتستغل كل المناسبات لمخاطبته والتأثير فيه بشتى الوسائل . وقد جنت "اسرائيل" ثمار ذلك النشاط الإعلامي في صورة معونات اقتصادية وعسكرية وتأييد سياسي ودبلوماسي .

حول صورة العرب في الرأي العام الألماني راجع : سامي مسلم (١٩٨٥)

(١٥) ساهمت الحملات الإعلامية الصهيونية بشكل فعّال في حمل حكومة ألمانيا الغربية على الاعتراف الدبلوماسي "اسرائيل"، وتقديم ما يزيد على خمسين مليار دولار لـ "اسرائيل" كتعويضات عن ضحايا النازية من اليهود . وبعد انتهاء الحكومة الألمانية الغربية من تسديد تلك التعويضات أخذت تقدّم "لإسرائيل" مساعدات اقتصادية وعسكرية هامة ، وهذا ما لم يكن ممكناً لولا النشاطات الاعلامية الهائلة التي تمارسها الأوساط الصهيونية في الساحة الألمانية ، ولو لا عجز الجهات والأطراف العربية وفشلها في مواجهة تلك النشاطات .

حول العلاقات العربية الألمانية راجع : K. Kaiser / U.Steinbach (Hg.) : 1981 ; M. Abediseid : 1985

(١٦) لعبت الترجمة في كل العصور دوراً ثقافيـاً تجديدياً ، وذلـك لأنهـا تؤدّي إلى انفتـاح الثقافـة القوميـة على الثقافـات الأخـرى والتـأثر بهـا بصـورة خلاقة، مما يؤدي إلى تجديد تلك الثقافـة القوميـة . وخـير دليـل علـى ذلـك هـو ظهـور الأجنـاس الجديـدة في الأدب العربي الحديـث ، مـن مسـرحية وروايـة وأقصوصة وقصة وشعر حرّ الأوزان ، بعـد انفتـاح الثقافـة العربيـة على الثقافـة الأوروبية منذ عصر النهضة . ومن المؤكد أنّ تلك العملية التجديدية الكبـيرة مـا كانت لتتـم لـو لا الترجمـة . راجـع بهـذا الخصـوص : أنيـس الخـوري المقدسـي (١٩٨٢) ، وكذلك ش . الخوري (١٩٨٨).

(١٧) نظرا لأهمية هـذه المدرسـة الفلسـفية فقـد أخـذ المثقفـون العـرب يهتمـون بهـا ، ويـترجمون مؤلفـات أعلامهـا (تيـودور أدورنـو ، ومـاكس هوركهايمر ...) ، ولكن عبر لغات وسيطة كالفرنسـية والانكليزيـة والروسـية . راجع بهذا الصدد : علاء طـاهر (١٩٨٧) ؛ عبـد الغفـار مكـاوي (١٩٩٢ ـ ١٩٩٣).

(١٨) من هذه المؤلفات مثـلاً كتابـات عـالم الفيزيـاء الألمـاني الشـهير فيرنر هايزنبرغ ، التي عُرّب بعضها عـن الفرنسـية لعـدم توافـر مـن يترجمهـا عـن الألمانية . أمّا المترجم الذي تصدى لتلـك المهمـة فهـو الدكتـور أدهـم السـمان ، الـذي ترجـم كتـابي : "فيزيـاء وفلسـفة "(دمشـق ١٩٨٥) ، و "الطبيعـة في الفيزياء المعاصرة "(دمشق ١٩٨٦)

(١٩) راجـع مصطفـى مـاهر وفولفغـانغ أولـه (١٩٧٩) ، يقـدّم هـذا المؤلف الببيليوغـرافي مسـاعدة قيمـة للبـاحثين في العلاقـات الثقافيـة بـين العـرب والألمان ، إلا أنه بعد مرور خمس عشرة سنة على صدوره بحاجة إلى إعـادة نظر جذرية .

(٢٠) راجع بهذا الخصوص : فريدريـك نيتشـه (١٩٧٩) و (١٩٨١) و(١٩٨٣).

(٢١) تتألف المكتبة الهيجلية هذه من بعـض أعمـال هيجـل المترجمـة إلى العربية ، إضافة إلى دراسات حول هيجل وفلسفته.

(٢٢) تركزت جهود طرابيشي الترجمية على علم الجمال (الاستاطيقا) الهيجلية .

(٢٣) راجع : هيجل (١٩٨١).

(٢٤) راجع سيغموند فرويد ، (١٩٦٩) تفسير الأحلام ، ترجمة مصطفى صفوان ، مراجعة مصطفى زيور القاهرة ، ط٢ ، (١٩٨٣) الطوطم والطابو ، ترجمة بوعلي ياسين ، اللاذقية .

وبالمناسبة فإنّ ترجمة " تفسير الأحلام "هذه ، وهي ترجمة علمية رصينة بكل المقاييس ، لم تمنع جورج طرابيشي من أن يعرب المؤلف نفسه عن الفرنسية (١٩٨٠).

حول الترجمات العربية لمؤلفات فرويد راجع مقالنا : فرويد بين جورج طرابيشي وبوعلي ياسين ، " تشرين "، ٢٠ | ٥| ١٩٨٥.

(٢٥) راجع : عمانويل كانت (١٩٦٦).

(٢٦) ارجع إلى بحث "روايات هرمان هيسه وقصصه في ترجماتها العربية " ، في هذا الكتاب.

(٢٧) راجع نقدنا التفصيلي لتلك الترجمات في كتابنا : (١٩٩٣).

(٢٨) راجع : يوهان فولفغانغ غوته (١٩٨٠) ، لبالغ الأسف فإنّ الترجمة العربية التي أنجزها الدكتور عبد الرحمن بدوي عن الألمانية (١٩٨٩) تفوق الترجمات التي تمت عن لغات وسيطة سوءاً.

(٢٩) حول التمييز بين نصوص بارزة الشكل (أدبية) وأخرى " بارزة المضمون "(علمية) على ضوء أهميته بالنسبة للترجمة راجع

: K. Reiss : 1971 .

(٣٠) انظر أرنولد هاوزر (١٩٨١).

(٣١) ارجع إلى الهامش (١٨).

(٣٢) بيّن الباحث الدكتور بسام طيبي (١٩٨٦) مدى التشويه الذي ألحقته الترجمات التجارية الرديئة ببعض الأعمال الفكرية الألمانية .

(٣٤) أشار المقارن فيكتور جيرمونسكي إلى حقيقة أنّ الاستيراد الثقافي لايمكن أن يتم إلاّ إذا وُجد " طلب " من جانب الثقافة المستقبلة . راجع

: G. R. Kaisser (Hg.) : 1980.

(٣٥) أسس قسم الأدب الألماني في كلية "الألسن" بجامعة عين شمس عام ١٩٥٣ ، وتلا ذلك إنشاء قسمين للأدب الألماني في جامعتي القاهرة والأزهر.

راجع بهذا الخصوص : كمال رضوان (١٩٨٣) .

(٣٦) هنالك في سوريا وحدها قرابة (٣٠) من خريجي الأدب الألماني ، بينهم خمسة نالوا درجة الدكتوراه ، أمّا في مصر فإنّ العدد أكبر من ذلك بكثير. والجدير بالذكر أيضاً أنّ في جامعة القاهرة دراسة " دبلوم الترجمة " لحملة الليسانس في اللغة الألمانية . لذا فمن المستغرب حقاً ألاّ ينعكس ذلك بقوة على حركة الترجمة العلمية والأدبية ، وأن يظل التعريب عن لغات وسيطة طاغياً على تلك الحركة .

(٣٧) لمزيد من التفاصيل حول مشكلات المترجمين في العالم العربي راجع مقالنا : المترجمون العرب ، شؤون وشجون . (تشرين ٤|٥|١٩٨٧) . ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أنّ جمعيات المترجمين في العالم العربي تناضل منذ وقت طويل من أجل صياغة حقوق المترجمين ولكنها لم تتمكن إلى اليوم من تحقيق نتائج تستحق الذكر .

(٣٨) لم نتطرق في بحثنا هذا إلى مسألة النقص الذي نعاني منه على صعيد المترجمين الفوريين والشفهيين ، ذلك النقص الذي يظهر على أشده في المؤتمرات واللقاءات الألمانية - العربية ، ثقافية كانت أم اقتصادية أم سياسية ، إذ كثيراً ما تفشل تلك اللقاءات نتيجة لعدم توافر المترجم الكفء .

(٣٩) راجع بهذا الخصوص **H. Christ : 1991**

وقد عبر عن تلك التحفظات أيضاً بعض المفكرين الانتقاديين الأمريكيين، كالفيلسوف الشهير هربرت ماركوز في كتابه (الانسان ذو البعد الواحد) (١٩٧١) وعالم اللغة الشهير نعوم شومسكي في كتابه (ردع الديمقراطية) (١٩٩٢) .

أهـــــم المراجـــع والمصادر :

-١- باللغة العربية :

- جوته ، يوهان فولفغانغ : (١٩٨٠) : فاوست الترجمة الكاملة ، تـر . سهيل أيوب ، دمشق ، (الينابيع) .

-جيته ، يوهان فولفغانغ : (١٩٨٩) فاوست ١-٣ ، ترجمة وتقديم د. عبد الرحمن بدوي ، الكويت ، وزارة الاعلام ، (من المسرح العالمي ، (٢٣٢).

-الخـوري ، شحادة : (١٩٨٨) الترجمة قديماً وحديثاً ، تونس : دار المعارف .

-الخـوري ، المقدسي ، أنيس (١٩٨٢) : الاتجاهات الأدبية في العـالم العربي . بيروت : دار العلم للملايين .

-رضوان ، كمال (١٩٨٣) : اللغة الألمانية في مصر . ٢٥ عامـاً معهد غوته في القاهرة ، القاهرة ، ص ١٨ - ٢١.

-شومسكي ، ناعوم (١٩٩٣) : ردع الديمقراطية . تر . فاضل جتكر. قبرص : دار عيبال.

-طاهر ، علاء (١٩٨٦) : مدرسة فرانكفورت . بيروت : مركز الانماء القومي .

طيبي ، بسام (١٩٨٨) : حول حركة الترجمة الأعمال الفكرية - والأدبية من اللغات الأوروبيـة إلى العربية . في : شؤون عربيـة ، العام الأول ، . العدد ٧ ، ١٩٨١ ، ص ١١٦ - ١٢٩

-عبود ، عبده (١٩٨٨) : تعليم اللغات الأجنبية في العالم العربـي نظرة على الأبعاد الاجتماعية والحضارية . في : العربـي (الكويت) ، العدد ٣٥٢ ، ص ٢٦ - ٣٠ .

-عبود ، عبده (١٩٩٣) : الرواية الألمانية الحديثة ، دراسة استقبالية مقارنة . دمشق : منشورات وزارة الثقافة .
-فرويد ، سيغموند (١٩٦٩) : تفسير الأحلام . ترجمة مصطفى صفوان، مراجعة مصطفى زيور . القاهرة : دار المعارف ، ط٢.
-فرويد ، سيغموند (١٩٨٣) : الطوطم والطابو ، ترجمة وتقديم بوعلي ياسين ، اللاذقية : دار الحوار.
-كانت ، عمانوئيل (١٩٦٦) : نقد العقل المجرّد . تر . أحمد الشيباني ، بيروت : دار اليقظة العربية .
-كانت ، عمانوئيل (١٩٦٦) : نقد العقل العملي . تر. أحمد الشيباني، بيروت ، دار اليقظة العربية .
-كنط ، عمانوئيل (١٩٨٨) : نقد العقل المحض . تر . د. موسى وهبة، بيروت : مركز الانماء القومي .
-ماركوز ، هبرت (١٩٧١) : الانسان ذو البعد الواحد . تر . جورج طرابيشي ، دار الآداب ط٢ .
-ماهر ، مصطفى | أوله ، فولفغانغ (١٩٧٩) : سلسلة بيبليوغرافية . بون .
-مكاوي ، عبد الغفار (١٩٩٢) : النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت . جامعة الكويت ، حوليات كلية الآداب .
-نيتشه ، فريدريك (١٩٧٩) : هكذا تكلم زرادشت . تر . فيليكس فارس . بيروت : دار القلم .
-نيتشه ، فريدريك (١٩٨١) : الفلسفة في العصر المأساوي الاغرقي . تر . د. سهيل القش . بيروت ، المؤسسة الجامعية .
-نيتشه ، فريدريك (١٩٨٣) : أصل الأخلاق وفصلها . تر . حسن قبيسي . بيروت المؤسسة الجامعية ، ط٢ .
-هيغل (١٩٨١) : علم ظهور العقل . تر . مصطفى صفوان ، بيروت : دار الطليعة.
-هاوزر ، آرنولد (١٩٨١) : الفن والمجتمع عبر التاريخ . ت . فؤاد زكريا ، حزيران ، بيروت ط٢ .

■

٢ ـ باللغة الألمانية :

- Abbuod , (1992) : Der Daf - Unterricht an den Universitaten Syriens . In : Info Daf Nr . 5,19 . Jg . , 594 - 604 .

Abediseid , Mohammad (1978) : Die deutsch - arabischen B eziehungen Probleme und Krisen . Stuttgart .

Christ,Herbert(1991): Fermdsprachenunterricht fur das Jahr 2000 . Tubingen .

Elkkorso , Kamal (1991) : Der Deutschunterricht in Algerien . In : Info Daf , Nr . 4, 18 . Jg., S. 393 - 398 .

Faouzi , Abedelmomen (1986) : Einige Aspekte des DaF - Unterrichts im westlichen Maghreb. In : Info DaF , Nr . 4, 13. Jg. , S. 319 - 325 .

Kaiser , Gerhard R. (Hg.) (1980) : Vergleichende Literaturforschung in sozialistischen Landern. Stuttgart.

Kaiser , Karl u. Udo Steinbach (Hg.) (1981) : Deutuch - arabische Beziehungen . Munchen - Wien .

Koller , Werner (1983) : Einfurhrung in die Ubersetzungswissenschaft. Heidelberg .

Reiss , Katharina (1971) : Moglichkeiten und Grenzen der Ubersetzungskritik . Munchen .

Sturm, Dieter (Hg.) : (1987) : Deutsch als Fremdspache weltweit .Situation und Tendenzen . Munchen .

***

٥ ـ الأدب الغربي مستقبلاً

٥ـ١ـ الرواية الألمانية في أحدث مراحل استقبالها عربياً

٥ـ٢ـ روايات هرمان هيسه وقصصه في ترجماتها العربية

٥ـ٣ـ أدب الأطفال المترجم في سوريا

٥ـ ٤ـ دور الترجمة في تطور النقد العربي الحديث

■

٥ـ ١ـ الرواية الألمانية في أحدث مراحل استقبالها عربيا

١ـ حدود الموضوع :

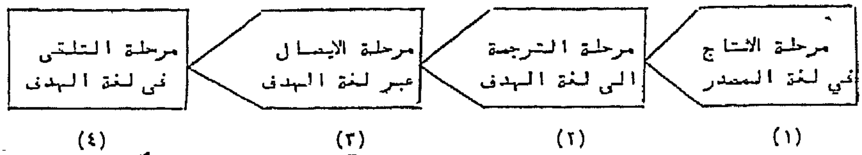
استقبال الرواية الألمانية الحديثة في الوطن العربي موضوع شاسع، لا يستطيع المرء أن يعالجه ويعرضه بصورة وافية من خلال بحث واحد محدود الحجم . فالأمر يتعلق بعدد كبير نسبياً من الأعمال الروائية التي استقبلت على امتداد فترة زمنية طويلة تكاد تبلغ قرناً بأكمله . ومعالجة وافية من هذا النوع تتطلب أيضا أن يوضع استقبال الرواية الألمانية الحديثة في سياقه التاريخي الأدبي ، ألا وهو تاريخ استقبال الأدب الألماني برمته في هذه المنطقة من العالم [١] ، وهذا ما لايتسع له المجال . فالاعتبارات العملية ، وعلى رأسها اقتصاديات المكان ، تفرض علينا أن نكتفي بتقديم عرض تاريخي تحليلي لما تم استقباله خلال الأعوام العشرة الأخيرة ، أي من أوائل الثمانينيات حتى أوائل التسعينيات ، من أعمال روائية ألمانية حديثة [٢] . وللاعتبارات ذاتها لن نقوم بعرض جوانب ذلك الاستقبال كلّها ، بل سنقصر حديثنا على جانب واحد من جوانبه ، وهو الجانب الترجمي ، تاركين الجوانب الأخرى من نقدية ـ تفسيرية وإبداعية ـ منتجة وقرائية لأبحاث أخرى .

٢ـ مفهوم (الاستقبال) :

من الملاحظ أنّ مفهوم " الاستقبال " قد ورد عدّة مرّات ونحن في أول البحث أو مقدمته ، مما يدل على أنّ لهذا المفهوم دوراً أساسياً ،

ويستدعي بالتالي أن نقوم بتحديده وتوضيحه تجنباً لأي التباس مصطلحي يمكن أن يؤدّي إلى سوء فهم . فمن المعروف أنّ (الاستقبال) أحد المفاهيم النقدية التي كثر استخدامها في النقد الأدبي والدراسات الأدبية خلال ربع القرن الأخير ، وقد استخدم بمعان مختلفة، كالاستقبال الإمبيري ، والاستقبال الجمالي ، وغير ذلك [٣] . ونحن نستخدم مفهوم الاستقبال في هذا البحث استخداماً نابعاً من خصوصية الموضوع الذي ندرسه ، ألا وهو استقبال أعمال تنتمي إلى أدب أجنبي، هو الأدب الألماني ، في بيئة اجتماعية ـ ثقافية ليست بيئته الأصلية ، هي البيئة العربية . فثمة فرق شاسع بين أن يستقبل العمل الأدبي ضمن بيئته الاجتماعية والثقافية الأصلية التي انجبته وعبّر عنها وتوجه إليها ، وبين أن يستقبَل ذلك العمل ضمن بيئة غريبة نائية ، لم يُكتب في الأصل بلغة أبنائها ، ولم يتوجه إلى متلقيها ، ولم يعبر عن واقعها الاجتماعي والحضاري . وعلى سبيل المثال فإنّ الفرق كبير بين استقبال مسرحية (فاوست) للأديب الألماني يوهان ف. غوته في ألمانيا من قبل المتلقين الألمان ، وبين استقبال تلك المسرحية في أقطار نائية كالصين واليابان والوطن العربي . والفرق بين هذين النوعين من الاستقبال متعدد الجوانب والأبعاد ، وهو يمس جوهر العملية الاستقبالية، أي فهم العمل الأدبي وتفسيره.[٤] ومن أهم أسباب ذلك الفرق ومصادره الحاجز اللغوي الذي يحول دون أن يتلقى المستقبل العربي في حالتنا ، العمل الأدبي الأجنبي (الألماني في هذه الحالة) ، بطريقة مباشرة ودونما وساطة . ولايجتاز العمل الأدبي الأجنبي ذلك الحاجز إلاّ من خلال الترجمة ، التي تنقله من لغته الأصلية ، لغته المصدر (الألمانية) ، إلى لغة جديدة هي لغة الهدف (العربية) . فالمتلقي العربي العادي غير قادر على استقبال مسرحية غوته الآنفة الذكر عن الألمانية مباشرة ، خصوصاً وأنّ اللغة الألمانية محدودة الانتشار في العالم العربي [٥] ، ولابد لتلك المسرحية من أن تعبر محطة استقبالية وسيطة هي الترجمة ، قبل أن يتمكن المتلقي العادي العربي من استقبالها . وبالفعل فقد عبرت مسرحية (فاوست) تلك المحطة عدة مرات ، وذلك من خلال الترجمات المختلفة التي قام بها كل من محمد عوض محمد ومحمود أبو طايلة وسهيل أيوب

وعبد الرحمن بدوي ، إمّا عن الألمانية أو عن لغة وسيطة (٦) . وعندما ندرس استقبال أعمال أدبية أجنبية ، كالرويات الألمانية الحديثة ، في العالم العربي ، يكون علينا أن ندرس ذلك الاستقبال من خلال دراسة الترجمات العربية لتلك الأعمال أولاً وقبل أيّ شيء آخر . ويمكن توضيح صيرورة العمل الأدبي الأجنبي الذي يستقبل في الوطن العربي بوساطة الشكل التالي :



بالنسبة للجدول سيتم تصويره ووضعه في مكانه تماماً

ولكنّ الفرق بين استقبال العمل الأدبي داخل بيئته الاجتماعية والثقافية الأصلية واستقباله في بيئة أجنبية لايقتصر على مسألة الترجمة وتبعاتها المعنوية والجمالية ، بل يتعدّى ذلك إلى الجانب النقدي / التفسيري . فالعمل الأدبي الأجنبي ينطوي على تلميحات وتضمينات وإشارات تاريخية وثقافية يجهلها المتلقون الجدد ، مما يجعله في بعض الحالات عصياً على الفهم . ولذلك فإنّ هؤلاء المتلقين يحتاجون إلى وسيط ثان يتدخل في العملية الاستقبالية شارحاً ومفسراً ، وهذا الوسيط هو الناقد المختص في الأدب الأجنبي الذي ينتمي إليه العمل الأدبي المترجم . صحيح أنّ متلقي الأعمال الأدبية القومية يحتاجون إلى الناقد الذي يرشدهم إلى الأعمال الجيّدة ويفسّرها لهم ، ولكن تلك الحاجة تختلف عن حاجة متلقي الأعمال الأدبية الأجنبية .(٧)

والعمل الأدبي الأجنبي الذي يُنقل من لغته الأصلية إلى لغة جديدة كالعربية لايُستقبَل من جانب متلقين عاديين يكتفون بالإستمتاع به جمالياً والتفاعل معه فكرياً فحسب ، بل يُستقبل أيضاً من جانب الكتاب والأدباء والمبدعين ، الذين لا يكتفون بالاستمتاع به جمالياً ، بل يتجاوزون ذلك إلى التأثر به إبداعياً أو إنتاجياً ، وعلى هذا الشكل يترك العمل الأدبي الأجنبي بصماته الفنية والفكرية على الانتاج الأدبي في

لغة الهدف ، أي على الأدب المستقبل . [8] فقد كان لاستقبال أدب كافكا من جانب الروائيين والقاصّين العرب تأثير كبير على تطور فن القصة في الأدب العربي الحديث . لقد كان ذلك التأثير عميقاً على إنتاج عدد كبير من القاصين والروائيين العرب ، حيث بات من الصعب علينا أن نفهم التطور الفني لأولئك الأدباء دون أن نأخذ المؤثرات الكافكاوية في الحسبان . [9] وما قلناه عن تأثر الأدب السردي العربي بكافكا ينطبق على تأثر الأدب المسرحي أو الدرامي العربي بالمسرحي الألماني برتولت بريخت ، الذي لايمكن دراسة تاريخ المسرح العربي الحديث بمعزل عن دراسة تأثيره العميق على المسرحيين العرب [10] إننا لانجافي الحقيقة في شيء إذا قلنا إنّ جانباً رئيساً من تاريخ الأدب العربي الحديث هو تأثر ذلك الأدب بالآداب الأجنبية وتفاعله معها من خلال الاستقبال الإبداعي المنتج . وعندما نتحدث عن الاستقبال في سياق حديثنا عن استقبال الرواية الألمانية الحديثة في العالم العربي فإننا نعني به كل هذه الأمور . إلا أننا ، وللاعتبارات العملية التي سبق لنا أنّ أشرنا إليها ، سنحصر بحثنا في دراسة الجانب الأول من جوانب استقبال الرواية الألمانية الحديثة ، ألا وهو الجانب الترجمي ، الذي يشكل بطبيعة الحال الجانب الأكثر أهمية . فعلى تعريب الأعمال الروائية الألمانية يتوقف توسيطها نقدياً والتأثر بها إبداعياً .

٣- أهمية الموضوع :

بعد أن وضحنا مفهوم الاستقبال الأدبي الذي نستخدمه وخصوصية ذلك المفهوم ومكوناته ، لابد بنا من أن نبين أهمية الموضوع الذي نتناوله بالدراسة في هذا البحث ، أي استقبال الرواية الألمانية الحديثة في العالم العربي ، وما إذا كان هذا الموضوع يُستحق أن يُدرّس ويستقصى . وفي رأينا فإنّ موضوع بحثنا ينطوي على أهمية ثقافية كبيرة . فالروايات الألمانية التي تنقل إلى العربية تتحول إلى جزء من الإنتاج الثقافي المكتوب بهذه اللغة . صحيح أنه إنتاج ذو أصل

أجنبي ، ولكنّ أصله لا يقلل من انتمائه إلى الثقافة العربية . فالأدب المترجم يُعتبر بصفة عامّة جزءاً من ثقافة لغة الهدف ، وليس جزءاً من ثقافة لغة المصدر ، التي انفصل عنها بمجرّد هجرته من لغته الأصلية إلى لغة جديدة . إنّ العمل الأدبي المترجَم يمثّل جزءاً من ثقافة لغة الهدف من ناحية الإنتاج والإيصال والاستقبال ، ولا يربطه بثقافة لغة المصدر إلاّ أصله . فعلى الصعيد الإنتاجي من المعروف أنّ الترجمة الأدبية ليست مجرّد عمليّة ميكانيكية ، يتمّ خلالها استبدال مفردة أجنبية بمفردة عربية ، أو تعبير أجنبي بتعبير عربي ، بل هي ولادة جديدة ، وإعادة خلق ، وإبداع ثان للعمل الأدبي في لغة الهدف . إنّها إعادة إنتاج العمل الأدبي بصورة بصورة خلاّقة مبدعة.(١١) ولذا فإنّ العمل الأدبي المترجم ينتمي من الناحية الإنتاجية / الإبداعية إلى أدب لغة الهدف ، أي إلى الأدب العربي ، لا إلى أدب لغة المصدر ، أي الأدب الألماني في الحالة اتي نحن بصددها . صحيح أنّه لم يزل يحمل اسم مؤلفه الأجنبي ، وأنّ له أصلاً أجنبياً يطالَب بأن يكون متكافئاً أو متطابقاً معه ، ولكنّ ذلك لا يغيّر شيئاً في حقيقة أنّ هذا العمل الأدبي قد قام بهجرة إبداعية ، وشهد ولادة جديدة في لغة جديدة . وعلى الصعيد الاستقبالي فإنّ العمل الأدبي المترجَم يُستقبَل من جانب المتلقين العرب الذين يتأثرون به ويتفاعلون معه جمالياً وفكرياً ، مما يمكّن ذلك العمل من المساهمة في تكوين آفاق هؤلاء المتلقين الجدد ، وفي تطوير وعيهم . وهو ينقل إلى المتلقين العرب معلومات وفيرة عن الواقع الاجتماعي والحضاري الألماني، ويعرفهم إلى ذلك الواقع الذي يجهلونه، أو يحملون في أذهانهم صورة مشوهة عنه . وتلك هي الوظيفة الإعلامية للترجمة الأدبية. ولهذا النوع من الاستقبال الأدبي ، وهي وظيفة بالغة الأهمية ، وبشكل خاصّ في حالة العرب والألمان ، هاتين الأمتين اللتين تنطوي صورهما المتبادلة على درجة عالية من التشويه.(١٢) وأخيراً وليس آخراً فإنّ استقبال الرواية الألمانية الحديثة في العالم العربي يحمل في طياته إمكانات التأثر الإبداعي المنتج من قبل الأدباء العرب ، ويمكن أن يكون له على

هذا الشكل دور في تجديد الأدب المستقبل وتطويره فنياً وفكرياً . وباختصار فإنّ موضوع هذا البحث يستمدُّ أهميته من أهمية الظاهرة الأدبية الأكبر التي ينتمي إليها ، ألا وهي استقبال الآداب الأجنبية في العالم العربي ، وما لذلك الاستقبال من أهمية في الثقافة العربية المعاصرة .

٤- أهم الترجمات الروائية :

بعد أن حددنا موضوعنا ، وبينا أهميته ، ووضحنا مفهوم الاستقبال الأدبي الذي نستخدمه ، صار بوسعنا أن نلج في صلب الموضوع . وأول ما ينبغي علينا القيام به هو أن نقدّم كشفاً بيبليوغرافياً بالأعمال الروائية الألمانية الحديثة التي تم نقلها إلى العربية إبان السنوات العشر الأخيرة . فكل تحليل لاستقبال الرواية الألمانية الحديثة عربياً لا بد من أن يستند إلى حصر بيبليوغرافي دقيق لتلك الأعمال . (١٣) ولكن إنجاز فهرس كهذا يصطدم بالعقبات والمصاعب الناجمة عن الحواجز والحدود القطرية العربية ، التي تحول دون تدفق المطبوعات والمعلومات بحرية وسرعة بين الأقطار العربية ، مما يجعل الباحث المقيم في أحد تلك الأقطار غير قادر على متابعة ما يصدر في الأقطار العربية الأخرى من ترجمات . ولذا فإنّ قائمة الروايات الألمانية المترجمة إلى العربية التي توصلنا إليها ليست كاملة بالضرورة ، ولا نستبعد وجود ترجمات روائية لم نتمكن من حصرها وتوثيقها للسبب الآنف الذكر . أما الأعمال الروائية التي تمكنا من توثيقها فهي الأعمال الواردة في فهرس المصادر والمراجع الملحق بهذا البحث .

٥- هرمان هيسه :

إذا ألقينا نظرة فاحصة على قائمة الأعمال الروائية الألمانية الحديثة التي ترجمت إلى العربية في السنوات العشر الأخيرة فإنّ أول ما

سيلفت انتباهنا هو أنّ روايات الكاتب الألماني هرمان هيسّه تحتل مكان الصدارة في حركة استقبال الرواية الألمانية الحديثة عربياً . فقد عُرّبت خلال الأعوام الأخيرة روايات : " سيد هارتا " و " نولب" و "دميان". وإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة أنّ ترجمات عربية لروايات " قصة شاب " و" لعبة الكريات الزجاجية " و" ذئب البوادي " قد صدرت في أواخر الستينات ومطلع السبعينات [١٤] ، أمكننا القول إنّ الروائي هرمان هيسه قد حظي في العالم العربي باستقبال ترجمي قلّ أن حظي به روائي ألماني آخر . ومما يسترعي الانتباه أيضاً أنّ ما ترجم إلى العربية خلال العقد الأخير من روايات هيسه لم يُنقل عن الألمانية مباشرة ، بل عن لغة وسيطة ، وأنّ روايتي " سيد هارتا " و "نولب " قد عُرّبتا مرّتين . كل ذلك يسوغ أن يخص المرء استقبال أدب هيسه الروائي في العالم العربي بوقفة نقدية تحليلية مطولة ، يعرض فيها ذلك الاستقبال بصورة وافية ، ويحلل الإشاكلية التي ينطوي عليها . [١٥]

٦- ستيفان زفايغ :

ومن الملاحظ أيضاً أنّ الثمانينيات قد شهدت استمرار الاهتمام العربي بأديبين ألمانيين آخرين هما ستيفان زفايغ وإريش ماريا ريمارك . ففيما يتعلق بزفايغ صدرت الترجمة العربية لروايته " رسالة من امرأة مجهولة " و " فوضى الشاعر " ، ولا بأس في هذا السياق من التذكير بأنه سبق أن صدرت ترجمات عربية لروايات زفايغ وقصصه التالية : " أربع وعشرون ساعة من حياة امرأة " و " قلوب تحترق " و " فيرانا وقصص أخرى " و " لاعب الشطرنج " ، وقد عرّب القصة الأخيرة عن الفرنسية الأديب العربي الكبير يحيى حقي . أضف إلى ذلك صدور ترجمات عربية لبعض مؤلفات زفايغ السيرية ، مثل : " بناة العالم " و " تولستوي " و " كازانوفا " [١٦]. إنّ صدور هذا العدد الكبير من الترجمات العربية لأعمال زفايغ الأدبية يدل على وجود اهتمام عربي بهذا الأديب وإقبال ملحوظ على استقبال أعماله .

٧- إريش - ماريا ريمارك :

أمّا فيما يتعلق بريمارك فقد شـهدت الثمانينيات استئناف تلقي أدبه الروائي في الوطن العربي وذلك من خلال تعريب روايتين أخريين هما : " ثلاثة رفاق " و " ليلة لشبونة " . وكان ذلك الاستقبال قد بلغ أوجه في الستينيات ، حينما صدرت ترجمات عربية لروايات : " للحب وقت وللموت وقت " ، و " بعد الحرب " ، و " السماء لاتحابي أحداً"، و " كل شيء هادئ في الميدان الغربي " (١٧) . ومن المعروف أن لريمارك موضوعاً أساسياً هو الحرب . فقد عايش هـذا الكـاتب بصورة شخصية مباشرة حربين عـالميتين انطلقتا مـن الأرض الألمانيـة ، وعرف ماتعنيه الحرب على الصعيد الإنساني ، فنذر لهذا الموضوع رواياته التي حظيت باستقبال عالمي واسع النطاق ، وفلمِن بعضها ، مما جعل من ريمارك علماً من أعلام الرواية العالمية المناهضة للحرب . ولا عجب في أن يهتم العرب بأدب ريمارك ، فهم أمة عـانت ويلات الحـروب بكافة أنواعها ، وكان أحدث تلك الحروب التي تمت على أرض عربية حرب الخليج المشؤومة . فتجربة الحرب ليست غريبة علـى الوعـي العربي ولا غائبة عنه . ولذا كان المجتمع العربي مستعداً لاستقبال هـذا النـوع من الأدب وللتفاعل معه ، مثلما تفاعل مع أدب الحـرب السـوفيتي المترجم إلى العربيـة . (١٨) وفيمـا يتعلـق بـأدب الحـرب ، أو بـالأصح بـالأدب المعادي للحرب ، فإنّ الأدب الألماني غني جداً ، ويستحق أن يُستوعب من قبـل الشـعوب الأخـرى ، لتتعـظ بتجربـة أمـة عـانت مـن الحـرب وويلاتها كما لم تعان أمة في القرن العشرين . ومن هـذه الزاوية فإن تعريب روايات إريش مارياريمارك يلبي حاجة ثقافية عربية حقيقية .

٨ - هاينريش بولّ :

ومن الأمور التي تسترعي الانتباه ورود روايتين للأديب الألماني هاينريش بولّ في قائمة الرويات الألمانية التي نقلـت حديثاً إلى العربية

هاتان الروايتان هما : " الشرف الضائع لكاتارينا بلوم " و " لم يقل كلمة " . وهاينريش بولّ روائي وقاصّ وكاتب مقالة ألماني معاصر يتمتع بشهرة عالمية ، ويعتبر من أبرز أعلام الأدب الألماني بعد الحرب العالمية الثانية . وقد نقلت أعماله الأدبية إلى العديد من اللغات الأجنبية، وحاز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٢ . ومع أنّ اسمه كان كثير الورود في الصحافة الثقافية العربية ، فإن شيئاً من إنتاجه الروائي لم يترجم إلى العربية قبل مطلع التسعينات ، وجل ما ترجم من أعماله حتى ذلك الحين كان بعض القصص القصيرة ، التي نشرت في الدوريات الثقافية وكتب المختارات القصصية ، ولم تجمع في كتاب . وفي عام ١٩٨٥ توفي هاينريش بولّ فعاد اسمه إلى الظهور في وسائل الإعلام العالمية والعربية ، ولكنّ الرأي العام العربي كان على نفس الدرجة من الجهل بأدب بولّ . وبتعريب رواية " الشرف الضائع لكاتارينابلوم " أخرجت المترجمة السورية نوال حنبلي استقبال هاينريش بولّ في العالم العربي من مأزقه ، وإن يكن بصورة جزئية . فقد أصبحت إحدى روايات بولّ في متناول القراء العرب . ولقد كان من الممكن أن تنقل المترجمة نوال حنبلي مزيداً من روايات هذا الأديب الألماني الكبير إلى العربية لو لم تكن تجربتها الأولى في هذا المجال تجربة محبطة من الناحيتين المادية والمعنوية . فالمكافأة التي تلقتها المترجمة من الناشر لقاء تعريب هذا العمل الأدبي الهامّ لا تستحق الذكر . وقد قبع المخطوط لدى ذلك الناشر عدة سنوات قبل أن يرى النور في طبعة لايزيد عدد نسخها على (٣٠٠٠) . وبعد أن صدرت هذه الرواية المترجمة لم يكلف أحد من النقاد نفسه عناء مراجعتها وتقديمها للقراء العرب . ولذلك فلا عجب في ألا تجد المترجمة في نفسها استعداداً لمواصلة هذه التجربة المؤلمة . وفي رأينا فإنّ تلك التجربة ذات طبيعة نمطية ، ويستطيع المرء من خلالها أن يضع يده على الأسباب التي تحمل كثيراً من مترجمينا الموهوبين على التوقف عن الترجمة واعتزال هذا الميدان الثقافي .[١٩] وفي عام ١٩٩٣

صدرت ترجمة عربية لرواية أخرى من روايات هاينريش بولّ ، هي رواية " ولم يقل كلمة "، التي نقلها إلى العربية عن لغة وسيطة الشاعر والمترجم العراقي طه ياسين حافظ . تنتمي هذه الرواية التي صدرت بالألمانية عام ١٩٥٣ إلى المرحلة المبكرة من إنتاج بولّ الروائي ، وهو يصور فيها الضائقة السكنية والمعيشية والشعور بالغربة والاقتلاع في ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية . ومن غير الصعب التكهن بالأسباب التي حملت المترجم العراقي طه ياسين حافظ على اختيار هذه الرواية تحديداً . فالشعب العراقي يعيش بعد الحرب الخليج أوضاعاً لا تختلف كثيراً عن الأوضاع التي عاش الألمان في ظلها بعد الحرب العالمية الثانية ، وهذا ما ألمح إليه المترجم في مقدمته ، و بنقل هذه الرواية إلى العربية سجّل استقبال أدب هاينريش بولّ في الوطن العربي بعض التقدم ، ولكن ذلك الاستقبال لم يرق إلى مستوى مناسب لمكانة بول في الأدب العالمي المعاصر ، ولحاجة المجتمع العربي ثقافياً إلى استقبال أعمال هذا الأديب . ولقد أظهرت الندوة العالمية التي انعقدت في كانون الثاني من عام ١٩٩٢ في مدينة كولونيا ، مسقط رأس هاينريش بولّ ، بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة هذا الأديب أنّ استقباله في العالم العربي متخلف عن استقباله في أكثر المناطق من هذا العالم (٢٠) .

٩- هاينريش مان :

ويلاحظ من يتفحص فهرس الأعمال الروائية الألمانية المترجمة إلى العربية ظهور بعض الأسماء الجديدة في ساحة الترجمة ، كالسيدة نوال حنبلي ، التي كانت تمارس الترجمة الصحفية لدى وزارة الإعلام السورية منذ وقت طويل ، وأنجيل عبود التي عربت " رسالة من امرأة مجهولة " ، وماري طوق التي ترجمت " المرأة العسراء " ، وسناء كرم التي عربت رواية تيودور فونتانة الهامة " إيفي بريست " . ومن المؤكد أنّ ظهور

هذه الاسماء الجديدة أمر يدعو إلى التفاؤل ، ولكن شريطة أن يتمكن هؤلاء المترجمون والمترجمات من الصمود أمام الإحباطات والمثبطات المادية المعنوية التي تعج بها حركة الترجمة الأدبية في العالم العربي . إلاّ أنّ أهم تطور شهده استقبال الرواية الألمانية في الوطن العربي على صعيد المترجمين هو ظهور المترجمة الأردنية الدكتورة ليلى نعيم ، التي قامت بتعريب ثلاث روايات ألمانية هامة ، هي : " ثلاث رفاق " و " ليلة لشبونة " لاريش ماريا ريمارك ، و " الخنوع " لهاينريش مان . إنّ هذه المترجمة متخصصة في الأدب الألماني الحديث ، وتملك كفاءة لغوية وثقافية عالية على صعيد لغتي المصدر والهدف وثقافتيهما ، وهي إضافة لذلك مترجمة واعية تعرف لماذا تترجم . فهي لاتختار ما تترجمه من أعمال روائية انطلاقاً من شهرة المؤلف أو من سعة انتشار العمل الأدبي في بلاده ، بل تنطلق من حاجة المجتمع العربي إلى استقبال الأعمال الأدبية الألمانية ، ومن صلاحية تلك الأعمال لتوضيح مشكلات ذلك المجتمع . وقد يتساءل المرء : كيف يمكن أن تساعد رواية ألمانية المتلقي العربي على فهم مشكلات مجتمعه ؟ فهذه الرواية قد كتبت للمتلقي الألماني ، وهي تعبر عن مشكلات المجتمع الألماني . وترد ليلى نعيم على تساؤل كهذا بأنّ الرواية الألمانية يمكن أن تقوم بهذا الدور إذا كانت الإشكالية الاجتماعية والنفسية والأخلاقية المطروحة في تلك الرواية مشابهة للإشكالية التي يعاني منها المجتمع العربي . وقد أوضحت المترجمة وجهة نظرها هذه في المقدمة التي صدّرت بها الترجمة العربية لرواية " الخنوع " ، حيث جاء في تلك المقدمة : " وجدت أنّ الخنوع يعيش داخلنا ... داخلي وداخل من أعرف ، وداخل أفراد الوطن العربي . ربما كان هذا هو السبب المباشر الذي استمر في الإلحاح علي لترجمته ... وجدت فيه واقع الإنسان العربي ونفسيته بكل حالته المرحلية من التأزم وعدم الثبات "[٢١] انّ ذلك يعني بعبارة أخرى أنّ المترجمة قد قرأت الواقع العربي المعاصر ومشكلاته الإجتماعية والنفسية والسياسية في رواية ألمانية كتبت قبيل الحرب العالمية الأولى ، فهل هذه القراءة مشروعة ؟ أولا تعتبر إسقاطاً لمشكلات المجتمع العربي المعاصر ،

وما يدور في هذا المجتمع من نقاش حول قضايا الديمقراطية والتحرر ، على عمل أدبي أجنبي ؟ لاجدال في أنّ قراءة ليلى نعيم لرواية " الخنوع " هي قراءة إسقاطية ، ولكنها قراءة مشروعة ، وهي لم تكن ممكنة لو لم يكن النص الأدبي نفسه مهيئاً وصالحاً لها . وهي في كل الأحوال قراءة مشروعة بحكم طبيعة التلقي الأدبي نفسه ، فهو يتم انطلاقاً من أفق المتلقي ، لامن أفق النص الأدبي وحده . [٢٢] ومن المؤكد أنّ الخنوع ظاهرة مشتركة بين العرب والألمان ، بل وبين شعوب كثيرة ، ولكن للخنوع الألماني خصوصيته التاريخية ، وخلفياته الاجتماعية والثقافية التي تختلف عن خلفيات الخنوع العربي . ولئن كان الخنوع الألماني قد زال نتيجة لقيام المجتمع المدني المتطور ، وسقوط الأنظمة السياسية الدكتاتورية الشمولية التي تكرسه وتعتمد عليه ، فإنّ الخنوع العربي لم يزل قائماً ، ولم يزل يشكل الأساس النفسي ـ الاجتماعي للأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية السائدة في العالم العربي . فالراهنية العربية لرواية هاينريش مانّ (الخنوع) هي اليوم أكبر مما كانت عليه في أيّ وقت مضى . ومهما يكن من أمر فإن ماكتبته المترجمة ليلى نعيم حول الأسباب التي دعتها لأن تعرّب هذه الرواية يصلح لأن يُتخذ مثالاً لتوضيح الخيارات المتاحة لأي مترجم عندما يجد نفسه أمام اختيار عمل أدبي أجنبي لتعريبه . فهو يجد نفسه أمام الخيارات الثلاثة التالية :

١ـ أن يختار العمل الأدبي انطلاقاً من مكانة ذلك العمل وأهميته في إطار الأدب الأجنبي ، كأن يقول : هذا عمل أدبي يعتبره مؤرخو الأدب الألماني ، على سبيل المثال ، أحد الأعمال الرئيسة لذلك الأدب، ولذا فمن الضروري أن يترجم إلى العربية .

٢ـ أن يختار العمل الأدبي الأجنبي (الألماني) انطلاقاً من حاجة المجتمع المستقبل (العربي) إلى ذلك العمل ، فيقول المترجم : إذا نقلت هذا العمل إلى العربية فإنه سيستقبل بشكل جيد ، وسيساهم في توضيح مشكلات المجتمع العربي ، وسيثير في هذا المجتمع نقاشاً فكرياً هاماً .

٣- أمّا الاحتمال الثالث فيتمثل في أن ينطلق المترجم من ذوقه الشخصي الخاص ، قائلاً : أريد أن أترجم هذا العمل لا لشيء إلاّ لأنه قد أعجبني . إنّ لكل من هذه الخيارات الثلاثة إيجابيات وسلبيات ، ولكن المهم في رأينا هو أن يعي المترجم الأساس الذي استند إليه عند اختياره عملاً أدبياً للترجمة ، وأن يعرف لماذا ترجم ذلك العمل دون سواه . ومن هذه الناحية فإنّ ليلى نعيم مترجمة واعية ، وقد تبنت الخيار الثاني بكل وضوح .

١٠ - جودة الترجمات :

مهما تكن الاعتبارات التي ينطلق منها المترجم عند اختيار العمل الأدبي الأجنبي ، فإنّ المهمة الرئيسة للمترجم تتمثل في نقل ذلك العمل من لغة المصدر إلى لغة الهدف (أي من الألمانية إلى العربية في حالة الرواية الألمانية الحديثة) بصورة تحقق التناظر المعنوي ـ الدلالي والأسلوبي ـ الجمالي بين النصين : الأصلي والمترجم ، أو تقترب من ذلك التناظر [٢٣] . فعندما يتحقق التعادل المذكور في الترجمة الأدبية يصبح العمل الأدبي المترجم قادراً على أن يمارس على متلقيه في لغة الهدف تأثيراً يقترب من التأثير الذي مارسه ذلك العمل على متلقيه في لغة المصدر . فالتناظر الأدبي ، هو تناظر نسبي أو تقريبي بطبيعة الحال ، وليس تناظراً كاملاً أو مطلقاً ، وهو المعيار الذي ينبغي أن نقيّم بوساطته نجاح أية ترجمة أدبية أو فشلها . إلا أنّ تقييم الترجمات الأدبية لايجوز أن يتم بصورة إجمالية ، فهو جزء من نقد الترجمة ، وهذا النقد ينبغي أن يكون موضعياً وملموساً ، وذلك بأن يتناول الناقد كل ترجمة أدبية على حدة ، وأن يبين بطريقة منهجية دقيقة ، من خلال التحليل الدلالي والأسلوبي ، مواضع الخطأ والصواب ، والجودة والرداءة ، والنجاح والإخفاق . [٢٤]

١١ـ تعليق إجمالي :

لئن كان لابدّ من القيام بتعليق إجمالي على حركة استقبال الرواية الألمانية الحديثة في العالم العربي خلال الأعوام العشرة الأخيرة ، فهو أنّ ذلك الاستقبال قد كان بصورة عامّة استقبالاً هزيلاً ، لايتناسب ومكانة الرواية الألمانية الحديثة في الأدب العالمي ، ولايرقى إلى حاجة المتلقين العرب ، العاديين منهم والمحترفين ، إلى الاطلاع على تلك الرواية من خلال ترجماتها العربية . إنّ حركة الترجمة الروائية من الألمانية إلى العربية مقصرة بحق الرواية الألمانية والحاجات الثقافية العربية على حد سواء . فما أكثر الروائيين الألمان الذين حظيت أعمالهم باستقبال عالمي متنوع وواسع النطاق ، وترجم قسم كبير من رواياتهم إلى العديد من اللغات الأجنبية ، ولكنّ شيئاً من تلك الروايات لم ينقل بعد إلى العربية . أولا يدعو إلى العجب أنّ شيئاً من روايات غونتر غراس ، ومارتين فالزر ، وزيغريد لينتس ، وماكس فريش ، وأنازيغرز، وبيتر فايس ، وروبرت موزيل وكريستا فولف ، وغيرهم من كبار الكتاب الألمان لم يعرب بعد ؟ أن أقل ما يمكن أن يقال بهذا الخصوص هو أنّ حركة الترجمة الأدبية العربية لم تقدم للرأي العام العربي صورة وافية وسليمة عن الرواية الألمانية الحديثة ، وأنها قد حرمت المتلقين العرب من :

١ـ مصدر هام للمتعة الجمالية والفكرية التي يمكن أن تتاح لهم في حالة ترجمة قدر وافٍ من الروايات الألمانية الحديثة إلى العربية .

٢ـ مصدر هام للمعلومات حول المجتمع الألماني وقضاياه ، مما فوّت على الرأي العام العربي فرصة تكوين صورة واقعية ودقيقة عن الألمان بدلاً من الصورة الجرمانوفيلية المعروفة ، التي تعشش في كثير من الرؤوس العربية .

٣ ـ وأخيراً فوّت تقصير حركة الترجمة على الأدباء العرب فرصة التفاعل الإبداعي المنتج مع الرواية الألمانية ، والاستفادة مما تنطوي عليه من تقدّم فني وجمالي .

١٢ـ خـــاتمة :

قد يخطر ببال المرء أن يسأل عن السبل التي يمكن أن تؤدي إلى تصحيح استقبال الرواية الألمانية الحديثة والارتقاء به إلى المستوى المطلوب . ولا نظن أنّ ذلك يمكن أن يتم بمعزل عن معالجة أوضاع حركة الترجمة الأدبية المعاصرة في العالم العربي ، التي تعاني من ركود شديد متعدد الأسباب ، يتم وسط مناخ ثقافي محافظ جديد ، يصعب في ظله الانفتاح على الثقافات والآداب الأجنبية واستقبالها . ومن العوامل التي تكرس ذلك الركود وتعمقه تلك النزعة الاستغلالية البشعة، التي يتسم بها تعامل كثير من الناشرين العرب مع المترجمين ، وهو سلوك يتمثل في الاعتداء على الحقوق المادية والمعنوية للمترجمين ، وإفقادهم كل دافع أو حافز للإقدام على تعريب أعمال أدبية أو فكرية هامة . إنّ الأشخاص الذين يملكون الكفاءة اللغوية والثقافية التي تؤهلهم لأن يكونوا مترجمين أدبيين من الألمانية إلى العربية كثر لحسن الحظ . وإذا توافرت الحوافز المادية والمعنوية فإنّ المزيد منهم سيبدي استعداداً لممارسة الترجمة الأدبية ، ولأن يساهم في تطوير العلاقات الأدبية العربية الألمانية والنهوض بها . أمّا إذا لم تتوافر تلك الحوافز فإنّ حركة الترجمة الأدبية عن الألمانية ستظل ضعيفة على الرغم من وجود هذا العدد الكبير من القادرين على ممارسة الترجمة ، مما سيفتح الباب على مصراعيه أمام الترجمات التي تتم عن لغة وسيطة . وخير دليل على ذلك ما شهده استقبال أعمال الأديب الألماني هرمان هيسّه خلال الأعوام العشرة الأخيرة . فهل سيعمم هذ النمط من الترجمة ويتسع ليطال أعمال مزيد من كبار الأدباء الألمان ، الذين يتبوؤن مكاناً مرموقاً في الأدب العالمي الحديث ؟ إنه سؤال نكتفي بطرحه ، وستقدم الأعوام المقبلة إجابة عنه.

■

الهوامش :

(١) قدّمنا عرضاً وافياً لتاريخ استقبال الأدب الألماني في العالم العربي من بدايته حتى مطلع الثمانينيات في بحثينا (١٩٨٨/آ) و (١٩٨٨/ ب.)

(٢) فيما يتعلق باستقبال الرواية الألمانية الحديثة حتى أوائل الثمانينات راجع بحثنا (١٩٨٩/آ) ، و كذلك (A. Abboud : 1984) :

(٣) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع(G.Grimm 1977)

(٤) حول مسألة الغربة والتأويل الأدبي راجع (D. Krusche : 1985) :

(٥) فيما يتعلق بتعليم اللغة الألمانية في الأقطار العربية راجع بحثنا (١٩٨٩ب).

(٦) راجع بهذا الخصوص : م . ماهر / ف . أوله (١٩٧٩).

(٧) حول التوسيط النقدي التفسيري للعمل الأدبي الأجنبي راجع كتابنا (١٩٩٢) ص ١٨٥ وما يليها.

(٨) المرجع نفسه.

(٩) حول أحد جوانب ذلك التأثير راجع : ح . الخطيب (١٩٨٠).

(١٠) فيما يتعلق بتأثير بريشت على المسرح العربي الحديث راجع رسائل الدكتوراه التي كُتبت حول هذا الموضوع من قبل : عادل قرشولي ومجدي يوسف وناهد الديب ونبيل حفار .

(١١) راجع بهذا الخصوص كتاب (J. Levy : 1969)

(١٢) بخصوص تلك الصور راجع : س. مسلم (١٩٨٥) وكذلك الفصل الأخير من كتاب :

(K. Kaiser / U. Steinbach (Hg.) : 1981)

(١٣) لم يعد المؤلف الذي وضعه مصطفى ماهر وفولفغانغ أوله (١٩٧٩) وافياً بالغرض ، وذلك لأنه لم يحدّث و لم يصدر في طبعة جديدة تعكس المستوى الراهن لحركة الترجمة بين اللغتين العربية والألمانية .

(١٤) فيما يتعلق بالمراحل الأولى من استقبال أعمال هرمان هيسّه الروائية في الوطن العربي راجع كتابنا (١٩٩٣/آ).

(١٥) راجع بحث "روايات هرمان هيسه وقصصه .." في هذا الكتاب .

(١٦) راجع : م. ماهر إف. أوله (١٩٧٩).

(١٧) المرجع نفسه.

(١٨) لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة راجع مقالنا (١٩٨٥).

(١٩) حول استقبال أدب هاينريش بولّ في العالم العربي راجع بحثنا (١٩٩٣/ب).

(٢٠) فيما يتعلق بتلك الندوة راجع مقالنا (١٩٩٣/ ت).

(٢١) راجع هـ. مانّ (١٩٧٨) ، ص٣٥ .

(٢٢) بخصوص هذه المسألة راجع (H. -R. Jauss : 1977) :

(٢٣) ارجع إلى فصل الترجمة الأدبية في كتابنا (١٩٩٢) ، ص ١٢٥ - ١٣٤.

(٢٤) فيما يتعلق بنقد الترجمة ارجع إلى (K. Reiss : 1971) :

■

أهمّ المصـــــادر والمراجـــــع :

آ -العربية :

- الخطيب ، حسام (١٩٨٠) : سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية . دمشق : المكتب العربي لتنسيق الترجمة .

-عبود ، عبده (١٩٨٨/آ) الأدب الألماني مترجماً إلى العربية . مجلة (الموقف الأدبي) ، دمشق ، ع ٢٠٢ - ٢٠٣ ، شباط - آذار ١٩٨٨ ، ص ٧٥ - ٩٣ .

-عبود ، عبده (١٩٨٨/ ب) : من غوته إلى كافكا – محطات في استقبال الأدب الألماني عربيا . مجلة (البيان) الكويت ، ع ٢٧٣ ، ديسمبر ١٩٨٨ ، ص ٨٨ – ١٠٦ .

- عبود عبده (١٩٨٩/ آ) : الرواية الألمانية الحديثة على ضوء تلقيها في العالم العربي . مجلة (عالم الفكر) ، الكويت م ١٩ ، ع ٤، ١٩٨٩ ، ص ١٢٩ – ١٥٦.

-عبود عبده (١٩٨٩ /ب) : اللغة الألمانية من منظور ثقافي عربي . مجلة جامعة البعث ، حمص ، ع ٦ ، ١٩٨٩ ، ص ٢٧١ – ٣٠٠.

-عبود ، عبده (١٩٩٢) : الأدب المقارن – مدخل نظري ودراسات تطبيقية . حمص : منشورات جامعة

-عبود ، عبده (١٩٩٣/آ) : الرواية الألمانية الحديثة . دراسة استقبالية مقارنة . دمشق : منشورات وزارة الثقافة.

-عبود ، عبده (١٩٩٣/ب) : الاستقبال المتعثّر . أدب هاينريش بولّ في ترجماته العربية .

مجلة (الآداب الأجنبية) دمشق ، ع ٧٤ ، س ١٩ ، ربيع ١٩٩٣ ، ص ٧ –١٨.

-ماهر ، مصطفى / أوله ، فولفغانغ : (١٩٧٩) سلسلة بيبليوغرافية . بون – باد غودسبرج.

-مسلم ، سامي (١٩٨٥) : صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية .

ب -الأجنبية :

-Abbuod , Abod (1984) : Deutsche Roman im arabischen Orient. Frankfurt /M.

- Grimm, Gunter (1977) : Rezeptionsgeschichte Grundlegung einer Theorie . Munchen .

- Jauss, Hans - Robert (1977) : Asthetische Erfahrung und und literarische Hermeneutik . Munchen .

- Kaiser , Karl / Udo Steinbach (Hg.) (1981) : Deutsch - arabische Beziehungen . Munchen Wien .

- Krusche , Dietrich (1985) : Literatur und Fremde . Munchen .

- Levy , Jiri (1969) : Die Literarische Ubersetzung . Frankfurt .

- Reiss , Katharina (1971) : Moglichkeiten und Grenzen der Ubersetzungskritik . Munchen .

■

ثبت :

بأحداث الترجمات الروائية الألمانية إلى العربية :

-إنده ، ميشائيل (١٩٨٨) : قصة بلا نهاية . ترجمة وتقديم د. محمد باقر الجوهري ، الهيئة المصرية العامة للكتابة ، القاهرة.

-بولّ ، هاينريش (١٩٩٠) : شرف كاتارينا بلوم الضائع . ترجمة وتقديم نوال حنبلي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق .

-بولّ ، هاينريش (١٩٩٣) : ولم يقل كلمة . ترجمة وتقديم ياسين طه حافظ . بغداد : دار المأمون .

-ريمارك ، إريش ماريا (١٩٨٣) : ثلاثة رفاق . ترجمة د. ليلى نعيم ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت .

-ريمارك ، إريش ماريا (١٩٨٣) : ليلة لشبونة . ترجمة د . ليلى نعيم ، تقديم د. نبيل الحفار . الناشر نفسه .

-زفايغ ، ستيفان (١٩٨٥) : رسالة من امرأة مجهولة . ترجمة آنجيل عبود ، دار طلاس ، دمشق .

-زفايغ ، ستيفان (١٩٨٨) : فوضى المشاعر . ترجمة ميشيل واكيم وقصي أتاسي ، الناشر نفسه.

-مان ، هاينريش (١٩٨٧) : الخنوع . ترجمة وتقديم د. ليلى نعيم . دار الوحدة ، بيروت .

-هاندكه ، بيتر (١٩٩٠) : المرأة العسراء . ترجمة ماري طوق ، دار الآداب ، بيروت .

-هيسّه ، هرمان (١٩٨١) : الرحلة إلى الشرق . ترجمة ممدوح عدوان ، دار ابن رشد ، بيروت

-هيسّه ، هرمان (١٩٨٥) : سدهارتا ، ترجمة وتقديم فؤاد كامل . القاهرة ، دار المعارف .

-هيسه ، هرمان (١٩٨٦) : سدهارتا ، ترجمة وتقديم ممدوح عدوان ، دار منارات ، عمان .

-هيسه ، هرمان (١٩٨٦) : نولب ، الربيع الباكر ، ترجمة كامل يوسف حسين، دار ابن زيدون ، بيروت .

-هيسه ، هرمان (١٩٨٨) : نولب : المتشرد . ترجمة محمد زفزاف . دار الشؤون الثقافية ، بغداد .

-هيسه ، هرمان (١٩٨٩) : دميان ، قصة شباب اميل سنكلير ، ترجمة ممدوح عدوان ، عمان : دار منارات.

-هيسه ، هرمان (١٩٨٩) : الرحلة إلى الشرق . ترجمة سميرة الكيلاني ، القاهرة : دار الثقافة الجديدة .

-فونتانه ، تيودور (١٩٩٠) : ايفي بريست ، ترجمة سناء كرم ، دار الآداب بيروت .

-فولف ، كريستا (١٩٩١) : ما يبقى . ترجمة بسام حجار . بيروت ، دار الفارابي .

- زوسكيند ، باتريك (١٩٩٤) : العطر ، قصة قاتل .

تر . د . نبيل حفار ، أبو ظبي ، المجمع الثقافي .

***

٥ ـ ٢ ـ روايات هرمان هيسه وقصصه في ترجماتها العربية

١ ـ لمحة تاريخيـــــــــية :

شيئا فشيئا تقدم استقبال أدب الكاتب الألماني المعروف هرمان هيسه [1] في العالم العربي وتراكم ، بحيث تحول إلى أحد مراكز الثقل ، وإلى ظاهرة لافتة للانتباه في العلاقات الأدبية العربية ـــ الألمانية الحديثة[2]. وكان ذلك الاستقبال قد بدأ في أواخر الستينيات ، حين صدرت ترجمة عربية لروايتي : " قصة شاب " و " لعبة الكريات الزجاجية " ، اللتين نقلهما عن الألمانية الدكتور مصطفى ماهر ، أستاذ اللغة الألمانية وآدابها بجامعة القاهرة [3] . إلاّ أنّ استقبال هيسة عربياً ما لبث أن شهد بعد تلك البداية الواعدة ركوداً نسبياً على امتداد السبعينيات ، فلم ينقل إلى العربية طوال ذلك العقد سوى رواية واحدة هي : " ذئب البوادي " ، التي عربها النابغة الهاشمي عن الألمانية عام ١٩٧٣ ، وصدرت في هذه الأثناء طبعتها الثالثة [4] . إذن لقد كانت بدايات استقبال أدب هيسه في العالم العربي مصرية ، وقد تعهدتها جهة أكاديمية متخصصة في اللغة الألمانية وآدابها ، وكانت لغة المصدر المترجم عنها هي الألمانية . ولاغرابة في ذلك ، فمصر كانت حتى ذلك الحين القطر العربي الوحيد الذي يدّرس الأدب الألماني في بعض الجامعات ، مما وفر شرطاً ضرورياً لاستقبال أدب هيسه والأدب

الألماني بصورة عامة [٥] . فأقسام اللغات الأجنبية وآدابها في الجامعات العربية قد شكلت على الدوام بنية ارتكازية لاستقبال تلك الآداب .

وبعد ركود دام ثماني سنوات استؤنف استقبال أدب هيسه في العالم العربي ، وذلك في مطلع الثمانينيات ، ولكن بصورة مختلفة جذرياً عمّا كان عليه ذلك الاستقبال في مرحلة البدايات . لقد استؤنف من خلال تعريب قصة " الرحلة إلى الشرق " من قبل مترجم لم يكن له حتى ذلك الحين أيّ دور في استقبال الأدب الألماني عربياً ، ألا وهو الشاعر والكاتب المسرحي والمترجم السوري المعروف ممدوح عدوان ، الذي درس اللغة الانكليزية وآدابها في جامعة دمشق ، ونقل عن الانكليزية عدداً مرموقاً من المؤلفات الأدبية والفكرية الهامة [٦] . لقد دشن ممدوح عدوان بهذه الترجمة مرحلة جديدة من استقبال أدب هيسه في العالم العربي ، مرحلة سيكون تعريب أعمال هيسه عن لغة وسيطة ، لا عن الألمانية مباشرة ، أبرز سماتها . فبعد أن ترجم السيد عدوان " الرحلة إلى الشرق " ، نقل إلى العربية عن اللغة الوسيطة نفسها روايتي هيسه " سيد هارتا " (١٩٨٦) و " دميان " (١٩٨٩) ، فارتفع بذلك عدد أعمال هيسه التي عرّبها هذا المترجم إلى ثلاثة أعمال ، مما جعله يتصدر لائحة مترجمي أدب هيسه إلى العربية . وبعد أن صدرت الترجمة العربية لقصة " الرحلة إلى الشرق "كرت السبحة ، وبدأت سلسلة طويلة من الترجمات العربية لأعمال هيسه الأدبية عن لغة وسيطة . فقد ترجم فؤاد كامل رواية " سيد هارتا " عن الانكليزية (١٩٨٥) ، وتلك ثاني ترجمة لهذه الرواية عن لغة وسيطة ، وعرّب القاص والمترجم المغربي المعروف محمد زفزاف رواية " كنولب أو المتشرد " عن الفرنسية (١٩٨٨) ، بعد أن كان المترجم كامل يوسف حسين قد ترجمها عن الانكليزية (١٩٨٦) ، وترجم عبد الله صخي مجموعة " أنباء من كوكب آخر " عن الانكليزية (١٩٨٦) ، كما ترجمت سميرة الكيلاني " الرحلة إلى الشرق " مرة أخرى عن الانكليزية (١٩٨٩) ، وكانت آخر حبة في سبحة تعريب أعمال هيسه الأدبية عن لغة وسيطة هي

ترجمة مجموعة " تجوال " عن الإنكليزية من قبل طاهر رياض (١٩٩٠).
إنّ اللافت للنظر هو أنّ الترجمات التسع التي تتكون منها المرحلة الثانية من الاستقبال الترجمي لأدب هيسّه عربياً قد تمت عن لغة وسيطة، وليس عن الألمانية، اللغة الأصلية لذلك الأدب، وتلك مسألة تستحق أن يتوقف الباحث عندها مفسراً ومحللاً.

٢ـ تعدد الترجمات :

أمّا المسألة الثانية التي تستدعي الانتباه فهي تعدد ترجمة العمل الأدبي الواحد. فقصة " الرحلة إلى الشرق " قد عُربت مرتين، مرة من قبل ممدوح عدوان، ومرة أخرى من قبل سميرة الكيلاني، وتمت الترجمة في كلتا الحالتين عن الانكليزية. ورواية " سيد هارتا " نقلت بدورها مرتين إلى العربية من قبل كل من فؤاد كامل وممدوح عدوان، وعن اللغة الوسيطة نفسها. كما شهدت رواية " كنولب " ترجمتين مختلفين، قام بالأولى كامل يوسف حسين عن الانكليزية وأنجز الثانية محمد زفزاف عن الفرنسية. ترى ما تفسير هذه الظاهرة؟ من الناحية النظرية يمكن ردها إلى الأسباب الآتية :

١ـ عدم رضى المترجم الثاني عن جودة الترجمة السابقة، ورغبته في تقديم ترجمة أفضل منها وأكثر تعادلاً مع العمل الأدبي الأصلي من الناحيتين الدلالية والأسلوبية. إنّ هذا يفترض اطلاع المترجم الجديد على الترجمة القديمة، وأنه قد أدرك جوانب الضعف التي تنطوي عليها إلا أنه في حالة هيسه ليس هناك ما يدل على ذلك. فالمترجمة سميرة الكيلاني لم تشر إلى وجود ترجمة عربية أخرى لقصة " الرحلة إلى الشرق "، والمترجم ممدوح عدوان لم يشر إلى أنّ فؤاد كامل قد عرّب رواية " سيد هارتا " قبله بعام واحد، علماً بأنه يشير في اللمحة التي قدمها عن حياة هيسه وأدبه إلى وجود ترجمات عربية لأعمال هذا

الأديب . ومحمد زفزاف لم يشر إلى أنّ كامل يوسف حسين قد عرّب رواية " كنولب " قبل عامين من قيامه بتعريبها . من هنا نستنتج أنّ صيغة العلاقات السائدة بين مترجمي أدب هيسه إلى العربية هي في حقيقة الأمر صيغة تجاهل الآخر أو الجهل به ، بدلاً من أن تكون صيغة مواصلة كل مترجم ما أنجزه زميله وصولاً إلى الأفضل . ولا ندري ما إذا كان ذلك التجاهل المتعمد أكبر من جهل المترجم بوجود ترجمة عربية للعمل الأدبي الذي يودّ القيام بترجمته . فالعالم العربي مكوّن حالياً من ساحات قطرية معزولة ثقافياً عن بعضها البعض إلى حدّ كبير، ومن الصعب أن يعلم مترجم يعيش في إحدى تلك الساحات ما ينشر في الساحات الأخرى من ترجمات . وتلك هي إحدى النتائج السلبية الناجمة عن العزلة الثقافية التي تفرضها الإدارات العربية على انتقال الكتب والمجلات وغيرها من المطبوعات بين الأقطار العربية لاعتبارات رقابية ، في مسعى لتكريس الكيانات القطرية القائمة عبر تعميق القطيعة العربية . ومن خلال المثال الذي نحن بصدده نرى أنّ الممارسات الحكومية العربية التي تتمّ على هذا الصعيد قد تحولت إلى عائق كبير يعرقل التطور الثقافي العربي ويكبحه .

٢ـ أمّا الاحتمال الثاني فهو أن تكون أعمال هيسه الأدبية قد نفدت كلها ، ولم يبق منها ما يمكن أن يوجه المترجمون العرب جهودهم إليه . وهذا الاحتمال غير قائم عملياً ، لأنّ قسماً كبيراً من أدب هيسه لم يترجم بعد ، ولم يزل أمام المترجمين العرب الكثير مما يمكن عمله ، رغم التقدم النسبي الذي تحقق في هذا المجال . وفي كل الأحوال فإنّ تعدد الترجمات للعمل الأدبي الواحد ، وبصرف النظر عن الأسباب ، ليس ظاهرة خاصة باستقبال أدب هيسّه في العالم العربي ، بل هو إحدى الظواهر الإشكالية التي يتسم بها استقبال الأدب الألماني برمته ، وهو تعبير عن الفوضوية والعشوائية اللتين تطغيان على ذلك الاستقبال على امتداد تاريخه [٧] . ولئن كانت هذه الظاهرة سلبية من حيث المبدأ،

لأنها تنطوي على هدر لجهود المترجمين ، التي كان من الممكن أن توجه إلى تعريب أعمال أدبية غير مترجمة ، فإنها تنطوي في الوقت نفسه على جوانب إيجابية ، فتعدد الترجمات يعبّر أيضاً عن تعدد في التفسيرات وفي طرائق الترجمة ، ويقدم تنويعات وصيغاً مختلفة وممكنة للنص الأدبي المترجم ، ولهذا يمكن اعتباره عامل إثراء وتنوع . فالترجمات المتعددة ليست متطابقة من النواحي الدلالية والأسلوبية ، وبالتالي فإنّ كلاً منها تقدم للقارئ شيئاً لا يجده في الترجمات الأخرى . وفوق هذا وذاك فإنّ تعدد الترجمات مؤشر واضح على اهتمام قوي بالعمل الأدبي المترجم ، وعلى وجود حاجة ثقافية كبيرة إلى تعريب ذلك العمل . فهو يعني أنّ عدة مترجمين قد توصلوا بصورة مستقلة إلى قناعة مشتركة بأنّ ذلك العمل الأدبي الأجنبي يستحق أن يترجم إلى العربية ، وأن يُستقبل من جانب المتلقين العرب .

٣- الترجمة عن لغة وسيطة :

وماذا عن السمة الثانية، التي تطبع الاستقبال الترجمي لأدب هيسه في العالم العربي ، أي غلبة الترجمة عن لغة وسيطة ؟ للوهلة الأولى لا يبدو أنّ هناك علاقة بين هذه الظاهرة وبين ظاهرة تعدد ترجمات العمل الأدبي الواحد .إلا أنّ العلاقة بين هاتين الظاهرتين قائمة في حقيقة الأمر ، بل يمكن اعتبارهما وجهين لظاهرة أكبر هي أزمة حركة الترجمة الأدبية من الألمانية إلى العربية . فترجمة أعمال هيسه عن لغة وسيطة ما كانت لتستفحل على الشكل الذي رأيناه لو كانت هناك حركة ترجمة أدبية نشيطة عن الألمانية ، ولو قدم المترجمون العرب الذين ينقلون عن الألمانية ترجمات لأعمال هيسّه في الوقت المناسب . إنّ اتساع ظاهرة الترجمة عن لغات وسيطة في العلاقات الأدبية العربية ـ الألمانية هو نتيجة طبيعية وحتمية لتقاعس المترجمين عن الألمانية . فالطلب على بعض الأعمال الأدبية الألمانية قائم في المجتمع العربي ،

ولابدّ من أن يجد طريقاً لتلبيته . وهو طلب كثيراً ما يتولد لا عن الاطلاع على تلك الأعمال في لغتها الأصلية وتقدير ضرورة تعريبها ، بل يتشكل عبر حلقة وسيطة ، تتمثل في حقيقة أنّ الأعمال الأدبية المذكورة قد تمّ نقلها إلى لغات أجنبية واسعة الانتشار في العالم العربي ، كالانكليزية والفرنسية ، مما مكّن بعض المترجمين العرب الذين يمارسون التعريب عن تلك اللغات من الاطلاع عليها ، ثم ترجمتها . ومن المعروف أنّ أدب هرمان هيسه قد استقبل في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وغيرها من الأقطار الغربية وغير الغربية على نطاق واسع جداً ، ولذا فمن غير المستغرب أن يطلع بعض المترجمين العرب على ذلك الأدب عن طريق لغات وسيطة ، وأن يحفزهم استقباله الضخم على الصعيد العالمي لترجمة شيء منه إلى العربيّة (٨) . فعندما يكون أدب هيسه مترجما ومقروءاً على نطاق واسع في الأقطار الناطقة بالانكليزية ، أليس من المنطقي أن يطلع عليه بعض العرب الذين يجيدون الانكليزية ، وهي اللغة الأجنبية الأولى في العالم العربي ، وأن يتولد لديهم الشعور بضرورة ترجمة بعض أعمال هيسه إلى العربية ؟ وعندما لا يقوم المترجمون عن الألمانية بتلبية تلك الحاجة الثقافية ، أليس من الطبيعي أن تبحث تلك الحاجة عن أشكال بديلة للتلبية ، وأقربها الترجمة عن لغة وسيطة ؟ إنّ الحاجات الثقافية الحقيقية تجد دائماً من الوسائل والبدائل ما يؤدي إلى إشباعها ، لحسن الحظ . فلولا الترجمة عن لغة وسيطة لكان استقبال أدب هيسه في العالم العربي أفقر بكثير مما هو عليه الآن ، ولحرم المتلقون العرب من الاستمتاع جمالياً وفكرياً بقسم كبير من ذلك الأدب (٩) .

ولكن ألا تترتب على الترجمة الأدبية عن لغة وسيطة نتائج سلبية؟ ذلك أمر مؤكّد من حيث المبدأ . فهذا النوع من الترجمة يضاعف احتمالات " الخيانة الترجمية " ، أي ابتعاد النص المترجم دلالياً وأسلوبياً عن النص الأدبي الأصلي . ولكنّ هذه الفرضية صحيحة من الناحية

النظرية فحسب . أمّا من الناحية الفعلية فينبغي أن تقيّم كل ترجمة على حدة ، وألا يحكم على أية ترجمة بصورة مسبقة على أساس لغة المصدر التي تمت عنها ، كأن يحكم المرء على ترجمة أدبية بالرداءة لمجرد أنها قد تمت عن لغة وسيطة ، وأن يقيّم ترجمة أخرى بصورة إيجابية لمجرد أنها قد أنجزت عن لغة المصدر الأصلية . إنّ أحكاماً كهذه لن تكون موضوعية ولا منصفة ، وتاريخ الترجمة في الأدب العربي حافل بالأمثلة التي تؤيد مقولتنا هذه . فإبن المقفع لم يترجم " كليلة ودمنة " ، وهي أول ترجمة ذات شأن في الأدب العربي ، عن لغتها الأصلية (١٠) ، والدكتور سامي الدروبي نقل روايات دستويفسكي عن الفرنسية ، وكانت برغم ذلك من أفضل الترجمات الأدبية وأنجحها في الأدب العربي الحديث . إنّ جودة الترجمة الأدبية التي تتمّ عن لغة وسيطة تتوقف في حقيقة الأمر على مسألتين هما:

١- جودة الترجمة التي اتخذت مصدراً للترجمة العربية .

٢- كفاءة المترجم العربي وموهبته اللغوية والأسلوبية.

ومع أنه يُفترض أن تكون الترجمة التي تتمّ عن اللغة الأصلية للعمل الأدبي أفضل من ترجمة تتمّ عن لغة وسيطة ، فإنّ تاريخ حركة الترجمة الأدبية في الوطن العربي حافل بأمثلة لترجمات تمّت عن لغة وسيطة ، ولكنها فاقت الترجمات التي أنجزت عن اللغة الأصلية دقة وجودة وجمالاً . وما أكثر الحالات التي يجد فيها ناقد الترجمة نفسه مضطراً لأن يفضّل ترجمة تمت عن لغة وسيطة على ترجمة تمت عن اللغة الأصلية للعمل الأدبي . وعلى سبيل المثال فإنّ الترجمة العربية لمسرحية غوته الشهيرة " فاوست " التي أنجزها سهيل أيوب عن الفرنسية والانكليزية أجمل وأدق بكثير من الترجمة التي قام بها الدكتور عبد الرحمن بدوي لهذه المسرحية عن الألمانية .(١١) والترجمة العربية لمسرحيتي الأديب الكلاسيكي الألماني شيلر : " اللصوص " و " فيلهلم تل " التي قام بها المترجم الأخير عن الألمانية أسوأ بكثير من الترجمات العربية لهاتين

المسرحيتين التي تمت عن لغة وسيطة . (١٢) إنّ مترجماً أدبياً موهوباً ينقل العمل عن لغة وسيطة أفضل بكثير من مترجم غير موهوب ينقل العمل الأدبي عن لغته الأصلية (١٣).

فالترجمة الأدبية موهبة وكفاءة وفنّ قبل أي شيء آخر ، ولايقلل من شأن ترجمة أدبية أنها قد أُنجزت عن لغة وسيطة ، ولا يرفع من شأن ترجمة رديئة أنها قد تمت عن لغة المصدر الأصلية . فهل تنطبق هذه المقولة على أعمال هرمان هيسه المترجمة إلى العربية ؟ هذا السؤال لايمكن الإجابة عنه بصورة ملموسة إلاّ من خلال القيام بمقارنة نقدية بين ترجمتين لعمل أدبي واحد تمتا عن لغة وسيطة واحدة ، كأن يقارن المرء بين الترجمتين العربيتين لرواية " سيد هارتا " اللتين أنجزهما فؤاد كامل وممدوح عدوان عن الانكليزية .

٤- " سيد هارتا " بين ترجمتين :

من المعروف أنّ ممدوح عدوان أديب قبل أن يكون مترجماً . ومن الطبيعي أن تنعكس كفاءته اللغوية والأسلوبية العالية ، الناجمة عن كونه أديباً ، على نشاطه كمترجم أدبي ، وأن تأتي الترجمات الأدبية التي ينجزها مرآة لتلك الكفاءة . فأنت لا تجد في ترجماته الأدبية أثراً لذلك الأسلوب المفكك الركيك الباهت الذي تتصف به تلك الترجمات التي قام بها مترجمون لا يتحلون بكفاءة وموهبة أدبيتين ، ولا تجد لديه ذلك التشبث العبودي الذليل بالنص الأصلي ، وعدم القدرة على الخروج من إساره ، وهو المصدر الأساسي للعجمة والركاكة الأسلوبية.(١٤) وعندما تقرأ ترجمة أدبية أنجزها هذا المترجم - الأديب ، فإنك تشعر بأنك تتلقى نصاً أدبياً أصلياً ، سلساً في أسلوبه ، فصيحاً ومتيناً في لغته وتعابيره ، أدبياً بكل ما تنطوي عليه كلمة " أدبي " من دلالات وأبعاد . ولعل أقرب طريق لاظهار ذلك - وما دام المجال لايتسع لنقد لساني - أسلوبي للترجمة بأكملها - هو أن نقارن بين مقطع واحد من ترجمة " سيد هارتا " التي قام بها ممدوح عدوان ، وبين المقطع المقابل من الترجمة التي قام

بها فؤاد كامل ، وأن نواجه الترجمتين كلتيهما بالنص الألماني الأصلي ، لنرى مدى اقتراب كلّ منهما من التقارب الدلالي والأسلوبي من النص الأصلي ، على الرغم من أنهما قد تمتا عن لغة وسيطة . وإذا صح أنّ " المكتوب يقرأ من عنوانه " ، كما يقول المثل الشعبي ، فإنّ الترجمة الأدبية تعرف من صفحتها الأولى ، بل من المقطع الأول لتلك الصفحة ، ففيه تتجسد طريقة الترجمة والموقف الأسلوبي للمترجم . ويكفي أن نقارن بين المقطع الأول من ترجمة ممدوح عدوان ومثيله في ترجمة فؤاد كامل ، لنتبين الفرق الشاسع بين ترجمتين ، واحدة أنجزها أديب موهوب ، وأخرى قام بها مترجم معروف ، له إنجازات كبيرة في حقل الترجمة الفلسفية والأدبية . لقد جاء ذلك المقطع في ترجمة ممدوح عدوان على النحو التالي:

"في ظلال البيت ، وفي ضوء الشمس على ضفة النهر قرب القوارب ، وفي ظلال غابة الصفصاف وأشجار التين ترعرع سدهارتا، الابن الوسيم للبراهمي ، مع صديقه غوفندا . لفحت الشمس كتفيه المزيلتين على ضفة النهر وهو يستحمّ للطهارة في أيّام الأضاحي . وكانت الظلال تمر على عينيه وهو يلعب بين أشجار المنغا ، بينما أمه تغني وأبوه يعطي دروسه وهو بين المتعلمين . وكان سد هارتا قد شارك في أحاديث المتعلمين وخاض مجادلات مع غوفندا ، كما مارس معه فن التأمل الروحي والاستغراق في التفكير . ولقد تعلّم كيف يلفظ (اوم) بصمت وهذه كلمة الكلمات ، على المرء أن يقولها في أعماقه عبر مجرى الهواء فيما هو يزفر بطاقة روحه كلها وجبينه يشعّ بوهج الروح الصافية . وتعلّم أيضاً كيف يتعرف على (اتمان) في أعماق كينونته ، الخالدة ، والمتوحدة مع الكون " (١٥).

أمّا فؤاد كامل فقد ترجم المقطع نفسه كالآتي :

"في ظلال البيت ، وفي ضياء الشمس المشرقة ، على ضفة النهر حيث ترقد الزوارق ، تحت ظل الغابة الشاحبة وشجر التين نشأ (سد

هارتا) الوسيم ابن البرهمي مع صديقه (جوفيندا) . وكانت الشمس قد لوحت منكبيه النحلتين عند شاطئ النهر أثناء استحمامه حين أداء طقوس التطهير المقدسة وتقديم القرابين .. وكانت الظلال تخايل عينيه وهو يلعب في بستان المانجو ، بينما أخذت أمه في الغناء وأبوه في إلقاء تعاليمه بين أنداده من العلماء . وكان سيدهارتا قد شارك فعلاً منذ وقت بعيد في المحادثات التي تدور بين هؤلاء العلماء ، واشترك في جدال مع جوفيندا ، ومارس فن التأمل والتفكير في صحبته ، وعرف أيضاً كلمة (أوم) صامتاً ، هذه الكلمة التي هي أمّ الكلمات ، وكيف يلفظها في دخيلة نفسه مع دخول الشهيق ، وعندما ينفث الزفير بجماع روحه ، وقد شع جبينه وهجاً من الروح الطاهر . وكان قد عرف أيضاً كيف يتعرف على كلمة (أتمان) في أعماق وجوده الذي لايتطرق إليه الغناء ، والمتناغم مع الكون " .(١٦)

إنّ بين هاتين الترجمتين فروقاً دلالية وأسلوبية كبيرة ، تتعلق بالمفردات والتراكيب وبناء الجمل وربط بعضها بالبعض الآخر ، وأهم تلك الفروق :

ترجمة ممدوح عدون	ترجمة فؤاد كامل	الفروق
- في ضوء الشمس ضفة النهر	في ضياء الشمس المشرقة على ضفة النهر	فارق كبير في المعنى
- قرب القوارب	حيث ترقد الزوارق	فارق أسلوبي ناجم عن استخدام فؤاد كامل صورة أدبية .
- في ظلال غابة	تحت ظلّ الغابة الشاحبة	فارق دلالي كبير نتج عن إساءة فهم المفردة من قبل كامل ، وهذا خطأ ترجمي فاحش .

- لفحت الشمس كتفيه الهزيلتين	لوحت الشمس	استخدام فعل (لفح) أفضل من (لوح)، و (المنكب) مذكر ، ومن الخطأ تأنيثه .
- وهو يستحم للطهارة في أيام الأضاحي	أثناء استحمامه حين أداء طقوس التطهير المقدسة وتقديم القرابين	فارق دلالي كبير بين الترجمتين،وآخر أسلوبي يتمثل في إطالة الجملة وخلخلة بنيتها في ترجمة كامل .
- كانت الظلال تمرّ أمام عينيه	كانت الظلال تخايل عينيه	استخدام خاطىء لفعل (خايل) .
- أشجار المنغا	بستان المنغا	فارق دلالي
- وأبوه يعطي دروسه	أبوه يلقي تعاليمه بين	خلط دلالي كبير . فالأب عند كامل يلقي تعاليمه على أنداده من العلماء ، لا على متعلمين ، وهو يلقي تعاليمه (بينهم) وليس (عليهم) .
- قد شارك في أحاديث المتعلمين.	قد شارك فعلاً منذ وقت بعيد في المحادثات التي تدور بين هؤلاء العلماء	فارق دلالي كبير بين الترجمتين. فما يدور بين العلماء عند كامل هي ((محادثات)) وليس أحاديث ، وهي تدور ومنذ وقت بعيد) . لقد أطال كامل الجملة وحرّف معناها بشدة .
. خاض مجادلات مع غوفندا	اشتبك في جدال	إنّ تعبير ((اشتبك في جدال)) ، غير مألوف

		ومردّه الترجمة الحرفية للتعبير الأجنبي .
- تعلم كيف يلفظ كلمة (أوم)	عرف كلمة (أوم)	فارق دلالي واضح ، فالمهمّ أن تلفظ الكلمة بصمت ، لا أن تعرفها .
- في أعماقه	في دخيلة نفسه	تعبير (في دخيلة نفسه) غير مناسب في هذا السياق لأنه يعني أنّ المرء يضمر عكس ما يظهر .
- عبر مجرى الهواء	مع دخول الشهيق	الشهيق هو إدخال الهواء الى الرئتين ، والزفير هو العملية المعاكسة ، فكيف يدخل الشهيق وينفث الزفير ؟
- بطاقة روحه كلها	بجماع روحه	((جماع الروح)) تعبير غير مألوف والطاقة شيء و ((الجماع)) شيء آخر.
- الروح الصافية	الروح الطاهر	ثمة فرق دلالي بين ((صاف)) و ((طاهر)) .
- تعلم أيضاً كيف يتعرف على (أتمان)	عرف كيف يتعرف على كلمة (أتمان)	هناك فرق دلالي بين ((تعلم)) و (عرف) ، وسيدها ربّما لا يتعرف (أتمان). واستخدام حرف الجر (على) مع فعل (تعرف) خطأ شاسع .

ـ كينونته الخالدة المتوحدة مع الكون	وجوده الذي لا يتطرق اليه الغناء والمتناغم مع الكون	التعبير عن ((خالد)) بـ (الذي لا يتطرق إليه الغناء) يطيل الكلام بصورة لا مبرر لها ، وهذا خطأ أسلوبي . وهناك فارق دلالي بين (متوحد) (ومتناغم) . والتركيب عند كامل مخلخل ركيك.

من هذه المقارنة بين ترجمتي ممدوح عدوان وفؤاد كامل لمقطع واحد من رواية (سيد هارتا) يستطيع المرء أن يستلخص نتيجة رئيسة هي أنّ الترجمة التي قام بها فؤاد كامل لا تخلو من ركاكة أسلوبية ، ناجمة عن ضعف في سبك الجملة ، وسوء ربط الجمل بعضها بالبعض الآخر . إنها بالمقارنة مع الترجمة التي أنجزها الأديب ممدوح عدوان الترجمة الأقل جمالاً وسلاسة وتماسكاً من الناحية الأسلوبية ، مما جعل أسلوبها بعيداً عن أسلوب هيسة الذي قال عنه المترجم إنه " يجمع بين الوضوح الموضوعي الدقيق والشاعرية الصافية الشفافة ، كما يمتاز بالايجاز الشديد الذي يجعله أشبه بأسلوب الكتاب المقدس في بساطته وصفائه " (١٧) . فهذه المواصفات الأسلوبية تنطبق على الترجمة التي قام بها ممدوح عدوان أكثر من انطباقها على الترجمة التي أنجزها فؤاد كامل، الذي تفتقر ترجمته إلى كثير من السمات التي نسبها إلى أسلوب هرمان هيسّه .

إلا أنّ ناقد الترجمة لا يستطيع أن يتوقف عند هذا الحدّ ، ولابدّ له من أن يخطو خطوة أخرى ، تتمثل في مواجهة الترجمتين العربيتين كلتيهما بالنص الأصلي ، لا بالنص الوسيط ، لأنّ الأول هو المقياس الحقيقي لجودة الترجمة وسلامتها . فما يعنينا في نهاية المطاف هو ليس ما إذا كانت الترجمتان العربيتان لرواية (سيد هارتا) ترقيان إلى

مستوى الترجمة الإنكليزية ، بل ما إذا كانتا قد حقّقتا قدراً جيداً من التناظر أو التقارب الدلالي والأسلوبي مع النص الأصلي . وهذا ما سنحاول أنّ نتبيّنه من خلال المقارنة بين الترجمتين العربيتين للمقطع نفسه من رواية " سيد هارتا " الذي تناولناه آنفاً وبين الأصل الألماني لذلك المقطع [١٨] ، مضيفين إلى ذلك ترجمة نموذجية بديلة قمنا بها عن الألمانية [١٩] ، لنمكّن القارئ الذي يتقن هذه اللغة من مشاركتنا في عملية النقد والتقييم الترجميين . وسنقوم بالمقارنة جملة فجملة :

Im Schatten des Hauses , in der Sonne des Flussufers bei den Booten , im Schatten des Salwaldes , im Schatten des Feigenbaumes wuchs Siddhartha auf , der schone Sohn des Brahmanen , der junge Falke , zusammen mit Govinda , seinem Freunde , dem Brahmanensohn .

(في ظل البيت ، وفي الشمس التي تسطع على ضفة النهر عند القوارب ، وفي ظل غابة الصفصاف ، وفي ظل شجرة التين ، ترعرع سيد هارتا ، الإبن الجميل للبراهماني ، والصقر الفتي ، مع صديقه جوفيندا ، ابن البراهمانيّ).

لقد ترجم فؤاد كامل هذه الجملة المعقدة الطويلة ، التي تنطوي على قدر كبير من الشعرية على الشكل التالي :

(في ظلال البيت ، وفي ضياء الشمس المشرقة على ضفة النهر حيث ترقد الزوارق ، تحت ظل الغابة الشاحبة وشجرة التين ، نشأ سيد هارتا الوسيم ابن البرهمي مع صديقه جوفيندا).

أمّا ممدوح عدوان فقد نقل الجملة نفسها إلى العربية كالآتي :

"في ظلال البيت ، وفي ضوء الشمس على ضفة النهر قرب القوارب ، وفي ظلال غابة الصفصاف وأشجار التين ترعرع سيد هارتا، الابن الوسيم للبراهمي ، مع صديقه غوفندا "

من الملاحظ أولاً أنّ فؤاد كامل قد حول (غابة الصفصاف) إلى (غابة شاحبة) نتيجة لخطأ في فهم دلالة مفردة معينة ، كما حذف

عبارة " الصقر الفتي " وأنّ غوفندا هو أيضاً ابن لبراهماني ، تماماً كسيد هارتا . وهذا الحذف نجده أيضاً في ترجمة ممدوح عدوان . وفي الترجمتين (ينشأ) سيد هارتا أو (يترعرع) في ضياء الشمس أو ضوئها ، ولو شاء هيسه لقال ذلك ، ولكنه قال " في الشمس " وليس في " ضياء الشمس " لأنّ الشمس لاتضيء فحسب ، بل تلفح وتحرق بأشعتها . أمّا شجرة التين المفردة فقد حولها ممدوح عدوان إلى (أشجار التين) ، وهذا انحراف دلالي لا مبرر له .

Sonne braunte seine

lichten Schultern am Flussufer , beim Bade , bei den heiligen

Waschungen , bei den heiligen Opiern .

(الشمس قد جعلت كتفيه الفاتحتين تسمرّان على ضفة النهر ، عند الاستحمام ، وعند ممارسة الاغتسالات المقدسة ، وعند تقديم الأضاحي المقدسة).

فؤاد كامل : " وكانت الشمس قد لوحت منكبيه النحلتين عند شاطئ النهر أثناء استحمامه حين أداء طقوس التطهير المقدسة وتقديم القرابين "

ممدوح عدوان : " لفحت الشمس كتفيه الهزيلتين على ضفة النهر وهو يستحمّ للطهارة في أيام الأضاحي "

لقد أساء المترجمان كلاهما فهم هذه الجملة وارتكبا أخطاء متعددة في تعريبها . فكتفا الشاب " هزيلتان " أو " نحيلتان " بدلاً من أن تكونا فاتحتي اللون ، والشمس قد " لوحتهما " أو " لفحتهما " ، ولم تجعلهما يسمّران . وقد تم ذلك عند استحمام سيد هارتا للطهارة في أيام الأضاحي (عدوان) أو " حين أداء طقوس التطهير المقدسة وتقديم القرابين " (كامل) . إنّ مصدر هذا الخلط الدلالي الشديد هو إساءة فهم السياق النحوي أو التركيبي للجملة . فكتفا سيد هارتا قد

تعرضا للشمس عندما كان يستحم في النهر ، وعندما كان يغتسل ، وعندما كان يمارس طقوس تقديم الأضاحي .

Schatten floss in seine schwarzen Augen im Mangohain , bei den Knabenspielen , beim Gesang der Mutter , bei den heiligen Opfern , bei den Lehren seines Vaters , des Gelehrten , beim Gesprach der Weisen

(لقد تدفق الظل إلى عينيه السوداوين في خميلة المانغا ، خلال ألعاب الصبيان ، خلال غناء الأم ، خلال تقديم الأضاحي المقدسة ، خلال قيام أبيه ، العالم ، بالقاء تعاليمه ، وخلال حديث الحكماء).

فؤاد كامل : " وكانت الظلال تخايل عينيه وهو يلعب في بستان المانجو ، بينما أخذت أمه في الغناء وأبوه في إلقاء تعاليمه بين أنداده من العلماء ."

ممدوح عدوان : " وكانت الظلال تمر على عينيه وهو يلعب بين أشجار المانغا ، بينما أمه تغني وأبوه يعطي دروسه وهو بين المتعلمين ."

لقد أساء المترجمان كلاهما فهم هذه الجملة بسبب خطأ في فهم السياق والبنية النحوية ، إضافة إلى انحرافات دلالية أخرى . فالظلال " تخايل " عيني الفتى أو " تمر عليهما " ، وعيناه لا لون لهما ، أمّا الأب فهو " يلقي تعاليمه على أنداده " (كيف ذلك ؟) ، وقد حُذف قول هيسه : "خلال حديث الحكماء" . لم يفهم المترجمان أنّ الظل الذي يتحدث عنه الكاتب ظل مجازي ، المقصود به أنّ الامتعاض أو السأم من ألعاب الصبيان ، التي لايرد لها ذكر في الترجمتين ، ومن غناء الأم وتعاليم الأب ، قد تسرب إلى نفس الفتى . لقد شوّه معنى هذه الجملة في الترجمتين .

Lange schon nahm Siddhartha am Gesprach der Weisen teil , ubte sich mit Govinda im Redekampf , ubte sich mit Govinda in der Kunst der Betracatung , im Dienst der Versenkung .

(منذ وقت طويل كان سيد هارتا يشارك في حديث الحكماء ، وقد تدرب مع غوفيندا على المبارزة الخطابية ، وتدرب مع غوفيندا على فن التأمل وعلى عبادة الاستغراق في التفكير).

فؤاد كامل : " وكان سيد هارتا قد شارك فعلاً منذ وقت بعيد في المحادثات التي تدور بين هؤلاء العلماء ، واشتبك في جدال مع جوفيندا ، ومارس فنّ التأمل والتفكير في صحبته ."

ممدوح عدوان : " وكان سيد هارتا قد شارك في أحاديث المتعلمين ، وخاض مجادلات مع غوفندا ، كما مارس معه فن التأمل الروحي والاستغراق في التفكير ".

لقد حذف عدوان عبارة " منذ وقت طويل " وحذف المترجمان فعل " تدرب " ، وتحول الحكماء إلى (علماء) عند كامل و (متعلمين) عند عدوان . والطريف في الأمر أنّ هؤلاء العلماء يجرون فيما بينهم (محادثات) بمشاركة الفتى سيد هارتا . وفي الترجمتين لم يعد التفكير أو التأمل (عبادة) . إنّ الخلط المعنوي كبير في الترجمتين .

Schon verstand er, lautlos das Om

zu sprechen , das Wort der Worte , es lautlos in sich hinein

zu sprechen mit dem Einhauch , es luatlos aus sich heraus

Zu sprechen mit dem Aushauch . mit gesammelter Seele , die

Stirn umgeben vom Glanz des klardenkenden Geistes

(وقد فهم كيف يلفظ الأوم ، كلمة الكلمات ، بلا صوت ـ أن يلفظها إلى داخله بلا صوت مع الشهيق ، وأن يلفظها بلا صوت إلى خارجه مع الزفير ، بنفس مستجمعة وقد كلل الجبين لمعان الروح المفكرة بوضوح).

فؤاد كامل : " وعرف أيضاً كيف ينطق كلمة (أوم) صامتاً ، وهذه الكلمة التي هي أمّ الكلمات ، وكيف يلفظها في دخيلة نفسه مع

دخول الشهيق ، وعندما ينفث الزفير بجماع روحه ، وقد شع جبينه وهجاً من الروح الطاهر "

ممدوح عدوان :" ولقد تعلّم كيف يلفظ (أوم) بصمت ، وهذه كلمة الكلمات ، على المرء أن يقولها في أعماقه عبر مجرى الهواء فيما هو يزفر بطاقة روحه كلها وجبينه يشع بوهج الروح الصافية ."

تنطوي الترجمتان كلتاهما على عدة أخطاء ، أبرزها أنّ سيد هارتا لم يعد يلفظ الكلمة نحو الداخل مع الشهيق ونحو الخارج مع الزفير ، وإلاّ لأصبح الحديث عن العملية التنفسية بلا معنى . والشاب يزفر " بطاقة روحه " أو " بجماع روحه " ، بدلاً من أن يستجمع قواه النفسية ، علماً بأنّ ربط المسألة بالزفير خطأ يرجع إلى سوء فهم السياق، وعند هيسه يتكلل جبين سيد هارتا بلمعان الروح / العقل المفكر بوضوح ، أمّا عند كامل وعدوان فإنّ الروح " طاهر " و"صافية"، أمّا " التفكير الواضح " فقد حُذف من الترجمتين رغم أنه العنصر الجوهري . والجبين ليس محاطاً بلمعان أو ببريق ، بل يشع روحاً تنعت بالطاهر مرة وبالصافية مرة أخرى . كل هذه الأمور حرّفت معنى الجملة بشدّة. Und er verstan es, im Inneren seines. Wesens den unvergaglichen Atman zu erkennen, der mit dem All identisch ist.

وقد فهم أن يعرف في داخل ذاته أتمان الذي لايفنى ، المتوحد مع الكون).

فؤاد كامل : " وكان قد عرف أيضاً كيف يتعرف على (اتمان) في أعماق وجوده الذي لايتطرق اليه الفناء ، والمتناغم مع الكون ."

ممدوح عدوان :" وتعلم أيضا كيف يتعرف على اتمان في أعماق كينونته الخالدة المتوحدة مع الكون ."

في هاتين الترجمتين تحول فعل (عرف) إلى تعرّف على وكأنه ليس بين هذين الفعلين فارق دلالي . أمّا فعل فهم فأصبح (عرف) أو

(تعلم) . وهيسه يتحدث عن (ذات) ، أمّا المترجمان العربيان فيتحدثان عن (وجود) أو (كينونة) . والأهمّ من هذه الأخطاء الدلالية على مستوى المفردة هو أنّ هيسه يقول عن (أتمان) إنه لايفنى ، وإنه متوحد مع الكون ، أمّا كامل وعدوان فقد نسبا هذه الأمور إلى كيان سيد هارتا أو كينونته ، وهذا خطأ دلالي ناجم عن إساءة فهم السياق والبنية النحوية للجملة .

مما تقدم نستنتج أنّ الترجمتين العربيتين لرواية (سيد هارتا) اللتين تمتا عن لغة وسيطة تنطويان على أخطاء ترجمية دلالية كثيرة ، منها ما هو طفيف ومنها ما هو فادح . وهي أخطاء نجم بعضها عن إساءة فهم المفردات ، بينما نجم الآخر عن إساءة فهم التراكيب والسياقات والوحدات المعجمية الكبيرة كما يلاحظ على الترجمتين كلتيهما ورود حالات من حذف أجزاء من النص . وبالنسبة إلينا سيّان كان مصدر تلك الأخطاء النص الانكليزي الوسيط أم لا ، فما يهمّنا هو المحصلة النهائية ، ألا وهي أنّ الترجمتين العربيتين لرواية هيسه قد شوهتا هذه الرواية تشويهاً لا يمكن تجاهله . أمّا الفارق بين هاتين الترجمتين فهو لايتعلق بالجوانب والمستويات الدلالية بل يتعلق بالمستوى الأسلوبي في المقام الأول . فالترجمة التي قام بها فؤاد كامل هي من النوع العادي الذي لايخلو أسلوبه من تفكك وركاكة ، أمّا ترجمة ممدوح عدوان فهي ترجمة أدبية يتحلى أسلوبها بالتماسك والسلاسة والجمال.

ولكن هل يجوز أن يؤدي بنا هذا الاستنتاج الذي استخلصناه من التحليل الآنف للترجمتين العربيتين لرواية " سيد هارتا " إلى رفض الترجمات التي تمت عن لغة وسيطة بقضها وقضيضها وبصورة إجمالية ؟ لانعتقد أنّ رفضاً كهذا سيكون مجدياً ولامنصفاً . فهو لن يكون مجدياً لأن هذا النوع من الترجمات موجود وله مبرراته وأسبابه التي أدت إلى ظهوره ، وهذا ما تطرقنا إليه في مكان سابق ، ولذلك فإنّ رفضه لن يغير في الأمر شيئاً . وهو لن يكون منصفاً لأنه ينطوي على ...

لمترجمين موهوبين وجادين ، بذلوا جهودا ترجمية مضنية ومبدعة من أجل وضع شيء من أدب هيسه في متناول القراء العرب ، فكيف نقول لهم : ليتكم لم تبذلوا تلك الجهود ؟ من المؤكد أننا نفضل أن تنقل أعمال هيسه عن الألمانية مباشرة ، دون أن نمر بتلك المحطة الوسيطة ، التي تؤدي بالضرورة إلى زيادة احتمالات ابتعاد الترجمة عن تحقيق التعادل الدلالي والجمالي مع الأصل ، ولكنّ هذه الأمنية لم تتحقق في الواقع لأسباب سبق أن أشرنا إليها ، ولو تحققت تلك الرغبة لقلّت الحاجة إلى تعريب تلك الأعمال عن لغة وسيطة . وفي كل الأحوال فإنه يرجع إلى هذا النوع من الترجمة الفضل في تعريب هذا العدد المرموق من أعمال هيسه الأدبية ، ووضعها في متناول المتلقين العرب . فلو اقتصر الأمر على الترجمة عن الألمانية لكان استقبال أدب هيسه في العالم العربي أضيق نطاقاً بكثير مما هو عليه حالياً ، وهذا ما لانتمناه . فإلى الترجمة عن لغة وسيطة يرجع الفضل في ارتفاع عدد كتب هيسه بالعربية إلى اثني عشر ، وفي تحول أدب هيسه إلى محور رئيسي من محاور العلاقات الأدبية العربية - الألمانية الحديثة . فقل أن نجد أديباً ألمانيا حديثاً ترجم من أعماله إلى العربية بمقدار ما تُرجم من أعمال هرمان هيسه ، الذي تفوّق من حيث عدد الكتب المترجمة على توماس مانّ وفرانز كافكا وهاينريش مانّ واريش ماريا ريمارك ، ناهيك عن أولئك الأدباء الذين يتمتعون بمكانة كبيرة في الأدب العالمي ، ولكنّ شيئاً من أعمالهم الأدبية لم يترجم بعد إلى العربية .(٢٠)

٥- راهنية أدب هيسه :

لماذا هذا الاهتمام العربي الكبير نسبياً بأدب هيسه ؟ وما الذي دعا أديباً عربياً معاصراً مثل ممدوح عدوان لأن يعجب بذلك الأدب إلى درجة جعلته يقدم على تعريب ثلاثة من أعماله ؟ أتكمن راهنية أدب هيسه بالنسبة إلينا في الوطن العربي في الجوانب الفكرية والمضمونية لذلك الأدب أم في الجوانب الفنية والجمالية ؟ ليس من السهل أن يقدم المرء إجابات عن هذه الأسئلة ، دون أن تكون الإجابات ضرباً من

التكهنات والتخمين . إلا أنه من الأمور التي يستطيع المرء أنّ يعتمد عليها بهذا الخصوص تلك المقدمات التي كتبها المترجمون العرب لبعض أعمال هيسه التي قاموا بتعريبها . فهذه المقدمات تنطوي على إشارات إلى الأسباب التي حدت بالمترجم لأن يهتم بأدب هيسه وأن يقوم بترجمة شيء منه إلى العربية . ولئن كانت المرحلة المبكرة من استقبال أدب هيسه في العالم العربي قد تميزت بذلك التقديم المستفيض لروايتي " قصة شاب " و " لعبة الكريات الزجاجية " ، فإنّ هذا النوع من التوسيط النقدي قد ندر في المرحلة اللاحقة من ذلك الاستقبال . إنّ القسم الأعظم من الترجمات التي تمت في تلك المرحلة لا يحوي أية مقدمات . فممدوح عدوان لم يكتب مقدمة لروايتي " سدهارتا " و " دميان " اللتين عرّبهما ، وفعل رياض طاهر وسميرة الكيلاني الشيء نفسه . إلاّ أنّ المترجم فؤاد كامل خرج عن هذه القاعدة فزود الترجمة العربية لرواية " سيد هارتا " بتصدير سلط فيه الضوء على الأسباب التي حدت به لأن يترجم هذه الرواية . لقد أحبّها المترجم لأنه وجد فيها " شطراً كبيراً " من نفسه ، هو البحث عن الذات الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى معرفة الله سبحانه وتعالى (٢١) . إنّ " سيد هارتا " في رأي المترجم، قصة " وجودية " ، ليس بالمعنى الشائع للكلمة ، بل بمعنى البحث والخلاص بطريقة فردية وشخصية جداً ، ومن خلال التجربة الحية ، لامن خلال النظريات والتجريدات . ترى هل يشارك كثير من المتلقين العرب مترجمنا رأيه هذا ؟ أهم كثر أولئك العرب الذين يبحثون عن الحقيقة والخلاص بهذه الطريقة " الوجودية " ؟ وهل يؤدي البحث عن الذات بهذه الطريقة المذكورة " إلى معرفة الله سبحانه وتعالى بالضرورة"؟ لئن كان البحث عن الذات والخلاص على هذا الشكل يعبّر عن حاجة تيار عريض نسبياً في المجتمعات الأوروبية ذات الحضارة الصناعية المادية القائمة على العلم والتقنية والعقلانية ، وهي حضارة تفتقر إلى الروحانيات ، فهل ينطبق ذلك على المجتمع العربي ؟ إنّ هذا المجتمع ليس مجتمعاً صناعياً تسود فيه حضارة مادية ، بل هو جزء من

المجتمعات الشرقية التي تملك تراثاً روحانياً ضخماً تفتخر به وتتباهى على المجتمعات الغربية . فالمجتمع العربي ليس بحاجة إلى استيراد ثقافي روحاني من الهند ، لأنّ الروحانيات متوافرة في ثقافته بكثرة ، بل هناك في هذا المجتمع تيار قوي ينادي بالأخذ بأسباب الحضارة المادية الغربية وما تحققه من رخاء وحرية . إنّ تياراً كهذا لن يجد في طريق الخلاص التي نادى بها هيسه في بعض أعماله الأدبية المتأثرة بالثقافة الهندية ضالته المنشودة . ولكن بالمقابل فإن التيار الفكري العربي الذي يرفض مادية الغرب ويدعو إلى التمسك بروحانية الحضارة العربية الإسلامية ، التي يعتبرها مكوناً أساسياً من مكونات هويتنا الحضارية ، سيجد في بعض أعمال هيسه الأدبية وما تنطوي عليه من توجهات فكرية ما يدعم توجهه ويؤكد صحة ذلك التوجه . فها هو علم بارز من أعلام الثقافة الغربية يدير ظهره للحضارة الغربية المادية ، ويبحث عن الخلاص في روحانية الشرق ، مقدّماً بذلك شهادة ثمينة على صحة الطريق الشرقي، طريق الروحانية ، وإفلاس الطريق الغربي ، طريق المادية . إنّ العرب طرف خاسر ومقهور في التاريخ الحديث ، احتل واستعمر وتعرض للهيمنة اقتصاديا وعسكرياً وثقافياً من قبل الغربيين أصحاب الحضارة المادية من عقدة الدونية الجماعية تجاه الغرب وحضارته [٢٢] . ثم يأتي أديب غربي مشهور وحائز على جائزة نوبل للآداب ، ويقول إنّ الثقافة الغربية التي يعاني العرب من هيمنتها هي ثقافة مأزومة ، ثم يبحث عن الخلاص لدى إحدى الثقافات الشرقية ، أليس من المنطقي أن يرحب العرب بهذا الأديب وأن يهتموا بأدبه ويحتفوا به ؟ كم احتفينا بالفيلسوف الفرنسي روجي غارودي بعد أن تخلى عن الفلسفة الماركسية المادية واعتنق الإسلام [٢٣] ؟ وكم احتفينا بالمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه لأنها أنصفت إنجازاتنا الحضارية التاريخية ؟[٢٤] إننا متعطشون إلى أية بادرة تأتي من جانب ممثلي الحضارة الغربية لتعيننا على تأكيد هويتنا الثقافية المزعزعة وتدغدغ نرجسيتنا الثقافية الجريحة .

وذلك هو في رأينا مصدر رئيس للراهنية الفكرية التي يتمتع بها أدب هيسه في العالم العربي .

أمّا الوجه الثاني لتلك الراهنية فيتمثل في ما وصفه المترجم فؤاد كامل " بالطابع الفردي والشخصي جداً في البحث والخلاص ... والالحاح على الفردية واضح كل الوضوح (٢٥) . مامعنى أن يكون الخلاص فردياً؟ إنه يعني أنّ ذلك الخلاص لا يمكن أن يكون جماعياً، من خلال الانضواء تحت ايديولوجيا أو عقيدة أوتعاليم، بل يكون فردياً شخصياً، يتوصل إليه كل انسان من خلال تجربته الخاصة. إنّ الإلحاح على تجربة الخلاص ينطوي في الواقع على رفض للإيديولوجيات الشمولية مهما بدت تعاليمها وشعاراتها مقنعة ومتماسكة. فليس المهم مايقوله أصحاب تلك الايديولوجيات بل ما يفعلونه. وانطلاقاً من هذه القناعة رفض هيسّه أهم ايديولوجيتين شموليتين ظهرتا في هذا القرن، أي الفاشية والشيوعية، ورفض العقائد والنظريات كلها. لقد وصف هيسه أعماله الادبية بأنها "نداءات استغاثة يطلقها الانسان/ الفرد المحاصر ". وهذه الرسالة الفكرية هي ما خاطب المترجم فؤاد كامل وجعله يحبّ رواية "سيدهارتا". ومن المؤكد أنّ لتلك الرسالة راهنية عربية كبيرة، وذلك منذ أن انتشرت في الوطن العربي ايديولوجيات وأنظمة حكم شمولية تنتهك حقوق الانسان وتمارس ضده أشكالاً بشعة من القمع، مستخدمة شعارات وتعاليم براقة مضللة. وعلى قدر القهر الذي يعاني منه الإنسان العربي يكون اهتمام هذا الانسان بأدب هيسّة الذي يعبّر عن تطلعه إلى الخلاص. ولكنّ الاهتمام العربي بأدب هيسّه لايمكن أن يرد إلى راهنية الرسالةالفكرية التي ينطوي عليها ذلك الأدب فحسب، بل لابد من أن يرتبط أيضا بالسمات الجمالية لذلك الأدب. فهيسة ليس فيلسوفاً يقدم أفكاره للمتلقي بصورة مباشرة عبر مؤلفاته، بل هو أديب يبث رسالته الفكرية من خلال أعمال روائية قصصية وشعرية. وعلى صعيد الشكل الفني فإنّ هيسة قد صاغ

رواياته وقصصه بأسلوب بعيد عن التقليعات الحديثة، أي بأسلوب "تقليدي" مألوف، ولكنه أسلوب جميل ، يشد القارىء ويدفعه إلى التوحد مع الشخصيات الأدبية وإلى الاندماج في الأحداث. ولذلك فإنّ المتلقي العربي لايجد أية صعوبة في فهم أدب هيسّه والاستمتاع به جمالياً وفكرياً. ومن المؤكد أنّ اسلوب هيسه السهل ، الواضح، البسيط شكّل مصدراً آخر للاهتمام العربي بهيّسه وأدبه .

٦ـ مشكلات وحلول :

مهما يكن من أمر فإنّ أدب هيّسه قد شهد في العالم العربي استقبالاً ترجمياً لايستهان به تمثّل في هذه الكتب الاثني عشر الصادرة بالعربية، ناهيك عن النصوص القصيرة التي نشرت ترجماتها في الدوريات العربية ، ولم يتم بعد حصرها بيلوغرافياً. ولكن إذا سأل المرء في المكتبات عمّا هو متوافر من كتب هيّسة المترجمة فلن يعثر إلاّ على كتابين أو ثلاثة في أحسن الأحوال . فقسم كبير من تلك الكتب قد نفدت طبعته ولم تعد طباعته، مثل روايتي " قصة شاب " و " لعبة الكريات الزجاجية" اللتين نفدت طبعتهما الأولى منذ وقت طويل ، ولم تصدر منهما طبعة ثانية. فإذا أخذنا في الاعتبار أنّ " لعبة الكريات الزجاجية" هي رواية هيّسه الأهم جمالياً وفكرياً، أدركنا حجم الضرر الذي يلحقه عدم إعادة طبعها باستقبال أدب هيّسه عربياً. ولكنّ المشكلة لاتقتصر على عدم إعادة الطبع، بل تشمل التوزيع أيضاً .

فالكتاب العراقي مثلاً لايوزّع خارج العراق، والكتاب الاردني قلّ أن يوزع خارج الأردن. ويبدو أنّ الكتابين اللبناني والمصري هما الأفضل توزيعاً لذلك نجد أنّ الترجمة العربية لرواية "ذئب البوادي" الصادرة عن دار نشر لبنانية كانت رواية هيّسه الوحيدة التي شهدت عدّة طبعات وحظيت بانتشار وإسع نسبياً. ولكنّ هذه المشكلة لاتتعلق

بأدب هيّسة وحده، بل هي مشكلة الكتاب العربي بصفة عامة. فهذا الكتاب يؤلف بلغة قومية ، ويمكن أن يستقبل على امتداد الوطن العربي، إلاّ أنّ توزيعه يصطدم بالحواجز الرقابية وبالبيروقراطية القطرية التي تحدّ من انتشاره، وتحصر استقباله في الإطار القطري في أغلب الحالات. وفيما يتعلق بأعمال هيّسه المترجمة إلى العربيّة فمن الملاحظ انها صدرت على امتداد ربع قرن (١٩٦٨ ـ ١٩٩٠) بصورة متقطعة وغير منتظمة زمنياً, وقد توزع نشرها على عدة أقطار وعواصم عربية (القاهرة ـ دمشق ـ بيروت ـ عمان ـ بغداد) ، وعلى عدد كبير من دور النشر (دار الكاتب العربي ، ودار ابن رشد ، دار الشروق ، دار المعارف، دار بن زيدون، دار منارات، دار الشؤون الثقافية العامة ، دار الثقافة الجديدة) ، وقد تولى عمليات التعريب عدد كبير من المترجمين(مصطفى ماهر ، النابغة الهاشمي، ممدوح عدوان، فؤاد كامل، كامل يوسف حسين، عبد الله الصخي، محمد زفزاف، سميرة الكيلاني، طاهر رياض) كل ذلك جعل استقبال هيسه في الوطن العربي مشتتا ومفتقراً إلى الانتظام والتركيز. لقد كان من الأفضل أن تتولى دار نشر عربية واحدة ، لبنانية أو مصرية للأسباب الواردة آنفاً ، إصدار أعمال هيسه المختارة أو الرئيسية في طبعة من عدة أجزاء، توزّع في الأقطار العربية كلها، وتتوافر للقراء العرب بصورة مستمرة. ولقد كان من الأفضل أن توكل عملية الترجمة إلى مترجمين يجيدون اللغة الألمانية وينقلون أعمال هيسه عن لغتها الأصليّة لا عن لغة وسيطة. فالأصل في الترجمة الأدبية هو ترجمة الأعمال الأدبية عن لغات المصدر الأصلية، ولئن كان للترجمة عن لغة وسيطة ما يبررها في بعض الحالات فإنّ ذلك لايعني أن تتحول إلى قاعدة، فهي حلّ اضطراري ليس أكثر. إنّ هذه الإجراءات، إذا طبقت ، كفيلة بأن ترقى باستقبال أدب هيسه في العالم العربي إلى مستوى الحاجة الثقافية العربية، وإلى مستوى المكانة التي يتمتع بها هذا الأدب على الصعيد العالمي. وهذه الإجراءات المقترحة لاتعني إلغاء ماتمّ إنجازه حتى الآن في مجال نقل أعمال هيّسه

إلى العربية، بقدر ما تعني البناء عليه وتطويره. فالترجمات التي تمت عن لغة وسيطة لن تذهب هدراً، خصوصاً وأنّ بينها ما يتمتع بقدر لابأس به من الجودة، بل تراجع وتدقق من قبل أشخاص يمتلكون الكفاءة اللغوية والثقافية اللازمة ، ثم تضمّ إلى طبعة أعمال هيسه المختارة. فبذلك نضمن لتلك الترجمات قدراً كبيراً من التناظر الدلالي والجمالي مع الأصل، ونضع في متناول المتلقين العرب ترجمات جيدة وموثوقة .

بقي أنّ نشير إلى مسالة أخيرة، ألا وهي أنّ استقبال أي عمل أدبي أجنبي لايتوقف على الترجمة فحسب، بل يتوقف أيضاً على التوسيط النقدي ـ التفسيري [٢٦] . وفيما يتعلق بالجانب الأخير من الملاحظ أنّ ماتمّ على هذا الصعيد لايتناسب بأيّ حال مع ماتمّ على الصعيد الترجمي . فقد اقتصر توسيط أدب هيّسه نقدياً على تلك المقدمات التي وضعها المترجمون القسم من أعمال هيسه التي ترجموها، كالمقدمتين اللتين كتبهما مصطفى ماهر لروايتي "قصة شاب" و"لعبة الكريات الزجاجية". وقد حللنا هاتين المقدمتين بصورة تفصيلية في دراستنا "الرواية الألمانية الحديثة" [٢٧] ، وكالمقدمة التي زوّد بها فؤاد كامل الترجمة العربية لرواية "سيدهارتا " . ولكن من الملاحظ أنّ القسم الأعظم من أعمال هيّسه المترجم إلى العربية لم يزوّد بمقدمات ، وجلّ ما زوّد به هو نبذة موجزة جداً عن حياة هيسه وأدبه. ومن اللافت للنظر أيضاً ضآلة الأصداء النقدية التي حظيت بها أعمال هيسه المترجمة في الصحافة العربية، التي لم تنشر إلاّ عدداً قليلاً من المراجعات لتلك الترجمات [٢٨] . وعلى الأرجح فإنّ مردّ ذلك هو أنّ اهتمام النقد الأدبي العربي بالأعمال الأدبية المحلية يفوق اهتمامه بالأعمال الأدبية الأجنبية،وقلّة النقاد العرب الذين يملكون كفاءة ثقافية تؤهلهم لنقد عمل أدبي ألماني . كما لانعرف ولم نسمع عن دراسات وتحليلات نقدية عربية حول روايات هيّسه وقصصه المترجمة، ولم يصدر بالعربية كتاب مونوغرافي جامع حول حياة هيّسه وأدبه،

على نمط تلك الكتب المونوغرافية التي تقدم أعلام الأدب والفكر في العالم[٢٩] . فهذا النوع من التوسيط النقدي هو أفضل طريقة لتقديم أديب أجنبي وتعريف الرأي العام العربي به. ولقد صدرت بالعربية عدة كتب من هذا النوع حول أدباء ألمان، مثل غوته وريكله وكافكا وتوماس مان وبريشت وغيرهم من أعلام الأدب الألماني. ولاشك في أنّ عدم صدور كتاب كهذا حول هرمان هيّسه هو تقصير كبير، يؤدي إلى حرمان المتلقي العربي من إمكان فهم أعمال هيّسه المترجمة إلى العربية في سياقها التاريخي والثقافي الصحيح .

٧- خاتمة :

مما تقدم نستنتج أنّ أدب هرمان هيسه قد شهد في العالم العربي استقبالاً ترجمياً تمثّل في تعريب إثني عشر كتاباً غطّت معظم الأعمال الرئيسة لهذا الأديب . إلا أنّ ذلك الاستقبال الترجمي قد طغى عليه التعريب عن لغة وسيطة، لاعن لغة هيّسه الأصلية. ومما يؤخذ أيضاً على ذلك الاستقبال تشتته وتبعثره على دور نشر وأقطار عربية كثيرة وعلى مترجمين عديدين . أمّا الاستقبال النقدي ـ التفسيري فلم يتمكن من مواكبة الاستقبال الترجمي بصورة مناسبة، واقتصر على مقدمات المترجمين وبعض المقالات. من هنا فإنّ المهمات المستقبلية لتلقي أدب هيّسه في العالم العربي ينبغي أن تكون :

١ـ إصدار أعمال هيّسه الرئيسة أو المختارة في طبعة موحدة ومكونة من عدة أجزاء، لتحل محل الترجمات المتناثرة، وذلك بعد مراجعة الترجمات الموجودة حالياً وتعريب أعمال رئيسة لم تترجم بعد .

٢ـ إصدار كتاب مونوغرافي جامع، تقدّم فيه حياة هيّسه وأدبه وعصره للقارىء العربي بغية تمكينه من فهم الأعمال المترجمة في سياقها الصحيح .

إنّ تحقيق هاتين المهمتين كفيل بأن يرتقي باستقبال أدب هيسه في العالم العربي، وأن يمكن المتلقين العرب من استيعاب ذلك الأدب

والاستمتاع به جمالياً وفكرياً بصورة أفضل. فالاستقبال السليم لأعمال أديب ألماني عالمي المستوى كهرمان هيّسه يوسع أفق المتلقي العربي ويكسبه أبعاداً إنسانية. وفي هذا السياق لايجوز أن يغيب عن أذهاننا أنّ العرب والألمان أمتان تعاني علاقاتهما من حالات سوء تفاهم كبيرة ضاربة الجذور في التاريخ القديم والحديث(٣٠) ، ولاشك في أنّ تعرّف كل من هاتين الأمتين الواقع الاجتماعي والثقافي والنفسي للأمة الأخرى عبر الاطلاع على أدبها مترجماً هو إحدى الوسائل الناجعة لإزالة سوء التفاهم وإحلال التفاهم محله(٣١).

فالترجمة الأدبية قد مثّلت في كل العصور والأزمان جسراً يربط بين الثقافات والشعوب، ويوحد البشرية، محققاً بذلك حلماً ما انفك يراود كبار الأدباء والمفكرين في العالم، ومنهم هرمان هيّسه، الذي تخطى أدبه الحدود اللغوية والثقافية القومية إلى رحاب العالمية بصورة قلّ أنّ تيسرت لأديب ألماني آخر.

■

الهوامش :

(١) هرمان هيّسه (Hermann Hesse) روائي وقاصّ وشاعر وناشر يعتبر من أبرز أعلام الأدب الألماني الحديث. ولد عام ١٨٧٧ في بلدة " كالف " القريبة من سويسرا في أسرة مسيحية متزمتة دينياً، أرادت أن تجعل منه قسيساً، ولكنه قطع تعليمه في إحدى معاهد علوم اللاهوت والتحق بمهنة مدنية، ثم مالبث أن تفرغ للكتابة. هاجر إلى سويسرا وحصل على جنسيتها عام ١٩٣٢ ، وقد اعتبره الحكم النازي (١٩٣٣ - ١٩٤٥) خائناً للأدب الألماني. نال أرفع الجوائز الأدبية: الألمانية والعالمية، ومنها جائزة غوته لمدينة فرانكفورت، وجائزة السلام لتجارة الكتب الألمانية، وجائزة نوبل للآداب التي مُنحت له عام ١٩٤٦. توفي هيّسه عام ١٩٦٢ في بلدة مونتانولا السويسرية .

(٢) حول تاريخ تلك العلاقات راجع الفصل الثاني من كتابنا (١٩٩٣).

(٣) هرمان هيّسه (١٩٦٨) و(١٩٦٩).

(٤) المؤلف نفسه (١٩٧٣).

(٥) حول تارخ دراسة اللغة الألمانية وآدابها في الجامعات المصرية ارجع إلى : ٢٥ عاماً معهد غوته في القاهرة (١٩٨٣) او مصطفى ماهر (١٩٧٤).

(٦) لمزيد من المعلومات حول هذا الأديب المترجم راجع : أديب عزت (إعداد) (١٩٨٤).

(٧) فيما يتعلق بتاريخ استقبال الأدب الألماني في العالم العربي راجع بحثنا (١٩٨٨) . والفصل الثاني من كتابنا (١٩٩٣).

(٨) حول استقبال أدب هرمان هيّسه في العالم راجع :
Martin Pfeifer Hg : (1977) u (1979).

(٩) لاتطبق هذه المقولة على أدب هيّسه وحده بل على استقبال الأدب الألماني برمته، وعلى استقبال الفكر الألماني أيضاً. فقد تعرّف العرب مؤلفات

غوته وشيلر وكانت وهيجل ونيتشه وماركس وفرويد وأدلر وأعلام مدرسة - فرانكفورت من خلال الترجمة عن لغة وسيطة بالدرجة الأولى. لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة راجع بحثنا (١٩٨٩) و (١٩٩٠)، وبسام طيبي (١٩٨١).

(١٠) لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة راجع كتابنا (١٩٩٢)، ص ١٣٥- ١٤٠.

(١١) راجع بهذا الخصوص: (جوته ١٩٨٠) ويوهان ف. جيته (١٩٨٩).

(١٢) راجع فريدرش شلر (١٩٨١) و(١٩٨٢)، وبحثنا النقدي حول هاتين الترجمتين (١٩٨٦).

(١٣) لقد برهنا على صحة هذه المقولة عبر تحليلات نقديّة تفصيلية تناولنا فيها عددا من الروايات الألمانية المترجمة إلى العربية. راجع كتابنا (١٩٩٣).

(١٤) راجع بهذا الخصوص: Jiri levy (1969) Katharina Reiss (1971)

(١٥) انظر: هرمان هيسه (١٩٨٥) ص ٩.

(١٦) انظر: هرمان هيسه (١٩٨٦) ص ١٤ وتتمتها.

(١٧) نفسه ص ١٣.

(١٨) انظر Hermann Hesse (1972) S. 7 :

(١٩) لقد وضعنا هذه الترجمة بين هلالين بعد النص الألماني مباشرة.

(٢٠) لمزيد من التفصيلات راجع كتابنا (١٩٩٣).

(٢١) انظر: هرمان هيسه (١٩٨٥) ص ٣.

(٢٢) بهذا الخصوص راجع: علي زيعور (١٩٨٢).

(٢٣) راجع: روجيه غارودي (١٩٨٣).

(٢٤) راجع زيغريد هونكه (١٩٨٦).

(٢٥) انظر: هرمان هيسه (١٩٨٥) ص ٤.

(٢٦) راجع الفصل المتعلق بالتوسيط النقدي من كتابنا (١٩٩٢).

(٢٧) بهذا الخصوص راجع كتابنا (١٩٩٣).

(٢٨) لقد نشرت جريدة تشرين السورية مراجعات قصيرة لروايات هيسه "ذئب البوادي" و "سيدهارتا" و "دميان ."

(٢٩) تصدر هذه الكتب في سلاسل أهمّها سلسلة "الإعلام" التي تصدر ضمن منشورات وزارة الثقافة السورية، وسلسلة نوابغ الفكر الغربي ، المصرية، وسلسلة "أعلام الفكر العالمي" اللبنانية .

(٣٠) بخصوص العلاقات العربية - الألمانية راجع بحثنا (١٩٩٢) و :

Mohammad Abediseid (1976) Karl kaiser Udo Steinbach (Hg) (1981)

(٣١) راجع بهذا الخصوص بحثنا (١٩٩١).

■

مراجع البحث ومصادره :

- جوته ، يوهان فولفغانغ (١٩٨٩) : فاوست ١ - ٢ ترجمة وتقديم د. عبد الرحمن بدوي. الكويت : وزارة الإعلام .
- زيعور ، علي (١٩٨٢) : التحليل النفسي للذات العربية. بيروت : دار الطليعة .
- شلر، فريدرش (١٩٨١) : اللصوص . ترجمة وتقديم د. عبد الرحمن بدوي، الكويت، وزارة الاعلام .
- طيبي بسّام (١٩٨١) : حول حركة الترجمة العلميّة والأدبية من اللغات الأوربية إلى العربية . في : شؤون عربية ، العدد ٧ ، ١٩٨١.
- عبود ، عبده (١٩٨٨) : الأدب الألماني مترجما إلى العربية . في ، الموقف الأدبي ، العدد ٢٠٢ - ٢٠٣ .
- عبود ، عبده (١٩٨٩) : اللغة الألمانية من منظور ثقافي عربي. في : مجلة جامعة البعث، العدد السادس .

- . , د عبده (١٩٨٠) : مشكلات التعريب عن الألمانية. في الموقف الأدبي: العدد ٢٢٧ - ٢٢٨ .

- عبود ، عبده : حول دور الترجمة الأدبية في تشكيل صورة العرب في الأقطار الأوربية والغربية . في هذا الكتاب .

- عبود عبده (١٩٩١ ـ ١٩٩٢) : الأدب المقارن. مدخل نظري ودراسات تطبيقية. حمص: منشورات جامعة البعث .

- عبود ، عبده: (١٩٩٢) : الحلقة المفقودة في الحوار العربي ـ الألماني . في : المعرفة، العدد (٣٤٦) .

- عبود ، عبده ١٩٩٣ .) : الرواية الألمانية الحديثة. دراسة نقدية مقارنة. دمشق منشورات وزارة الثقافة .

- عزّت ، أديب (إعداد) (١٩٨٤) : إتحاد الكتاب العرب. ط٢ - دمشق .

- ماهر ، مصطفى (اعداد وترجمة)(١٩٧٤) : ألمانيا والعالم العربي. بيروت: دار صادر .

- هونكه، زيغريد (١٩٨٦) : شمس العرب تسطع على الغرب. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، ط ٨ ، بيروت : دار الآفاق .

- هيسه، هرمان(١٩٨٦) : قصة شابّ ،ترجمة وتقديم د. مصطفى ماهر ، القاهرة: دار الكاتب العربي .

- هيسه ، هرمان (١٩٨١) : الرحلة إلى الشرق. ترجمة ممدوح عدوان، بيروت : دار الشروق .

- هيسه ، هرمان (١٩٨٥) سيدهارتا . ترجمة وتقديم فؤاد كامل، القاهرة: دار المعارف .

- هيسه ، هرمان (١٩٨٦) : نولب الربيع المبكّر. ترجمة كامل يوسف حسين، بيروت : دار ابن زيدون .

- هيسه ، هرمان (١٩٨٦ | آ) : . هارتا. ترجمة ممدوح عدوان. عمان : دار منارات .

- هيسه ، هرمان (١٩٨٦/ ب) : أبناء من كوكب آخر. ترجمة عبد الله صخي . بيروت .
- هيسه ، هرمان (١٩٨٨) المتشرد . ترجمة محمد زفزاف . بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة .
- هيسه ، هرمان (١٩٨٩) : دميان. ترجمة ممدوح عدوان . عمّان: دار منارات .
- هيسه ، هرمان (١٩٨٩ /آ) : الرحلة إلى الشرق. ترجمة سميرة كيلاني، القاهرة ، دار الثقافة الجديدة .
- هيسه ، هرمان (١٩٩٠) : تجوال. ترجمة طاهر رياض، عمّان : دار منارات .
- Abediseid , Mohammad (1976) : Die deutsch - arabischen Beziehugen probleme und krisen . stuttgart .
(محمد عابدي ـــ سعيد : العلاقات العربية ـ الألمانية . مشكلات وأزمات. شتوتجارت ١٩٧٦).
- Hesse , hermann (1972) : Siddharta Eine indische poesie . frankfurt M . Suhrkamp
(هرمان هيسه: سيدهارتا. شعر هندي. فرانكفورت ١٩٧٢).
- Kaiser , Karl Udo steinbach (H.g) (1981) : Deutsch - arabische Beziehungen . Munchen .
(كارل كايزر / اودو شتاينباخ (تحرير) : العلاقات العربية الألمانية. ميونيخ ١٩٨١).
- levy , jiri (1969) : Die literarische Ubersetzung . th eorie einer kunstgattung . Frankfurt M . bonn .
(جيري ليفي: الترجمة الأدبية نظرية جنس فنيّ. فرانكفورت - بون ١٩٦٩).
Reiss Katharina (1971) : Moglichkeiten und Grenzen der Ubersetzungs - Kritik . munchen.
(كارتا رايس: إمكانات وحدود نقد الترجمة. ميونيخ ١٩٧١).

***

٣-٥ أدب الأطفال المترجم في سورية

إذا ألقى المرء نظرة على ما صدر ضمن منشورات وزارة الثقافة في القطر العربي السوري خلال الأعوام الخمسة المنصرمة من كتب أطفال ، فإنّ أول ما يلفت انتباهه هي ظاهرة كون القسم الأعظم من هذه الكتب مترجماً وليس مؤلفاً. ولكي نكون أكثر دقة فقد صدر ضمن تلك المنشورات بين ١٩٨٨ و ١٩٩٢ ثمانية وثلاثون كتاب أطفال، خمسة وعشرون منها مترجم، أي أنّ نسبة الكتب المترجة إلى مجمل كتب الاطفال المطبوعة تبلغ سبعين بالمائة. (١).

لماذا نسوق هذه الارقام، وماالذي تعنيه النسبة المئوية الأخيرة؟ من المعروف أنّ وزارة الثقافة هي المنتج الأهم والأول لكتب الأطفال في قطرنا، يليها من حيث الأهمية " اتحاد الكتاب العرب"، ثم بعض دور النشر الخاصة. ولعلّ أهم ما تعنيه الأرقام التي أوردنا آنفاً ، هو أنّ أدب الأطفال المترجم يحتل المرتبة الأولى بين مايصدر عموماً في قطرنا من كتب أطفال. ومن هنا تنبع أهمية معالجة هذا الموضوع ودراسته. (٢)
ومن جهة أخرى فإنّ أدب الأطفال المترجم في قطرنا يشكل جزءاً من أدب الأطفال العربي السوري، لامن الآداب الأجنبية المرسلة. فقد نقله مترجمونا عن لغاته الأصلية(لغات المصدر) إلى العربية (لغة الهدف)، بعد أن قاموا باختياره من بين كم هائل من كتب الأطفال التي تصدر باللغات الأجنبية. كذلك فإنّ مستقبلي هذا الأدب هم الأطفال

العرب السوريون، ومعهم جزء من أطفال الوطن العربي ، ولذا تنطبق عليه الموضوعة القائلة أن الأدب المترجم يمثل جزءاً من الأدب القومي للغة المستقبلة "المنقول اليها"، لا اللغة المرسلة "، المنقول عنها ". صحيح أنّ للاعمال الأدبية المترجمة جذوراً أجنبية، ولكنّ هذه المسألة تفقد أهميتها على الصعيد "البراغماتي" كما يقول الألسنيون، أي على صعيد علاقة النص بالمتلقي .

أية أعمال نترجم ؟

إذا صحّ هذا فما هي أوضاع أدب الأطفال المترجم في سورية؟ ما هي لغات المصدر بالنسبة لهذا الأدب، وماهي أجناسه الأدبية، ومن هم صناعه، أي مترجموه ومعدّوه؟

إذا تصفحنا فهارس منشورات وزارة الثقافة، فسرعان ما يتبين لنا أنّ هنالك ثلاث لغات مصدر رئيسة لكتب الأطفال المترجمة الصادرة ضمن تلك المنشورات، هي :

الفرنسية والانكليزية والألمانية. فمن بين خمس وعشرين كتاباً مترجماً صدرت في الأعوام الخمسة الأخيرة ترجم خمسة عشر كتاباً عن الفرنسية، وخمسة كتب عن الإنكليزية، وأربعة كتب عن الألمانية[٣]، أمّا باقي لغات العالم، بما في ذلك لغات أوربية رئيسية، لامن حيث متكلميها فحسب، بل من حيث أدب الأطفال المكتوب فيها، كالاسبانية والايطالية والروسية والدانيماركية والسويدية والهولنديّة، فهي شبه غائبة، إن لم تكن غائبة تماماً في الواقع. ولانجد في عداد لغات المصدر أية لغة من لغات شعوب العالم الثالث، التي تربطنا بها وشائج التاريخ المشترك والمصير الواحد. من هذه الناحية يمكن القول إنّ أدب الأطفال المترجم في بلادنا منسجم إلى حدّ بعيد مع مجمل واقع حركة الترجمة في قطرنا وفي العالم العربي بأسره، وهو واقع مشوه غير متوازن،

يعكس علاقات الهيمنة وعدم التكافؤ السائدة في العلاقات الثقافية الدولية، التي تمثّل العلاقات الأدبية بين الشعوب جزءاً أساسياً منها. (٤) هذا على صعيد لغات المصدر. أمّا على صعيد المترجمين فمن الملاحظ كثرة عددهم واقتصار غالبيتهم على تعريب عمل واحد خلال الفترة التي نحن بصددها. فقد ظهر على الساحة بين ١٩٨٨ و ١٩٩٢ خمسة وعشرون مترجماً ومترجمة، قام أربعة منهم فقط بتعريب أكثر من عمل واحد، أمّا الباقون فلم ينقل كلّ منهم سوى عمل واحد على امتداد السنوات المذكورة. وهذا يعني أنّ ترجمة أدب الأطفال لا تمثل بالنسبة للسواد الأعظم من المترجمين أكثر من عمل عرضي جانبيّ ، ربما تكون قد أملته مناسبة ما ، كاليوم العالميّ للطفل . أمّا الميل إلى التخصص في ترجمة أدب الأطفال فهو غير ملاحظ إلاّ عند فئة قليلة منهم(٥) . ترى ماذا جعل مثل هذا العدد الضخم من المترجمين يقبل ، ولو موسمياً، على تعريب أعمال من أدب الأطفال؟ أهو الاعتقاد السائد بأنّ ترجمة هذا النوع من النصوص أسهل من سواها؟ أم أنّ فرص نشر كتب الأطفال أوفر من فرص نشر الكتب الموجّهة إلى الكبار؟ أم هي الرغبة في القيام بدور تربوي عبر أدب الأطفال؟ إنها اسئلة يمتلك المترجمون وحدهم أجوبة عنها .

إذا نظرنا إلى المسالة من زاوية الجنس الأدبي للأعمال المترجمة، فإننا نلاحظ غلبة الأنواع القصصية، ولاسيما القصة القصيرة. أمّا الأجناس الأدبية الأخرى من رواية ومسرحية وشعر وكتب مصورة فهي لاتلعب أي دور . وهذا أمر ملفت للنظر، خصوصاً وأنّ حاجتنا إلى مسرحيات الأطفال المترجمة كبيرة جداً على ضوء العجز الذي يعاني منه النصّ الدرامي المحلي . ولاتتوجه كتب الأطفال التي نحن بصددها إلى أطفال في سنّ معيّنة، بل إلى الأطفال اليافعين عموماً. فالمرء لايجد على الغلاف الخارجي أية إشارة إلى سنّ الأطفال المعينيين بالكتاب كأن يكتب: لمن تجاوزوا التاسعة مثلاً. (٦) وفي الواقع ليس بين تلك الكتب ما يناسب هذه الفئة من الأطفال، ونعني بذلك الكتب

المصورة، التي لايلعب النصّ فيها إلاّ دوراً ثانوياً، ويكون الدور الأكبر للصور أو للرسوم. ولهذه الكتب إخراج طباعيّ خاصّ يتمثل في القطع والخط الكبيرين، مما يجعل تكاليف إنتاجها مرتفعة نسبياً. أمّا كتب الأطفال المترجمة والصادرة ضمن منشورات وزارة الثقافة فهي من القطع المتوسط، وقد طبعت أيضاً بحروف عادية متوسطة الحجم. لذا فهي تصلح، وإن لم يشر إلى ذلك بصراحة، لأطفال تجاوزوا سن التاسعة .

ولايلاحظ المرء في أدب الأطفال المترجم هذا أيّ تركيز على مؤلف أجنبي معين، أو على اتجاه معين في أدب ا لأطفال ، ومن النادر أن يمثل مؤلف بأكثر من كتاب واحد. لذا يمكن القول إنّ ما صدر ضمن منشورات وزارة الثقافة متن أدب أطفال مترجم يغطي دائرة كبيرة لابأس بها من بعض آداب الأطفال الأوروبية. ولكنّ اتساع الدائرة لايستطيع أن ينسينا أنّ بين كتّاب الأطفال الأجانب من هو على درجة من الأهمية، بحيث يعدّ من "كلاسيكيي " أدب الأطفال في العالم. وهذه حقيقة تقتضي أن تعرَّب الأعمال الرئيسية لهؤلاء الكتاب، لا أن نعامل الكتاب كلّهم على قدم المساواة. ولكنّ المؤسف أكثر من ذلك هو ألاّ نجد في عداد المؤلفين الذين عرب بعض أعمالهم أسماء أهمّ كتاب الأطفال في العالم، من أمثال السويدية "استريد لندغرين "والألماني "جيمس كروس "والفرنسي "رينيه جيلو " والهولندي " ما يندرت دي يونغ" والايطالي جياني روداري " والدانيماركية سيسيل بودكر" وسواهم من كتاب الأطفال العالميين، الذين حازوا على أرفع جوائز أدب الأطفال، وفي مقدمتها جائزة "هانس كريستان ـ أندرسون" الدولية لأدب الأطفال واليافعين (٧) ،وها نحن نجد أنفسنا قد دخلنا في صلب مشكلة أخرى من مشكلات أدب الأطفال المترجم، الا وهي مشكلة اختيار الأعمال الجديرة بالترجمة . ترى من هو الطرف المؤهل للقيام بهذا الاختيار؟ وماهي الأسس والمعايير التي يتمّ الانتقاء بموجبها؟ تشير

الدلائل إلى أنّ المترجم نفسه كان ومايزال يلعب دوراً أساسياً في هـذه العملية. فهو ينتقـي كتـاب الأطفـال الـذي يرى أنـه حـريّ بالترجمـة، ويقترحه علـى الجهـة المعنيـة بالنشـر. تـرى هـل ينطلـق المـترجمون في اقتراحاتهم من إحاطة كافيـة بـأدب الأطفـال في اللغـة الـتي يـترجمون عنها، ومن تقدير سليم للحاجات الثقافية العربية؟ أم ينطلق كل مـترجم من ذوقه الشخصي، ومـن عـامل الصدفـة الـذي يسـوق إليـه كتـاب أطفال أجنبي، يعجب به ، ويقرر إنّ يترجمـه؟ إنهـا تسـاؤلات لانملـك الإجابة عنها، وكلّ مايمكننا قوله هو أنّ هنالك ما يشـير إلى وجـود نقص في معلومات بعض المـترجمين عـن آداب الأطفـال الموجـودة في اللغات التي يترجمون عنها. ولو لم يكن الأمر كذلك لجـاءت اختيـارات هؤلاء المترجمين مختلفة عمـا كـانت عليـه، ولقـرروا أن يـترجموا كتـب أطفال أهم بكثير من تلك التي أقدموا علـى تعريبهـا. ومـن المؤشـرات التي تدل على عدم إلمام هذا المترجم أو ذاك بأدب أطفـال لغـة مصـدر ، ندرة بل خلوّ كتب الأطفال المترجمة مـن أي تقديـم نقـدي، يعـرّف القـراء الصغـار وذويهـم الكبـار بـالمؤلفين الأجـانب، وبالمجتمعـات والحضارات التي ينتمون إليها ، وذلك على الرغم من أنّ هذا التوسـط النقـدي ضـروري جـداً ، لأنـه يسـاعد المتلقـين العـرب علـى اسـتقبال الأعمـال الأدبيـة الأجنبيـة، بمـا فيهـا أدب الأطفـال المـترجم، بصـورة سليمة. (٨).

لئن كنّا قد أشرنا أعلاه إلى كبـار كتـاب الأطفـال في العـالم ، ولاسيما إلى أولئك الذين حازوا على جائزة "هانس ـ كريستيان ـ

أندرسون" ، فإننا لانريد أن يفهم كلامنا كدعوة إلى الاقتصـار على تعريب أعمال المشهورين مـن كتـاب الأطفـال الأجـانب. فشـهرة هؤلاء تستند إلى أسـس قائمـة في مجتمعـاتهم وحضـاراتهم ، أي في علاقاتهم بمتلقيهم الأصليين، الذين كتبوا هـذه الأعمـال مـن أجلهـم ، والنجاح الكبير الذي أحرزته أعمال هؤلاء الكتاب في بلادهم، لايعـني

بالضرورة أنّ تلك الأعمال ستلاقي النجاح نفسه، عندما تنتقل عبر الترجمة إلى مجتمعات وحضارات أخرى، كا لمجتمع العربي وحضارته. فعندما يتجاوز العمل الأدبي حدوده اللغوية والحضارية، يتغيّر مستقبلوه، ويصبح بالتالي في وضع استقبالي جديد، قد ينجح فيه أو يفشل، لأنّ لمستقبلي الترجمة أفقاً فكرياً وسيكولوجياً وجمالياً قد يختلف بصورة جذرية عن أفق مستقبلي هذا العمل في لغة المصدر. وذلك هو بيت القصيد، كما يقال. وتترتب على هذه الإشكالية نتيجتان: أولاهما أنّ على المترجم ألاّ ينتقي الأعمال الجديرة بالترجمة انطلاقاً من الشهرة التي يتمتع بها المؤلف في المجتمع المرسل، بل أن يبني اختياره على أسس جديدة تماماً، هي الحاجات الحضارية للمجتمع المستقبل، وقدرة المتلقين الجدد على استيعاب العمل الأدبي المترجم. فإذا كان هذا العمل غريباً وبعيداً جداً عن أفقهم سيصعب عليهم استقباله، وسيصطدم العمل المترجَم بعقبة كأداء ، قد تؤدي إلى إفشال العملية الاستقبالية برمتها. أمّا النتيجة الثانية فهي أنه لابدّ من مدّ يد العون النقدية للمتلقين، ولاسيما الصغار منهم، ومن مساعدتهم على استيعاب العمل الأدبي الأجنبي، وذلك من خلال "مقدّمة" وعبر الهوامش النقدية، التي يُشرح فيها ما هو غريب وغامض وغير معروف من خلفيات تاريخية وحضارية واجتماعية.

كيف نترجم؟

هنالك إلى جانب الاختيار الصحيح للأعمال الجديرة بالتعريب ، عامل آخر يلعب دوراً حاسماً في نجاح أو فشل استقبال العمل الأدبي الأجنبي، ألا وهي نوعية الترجمة. فاستقبال أعظم الأعمال الأدبية قد يلاقي الفشل الذريع، إذا كانت نوعية الترجمة رديئة أو غير مناسبة. والأمثلة على ذلك، أكثر من أنّ تعدّ[٩] . وعلى هذا الصعيد يكون دور المترجم حاسماً، بل يمكن القول إنّ مصير العمل الأدبي الأجنبي بين يديه، وهو أمانة في عنقه.

يمثّل أدب الأطفال جنساً خاصاً من الأدب، وتتطلب ترجمته بالتالي طريقة تتناسب مع خصوصيته. وتتجلى هذه الخصوصية على مختلف الصعد: المعجمية والنحوية والاسلوبية والمعمارية. فأدب الأطفال مكتوب لمتلقين يمتلكون على الصعيد المعجمي مخزوناً لغوياً محدوداً من جهة، وقريباً من اللغة الدارجة من جهة أخرى(١٠)، والبلاغة في أدب الأطفال تختلف عن البلاغة في أدب الكبار. فإذا كان من الجائز في الأخير استخدام ألفاظ وتعابير قديمة أو عويصة ووعرة، قد تنطوي على إشارات إلى نصوص قديمة كالأدب الجاهلي والإسلامي والقرآن الكريم مثلاً ، وذلك انطلاقاً من افتراض أنّ بوسع القارىء أن يستوعب مثل هذا الأسلوب، بل وأن يستمتع به، فإنّ مثل هذا النوع من "البلاغة" غير جائز في أدب الأطفال، لأنّ شروط استيعابه غير متوافرة. فهو يحمّل الأطفال وأفقهم ما لاطاقة لهم على تحمّله ، ولا نبالغ أبداً إذا قلنا إنّ مثل هذا النوع من البلاغة التي في غير مكانها، قد يؤدي إلى إفشال استقبال العمل الأدبي المترجم، وإلى جعل القراء الصغار يُعرضون عنه تماماً . أمّا أبسط مايترتب على هذه الحقيقة من نتائج بالنسبة لترجمة أدب الأطفال ، فهو ضرورة أن يبتعد المترجم عن تلك المفردات والتعابير والتراكيب اللغوية، التي يمكن أن يجد الأطفال صعوبة في فهمها واستيعابها. وعلى صعيد تركيب الجملة ونحوها فمن البديهي ألاّ يكون الطفل قادراً على فهم الجمل الطويلة المعقدة التركيب. ولذا من الضروري أن تكون الجمل في أدب الأطفال قصيرة أو متوسطة الطول، وأن تكون بسيطة في بنيتها النحوية.

وعموماً ينبغي أن يكون الأسلوب سلساً متماسكاً وخالياً من ذلك التفكك الذي يلاحظ في كثير من الترجمات الأدبية، وهو ضعف أسلوبي يؤدي إلى جعل القراء ينفرون من الترجمات، ويرون فيها خطراً على حسّهم اللغوي والأسلوبي. فجمال الأسلوب ورشاقته ... الحدّ الفاصل بين أدبية نصّ ما وعدم أدبيته. كذلك لا يقتصر دور

اللغة في الترجمة الأدبية، وفي النصوص الفنية الجمالية بوجه عامّ ، على نقل المعنى أو الدلالة، بل تمتلك اللغة في هذه الحالة وظيفة إضافية هي الوظيفة الجمالية ، وتلك مسالة بالغة الأهمية في الترجمة الأدبية عموماً، وفي ترجمة أدب الأطفال على وجه الخصوص . (١١) فالكثير من الترجمات الأدبية يفتقر إلى ذلك الجمال اللغوي ـ الأسلوبي، الذي يؤثر بوساطته في المتلقي و "يسحره" أو "يخلب لبّه" كما يقال. وفي أدب الأطفال المترجم بالذات لايجوز التخلي عن القول المعروف: "إنّ من البيان لسحراً ". فالترجمة ينبغي أن تمارس على قارئها "السحر " نفسه، أي التأثير الجمالي نفسه الذي يمارسه العمل الأصلي على متلقيه. وهذا ما اصطلح علماء الترجمة على تسميته: " التناظر الجمالي" أو :" التعادل الأسلوبي" ، أي أنْ تتعادل الترجمة مع الأصل من الناحيتين : الجمالية والأسلوبية، وألاّ تقل عنه جمالاً ورشاقة وسلاسة. وهذا هو المعيار الذي يجدر بنا أن نتخذه أساساً لتقييم نوعية الترجمة في أدب الأطفال المترجم أيضاً(١٢).

وبالطبع فإننا لاننوي في هذه العجالة أنّ نقيّم نوعية الترجمة في كتب الأطفال المترجمة، التي صدرت في سورية خلال الأعوام الخمسة الأخيرة. فمثل هذا التقييم النوعي (اللغوي ـ الأسلوبي) يحتاج لأن يفرد له المرء دراسات مفصلة مستقلة، يقيّم فيها الإنجاز اللغوي والأسلوبي لكل مترجم على حدة ، وهي مهمة لابدّ من أن يشارك فيها باحثون يجيدون لغات مصدر مختلفة، إضافة إلى إلمامهم بقضايا أدب الأطفال . أمّا السؤال المطروح في تلك الدراسات فيجب أن يكون : هل تنطوي هذه الترجمات على التعادل الجمالي والأسلوبي مع الأعمال الأصلية؟ وهل تتسم بذلك الطابع الجمالي الذي يجعل منها نصوصاً أدبية "تسحرّ القارىء وتشدّه اليها؟ أم هي مجرد ترجمات " أمينة" و"رصينة" بالمعنى النّصي والدلالي للكلمة؟ صحيح أنّ الأمانة الدلالية والنصية أمر لايستهان به، ولايجوز التقليل من أهميته، على ضوء ما يشاهد في

"سوق " الترجمة العربية من تشويه لكثير من الأعمال الأدبية العالمية، ولكننا نطالب أدب الأطفال المترجَم في بلادنا بما هو أكثر من ذلك الحدّ الأدنى، الذي هو الرصانة الدلالية والنصيّة، نطالبه بالتكافؤ الجمالي والأسلوبي مع الأعمال الأصلية، دون أن يغيب عن ذهننا أنّ ذلك التعادل مسالة نسبية، وليست مسألة مطلقة بحال من الأحوال. فالتكافؤ الجمالي والأسلوبي المطلق أمر مستحيل التحقيق. أمّا المسألة المطروحة فهي " التعادل الديناميكي" كما يقول علماء الترجمة الذين ينظرون إلى الترجمة كعملية تواصل. (١٣)

ترجمة أم اقتباس ؟

لايمكن لمن يكتب حول أدب الأطفال المترجم في قطرنا أن يتجاهل، أو أن يمرّ مرور الكرام بظاهرة أدبية متصلة بذلك الأدب أوثق الاتصال، ألا وهي " الاقتباس " الذي يحتل موضعاً بين الترجمة والتأليف. وقد تمحورت ظاهرة الاقتباس في أدب الأطفال السوري المترجم حول سعد صائب، الذي أنجز بين ١٩٨٠ و١٩٩٠ ثمانية كتب أطفال مقتبسه، هي ، " الأرنب عفراء"و" مملكة الأزهار " و"الشارع الأخضر" و "مغامرات رشا الصغيرة و" البنت الوفيه" و "الفؤوس الثلاثة" و " حديث جدتي" و "الزهرة الزرقاء" . وقبل أن نناقش اقتباسات سعد صائب نرى من الضروريّ أن نسترجع معاً مفهوم الاقتباس والضرورات الفنية والفكرية لمثل هذه الطريقة الأدبية. فالاقتباس ، كما عرفته قواميس المصطلحات الدولية ونظريات الترجمة الأدبية، هو باختصار إعادة صياغة العمل الأدبي الأجنبي من قبل المقتبس بغرض إعطائه منحى فكرياً جديداً، أو إكسابه على صعيد الأسلوب والشخصيات والمعمارية وغيرها من الجوانب الفنية شكلاً جديداً، يسهّل استقباله في زمن معين، أو بلاد معينة من قبل جمهور معيّن . وفي الحالة التي نحن بصددها لابدّ من أن يكون أحد الأهداف

الأساسية للاقتباس هو جعل قصص الأطفال الأجنبية متناسبة مع الأفق اللغوي والأسلوبي والفكري للأطفال العرب. ويمكن للمقتبس أن يُدخل على العمل الأدبي الأجنبي كافة التعديلات التي يراها ضروريّة، لنزع طابع " الأجنبية " عنه، وإكسابه طابعاً محلياً وطنياً، ييسر استقباله في وسط اجتماعي مختلف جذرياً عن الوسط الذي أنجب العمل الأدبي الأصلي. فالاقتباس إذاً طريقة فنيّة لها ضروراتها ومسوغاتها المضمونية والشكلية، ولها غاية جمالية واستقبالية، أي أنها ليست مجرد وسيلة للتملص من مشاق الترجمة ومسؤولياتها، وفي طليعتها تلك الجهود المضنية التي يبذلها المترجم من أجل أنّ يتوصل إلى معادلات دلالية وأسلوبية وجمالية للعمل الأصلي. والآن ماذا عن مجموعات قصص الأطفال التي اقتبسها سعد صائب؟ وماهي الأهداف الجمالية والفكريةو ــ المضمونة لذلك الاقتباس؟ وماهي الوسائل الفنية التي استخدمها المقتبس في تحقيق أغراضه ومراميه ؟ يبدو لنا أنّ سعد صائب لم يهدف من عملية الاقتباس إلى إعطاء الأعمال المقتبسة وجهة فكرية أو مضمونية جديدة، بل حافظ على المرامي والأغراض الفكرية والتربوية للأعمال الأصلية. كذلك لم يسعَ إلى تغيير معمارية تلك الأعمال، وإعادة تشكيلها من حيث البنية القصصية والشخصيات. وقد انصّبت جهوده على الجانب اللغوي ــ الأسلوبي، وذلك لسبب وجيه على ما نظنّ، هو أنّ المقتبس قد لاحظ مدى الركاكة اللغوية - الأسلوبية، التي يتصف بها كثير من الترجمات الأدبية، فأراد أن يقدّم للأطفال العرب قصصاً أجنبية، ولكن بلغة عربية سليمة، وبأسلوب بليغ جزل، خصوصاً وأنّ لدية على هذا الصعيد ما يقدمّه. وهذا المسعى حميد في حدّ ذاته. فمن ينكر أنّ الترجمات الرديئة لغوياً وأسلوبياً تساهم في تردّي الذوق اللغوي والأسلوبي العامّ، ولاسيما إذا كان مستقبلوها هم الأطفال العرب[١٤] ؟! من هذا المنظور لابدّ لنا من الترحيب بالجهد اللغوي - الأسلوبي الذي بذله سعد صائب، بل نرى أنّ على كل مترجم أن يبذل جهداً كهذا، لكي يأتي العمل المترجم

متعادلاً ومتكافئاً مع العمل الأصليّ أسلوبياً وجمالياً، ويكون لـه بالتـالي تأثير جمالي ممـاثل . فمثـل هـذا الجهـد يدخـل في صميم عمليـة الترجمـة الأدبية ، ولاحاجة لأن نسمّيه" اقتباساً " . فالاقتباس يعني إعادة خلـق العمل الأدبي الأجنبي مـن منظـور فكـري ــ مضمونـي وجمـالي جديـد، ويعني إدخال تغييرات جذرية على العمـل المذكـور، وعلـى المستويات المضمونية والشكلية كافة، فيتحول نتيجة لذلك إلى عمـل محلـيّ برغـم محافظته على إطاره الأجنبي.

وسواء سمينا ما قام به سعد صائب " اقتباساً" أم " ترجمـة حـرّة " أو "ترجمة أدبية" فحسب ـ ونحن نميل إلى التسمية الثانية ـ فـإنّ المهـمّ في الأمر هو أنّ جهود هذا المقتبس أو المترجم قـد انصبت علـى الجـانب اللغوي ـ الأسلوبي في المقام الأول. ولكنّ لأدب الأطفال، كما ذكرنا ، بلاغته وبيانه الخاصين المختلفين عن بلاغة وبيان الأدب الموجّه للمتلقين الكبـار. وانطلاقـاً مـن ذلـك يمكـن أن نسـائل طريقـة سـعد صـائب في "الاقتباس" أو الترجمة. فـإذا كـانت السـمتان اللغويتـان ــ الأأسـلوبيتان الأساسـيتان، اللتـان ينبغـي توافرهمـا في أدب الأطفـال همـا السـهولة والبساطة على الصعيدين المعجمي والنحوي، فمـن الواضـح أنّ المقتبـس قد آثر أن يسلك طرقاً أخرى، كثيراً ما نعتـت بـالوعورة والتقعـر . ولكن بغض النظر عن التسميات فإنّ المقصود هـو أنّ سـعد صـائب قـد اختار لما اقتبسه من قصص أطفال معجماً لايخلـو مـن الصعوبـة والبعـد عن الثروة اللغوية للطفل العربـي المعـاصر. وإذا كـان أحـد الأهـداف الرئيسة للاقتباس هو تسهيل استقبال العمل الأدبي الأجنبي، يصبـح مـن حـق المرء أن يتسـاءل عمّـا إذا كـان ذلـك المعجـم الـذي لايخلـو مـن وعورة، يؤدي إلى مثل هذا الهدف، بل نستطيع أيضـاً أن نتسـاءل عمـا إذا كـان المعجـم المذكـور لايحمـل في طياتـه خطـر إفشـال العمليـة الاستقبالية برمتها. إننا نكتفي بطرح هذه التساؤلات ونمتنع عـن تقديـم إجابات قاطعة عنها، وذلك لأننا نظنّ أنّ اعتبـارات كهـذه لايمكـن أن تفوت مترجماً ومقتبساً ذا خبرة طويلة وغنية مثـل سـعد صـائب. ونحـن

لانستبعد أن يكون وراء " الوعورة" التي يتكلم عنها بعض نقاد صائب اعتبار آخر ، هو أنّ المقتبس يرمي من خلال موقفه اللغوي ــ الأسلوبي إلى تحقيق هدف تربوي ـ لغوي يتمثل في تعويد الأطفال العرب على الأسلوب الجزل البليغ ، وفي إحياء مفردات وتعابير قديمة، ظنّ كثيرون أنها قد اندثرت إلى غير رجعة. تلك مسألة لا نستطيع أن ندلي برأينا فيها، لأنّ الجواب عند سعد صائب نفسه. ولكن حتي إذا صح أنّ مثل هذا الهدف التربوي ـ اللغوي موجود ومقصود ، فإنه يحق للمرء أن يتساءل عما إذا كانت الوسائل اللغوية والأسلوبية التي استخدمها المقتبس تؤدي إلى الهدف المنشود. إنها مسألة نطرحها للنقاش. ومهما يكن من أمر ، فليس هناك من يستطيع أن ينكر أنّ سعد صائب قد قدّم للقرّاء الصغار في العالم العربي عدداً جيّداً من كتب الأطفال القصصية، التي صيغت بلغة عربية سليمة، وبأسلوب جزل متماسك، وهما سمتان إيجابيتان، نتمنى أن تتحلى بهما الترجمات الأدبية كلّها ، ولاسيما تلك الموجهة للأطفال. فاقتباسات كهذه تظلّ في رأينا، أقرب إلى جوهر الترجمة الأدبية ومفهومها من تلك الترجمات "الأمينة" نصّياً ودلالياً ، المفككة الباهتة أسلوبياً.

استنتاجات أولية :

ماهي النتائج التي يمكن استخلاصها من هذا العرض الأولي لواقع أدب الأطفال المترجَم في سورية؟

إنّ أهم النتائج التي يمكن أن يسمح بها هذا العرض هي التالية:

١ ـ من الضروري أن توضع استراتيجية لترجمة آداب الأطفال الأجنبية إلى العربية ، كجزء من استراتيجية ترجمة عامة، تقوم على تقدير سليم للحاجات الحضارية للمجتمع العربي عامة، وللأطفال العرب على وجه الخصوص. فهذه الاستراتيجية هي البديل الوحيد لتلك الاعتباطية الناجمة عن ترك الأمور للذوق الفردي للمترجم، وعن عرضية

توافر كتاب الأطفال الأجنبي المستخدم في الترجمة. إنّ وجود استراتيجية كهذه أمر ضروري إذا كنّا نريد أن يعرّب ما هو جيد وهام مضمونياً وجمالياً من آداب الأطفال الأجنبية.

٢ ـ لئن صحّ ما ذهبنا إليه من أنّ واقع أدب الأطفال المترجم، مثله في ذلك كمثل واقع حركة الترجمة ككل، يعكس البنى المتناقضة وغير المتكافئة في العلاقات الثقافية الدولية، ويعبّر عن انقسام العالم المعاصر إلى ثقافات مهيمنة وأخرى مهيمن عليها، فإنّ من الضروري أن نناضل على جبهة أدب الأطفال أيضاً ضدّ تلك الهيمنة، وذلك باعتبارنا أحد شعوب العالم الثالث التي تتعرّض ثقافتها للغزو التغلغل . وهذا يقتضي إعادة ترتيب الأولويات في حركة الترجمة، بحيث تمثل بصورة مناسبة آداب الأطفال في أقطار العالم الثالث وفي الأقطار الأوربية غير الممثلة حالياً بشكل معقول. ونظراً لأنّ ذلك يتطلب وجود مترجمين يجيدون لغات تلك الشعوب، ويعرفون آدابها جيداً، فإننا لانعتقد أنّ تحقيق هذا المطلب ممكن بمعزل عن تصحيح دراسة اللغات الأجنبية في جامعاتنا، تلك الدراسة التي مازالت محصورة في الأدبين : الإنكليزي ـ الأمريكي والفرنسي.

٣ ـ ونظراً لأنّ نجاح استقبال الآداب الأجنبية، بما فيها آداب الأطفال، يتوقف أكثر من غيره على التقديم النقدي، يصبح من الضروري أن تزود كتب الأطفال المعرّبة بمقدمات نقدية يعرّف فيها القراء الصغار بالمؤلف وبمجتمعه وحضارته بصورة مبسطة وشيقة.(١٥)

٤ ـ ومن المفيد جداً أن تخضع كتب الأطفال المترجمة للدراسة النقدية، التي تقيّم من خلالها النوعية اللغوية ـ الأسلوبية للترجمة، وذلك بغية تشجيع الترجمات الجيدة، وتوجيه النقد إلى الترجمات الرديئة ،وهذا ما يمكن أن يلعب دوراً اساسياً في رفع سوية نوعية الترجمات.

٥ ـ وبالطبع فإنّ النهوض بحركة الترجمة عموماً، وبحركة ترجمة أدب الأطفال خصوصاً، يتطلب إيلاء المترجمين، باعتبارهم العامل الحاسم في حركة الترجمة، ما يستحقون من رعاية واهتمام. فبدون المترجمين الجيدين لايوجد أدب أطفال مترجم جيّد. ومن حقّ هؤلاء أن يحصلوا على أجر يتناسب مع مايتطلبه عملهم من مؤهلات وكفاءات، ومع الجهد الفكري المضني الذي يبذلونه، وهو جهد لايستطيع أن يقدّره بشكل سليم إلاّ من خاض تجربة الترجمة، التي يسود الاعتقاد بأنها مسألة بالغة السهولة.

(٦) أمّا الحق الأساسي الثاني للمترجمين فهو أن تتوافر لهم فرص وإمكانات تطوير قدراتهم وكفاءاتهم كمترجمين، وذلك من خلال شكل من أشكال "التدريب المستمّر" ، أي الدورات والندوات، التي يطلعون فيها على ما توصل إليه علم الترجمة من نتائج، ويتبادلون الخبرات مع بعضهم البعض، ومع المختصين في شؤون الترجمة.

الهوامش :

(١) راجع كذلك فصل "القصص المترجمة "في كتاب سمر روحي الفيصل: مشكلات قصص الأطفال في سورية ، دمشق ١٩٨١ ، ص ٦٦ - ٧٧.

(٢) راجع فهارس منشورات وزارة الثقافة " لأعوام ١٩٨٨ - ١٩٩٢ .

(٣) ترجم كامل اسماعيل "مختارات من حكايات الشعوب ". ونقلت فريزة التجار بالاشتراك مع كاتب هذه السطور كتاب:

أجمل قصص الأطفال (١٩٩٢) ، وهو كتاب يقع في جزأين ويضمّ قصصاً مختارة لكتاب نالوا جائزة هانس - كريستيان - أندرسون لأدب الأطفال. وستصدر ضمن منشورات وزارة الثقافة مختارات من أدب الأطفال الألماني المعاصر بعنوان "الطائر الليلي"، وقد نقلتها فريزة إلى العربية، وقام كاتب هذه السطور بمراجعتها والتقديم لها .

(٤) فيما يتعلق بالبنى المتناقضة في العلاقات الثقافية الدولية راجع كتاب الباحث العربي بسام طيبي : "أزمة العالم الإسلامي الحديث"، ميونيخ ١٩٨١ .

(٥) هذا لايعني بالضرورة أنّ كل مترجمي الفئة الأولى يميلون إلى التخصص في تعريب أدب الأطفال ، أو أنّ اتجاهاً كهذا غير موجود لدى مترجمي الفئة الثانية. ولعل أبرز مثال على ذلك هو المترجم كرم رستم، الذي يعرّب عن الروسية، ولم يصدر له بين ١٩٨٨ و ١٩٩٢ سوى كتاب واحد، بينما لايكاد عدد من مجلة (أسامة) يخلو من قصة أطفال ترجمها بأسلوبه الجيّد، الأمر الذي يدلّ بوضوح على ميل إلى التخصص في تعريب أدب الأطفال .

(٦) درج معظم دور النشر في البلدان الأوربية على ذكر سنّ الأطفال الذين يتوجه إليهم كل كتاب أطفال تصدره. فلماذا لانأخذ بهذا التقليد المفيد؟

(٧) تعتبر هذه الجائزة التي تحمل اسم الأديب الدانيماركي الشهير، وأحد مؤسسي أدب الأطفال في العالم، هانس - كريستان - اندرسن (١٨٠٥ - ١٨٧٥) أهم جائزة لأدب الأطفال واليافعين في العالم. وهي تُمنح مرة كل عامين. هذا ولم يترجم إلى العربية حتى اليوم إلاّ النذر اليسير من أعمال كتاب الاطفال الحائزين على الجائزة المذكورة، والذين يمثلون ما يمكن تسميته بتحفظ "أدب الأطفال العالميّ" الحديث. ويحتوي كتاب "أجمل قصص الأطفال" الذي ترجمه كاتب هذه السطور بالاشتراك مع فريزة التجار (دمشق - منشورات وزارة الثقافة - ١٩٩٢) على نماذج من ذلك الأدب.

(٨) طبيعي أن تختلف هذه المقدمات عن المقدمات التي تتصدر الأعمال الأدبية الموجهة إلى الكبار. فالأطفال لايهتمون بالأمور النظرية والمجردة، ولايتمكنون من استيعابها. لذا ينبغي أن تأخذ مقدمات كتب الأطفال المترجمة طابعاً قصصياً وشخصياً، بحيث تقدم بأسلوب بسيط وشيق معلومات عن الأديب وبيئته الاجتماعية والحضارية، وعن الأطفال في بلاده.

(٩) راجع بهذا الخصوص كتابنا: الرواية الألمانية الحديثة. دراسة استقبالية مقارنة، دمشق منشورات وزارة الثقافة ١٩٩٣. وقد استقصينا في هذه الدراسة أسباب فشل استقبال أعمال روائية لكتّاب عالميين من أمثال: هرمن هيسه و هاينريش مانّ و فرانتس كافكا نتيجة لسوء نوعية الترجمة.

(١٠) حول اللغة والأسلوب في أدب الأطفال راجع: عبد الله أبو هيف، أدب الأطفال نظرياً وتطبيقياً، دمشق ١٩٨٣ ص، ١٥٨ - ١٦٥. وفي جميع الأحوال فإنّ لأدب الأطفال خصوصيته التي لابد من أن يعيها المترجم وأن يستنبط ما يترتب عليها من نتائج أسلوبية ولغوية.

(١١) راجع بهذا الخصوص: فيرنر كولر، مدخل إلى علم الترجمة، هايدلبرغ ١٩٨٣.

وكذلك : جيري ليفي، الترجمة الأدبية، نظرية جنس فنيّ. بون ١٩٦٧ .

(١٢) راجع ف . كوللر ، المصدر نفسه والصفحات نفسها . وانظر كذلك : يوجين نايدا، نحو علم الترجمة ، بغداد ١٩٦٧ .

(١٣) راجع : ف. كوللر ، المرجع السابق ، ص ٨٣ - ٨٨ .

(١٤) تطرقنا إلى هذه المسألة في "بحث الثقافة العربية وقضية الترجمة ."

(١٥) حول دور التوسيط النقدي للآداب الأجنبية، راجع كتابنا: الأدب المقارن - مدخل نظري ودراسات تطبيقية ، حمص ١٩٩٢ ، ص ١٨٥ — ١٩٣ .

(١٦) من المعروف أنّ أجور ترجمة أدب الأطفال بالذات متدنية إلى درجة تدعو للاستغراب، الأمر الذي يثبط همم المترجمين، وقد يدفع بعضهم إلى إنجاز ترجمات تنقصها العناية باللغة والأسلوب. ولا ندري كيف يمكن النهوض بأدب الأطفال المترجم مع استمرار هذا الغبن اللاحق بالمترجمين .

٥ ـ ٤ ـ حول دور الترجمة في تطوير النقد العربي الحديث

"نظرية التلقي نموذجا"

١ ـ النقد الأدبي العربي في إطار مسألة المثاقفة :

من المعروف أنّ النقد الأدبي الحديث في الوطن العربي لم ينشأ نتيجة لتطورات فكرية تمت داخل النقد الأدبي العربي القديم ، وتمخضت عن نقد أدبي جديد ، بل نشأ كإحدى النتائج التي أسفرت عنها عمليات المثاقفة الكبرى التي جرت بين ثقافة العربية والثقافة الأوروبية الغربية ، وهي مثاقفة بدأت في أواسط القرن التاسع عشر للميلاد و لم تزل مستمرة إلى يومنا هذا (١) . ومن المعروف أيضاً أنّ تلك المثاقفة قد جرت بين ثقافة متقهقرة ضعيفة بدأت تستفيق لتوها من انحطاط دام مئات السنين ، اقترب بها من حافة الزوال ، ثقافة مجتمع متأخر تسوده بنى استبدادية هرمة ، بمجتمع متخلف اقتصادياً وعلمياً وتكنولوجياً ، مهزوم سياسياً وعسكرياً ، وبين ثقافة حديثة متطورة مزدهرة ترتبط بمجتمعات ودول متقدمة متفوقة اقتصادياً وتكنولوجياً وعلمياً وسياسياً وعسكرياً . ومن الطبيعي أن تقوم في حالة كهذه إحدى الثقافتين المتفاعلتين بدور المهيمن المرسل المتغلغل المؤثر ، وأن تقوم الثقافة الثانية بدور المستقبل الآخذ المتأثر المهيمن عليه . وذلك شأن كل مثاقفة تجري بين طرفين غير متكافئين . إلاّ أنّ تلك المثاقفة ومع كل ما يعتورها من خلل ، لاتتم إلاّ وفقاً لحاجات الثقافة ...

واهتماماتها واستعدادها للأخذ والاستعاب ، ومن الخطأ أن نتصور أنها تتم بمعزل عن تلك الحاجات والاهتمامات وبمنأى عن "قانون العرض والطلب "(٢).

ولذا نجد أنّ الثقافة المستقبلة ، التي تبدو للوهلة الأولى ضحية للهيمنة والتغلغل الثقافيين ، مما يحمل كثيراً من المفكرين على التحدث عن " غزو ثقافي " ، سرعان ما تتمثل وتستوعب ما استقبلته من مؤثرات ثقافية أجنبية ، فتؤصل بعضه وتحوله إلى مكوّن عضوي من مكونات نسيجها الثقافي الجديد ، وتنبذ ما تبقى لأنه لايلبي حاجة ثقافية أصيلة (٣) . ونتيجة لذلك تتحدث الثقافة المستقبلة وتتجدد بفضل الدماء التي نقلت إلى عروقها ، وتنتقل من حال الضعف والانحطاط إلى موقع النهضة والقوة والازدهار . فالمحصلة النهائية للمثاقفة ، حتى إذا تمت بين طرفين غير متكافئين ، هي لصالح الثقافة المستقبلة . إنها حقيقة ساطعة ، لايجوز أن يحجبها عن بصائرنا غبار تلك الأصوات المرتفعة ، الصادقة أحياناً ، المضللة الديماغوجية في كثير من الأحيان ، التي تريد أن تبقي الثقافة العربية في حال من التخلف والركود والضعف بدعوى محاربة " الغزو الثقافي " و " الأفكار المستوردة " . وتنطبق المقولة الآنفة الذكر على المثاقفة التي جرت على امتداد القرن ونصف القرن الأخيرين بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية الغربية . فقد كانت الحصيلة النهائية لتلك المثاقفة ، وبرغم كل ما شابها من ظواهر سلبية ، لصالح الثقافة العربية . لقد أطلقت تلك المثاقفة ديناميكية ثقافية أخرجت الثقافة العربية من حال الركود والانحطاط إلى التحديث والنهوض والتطور . ولولا تلك الديناميكية لتعرضت الثقافة العربية لخطر الزوال ، الذي لا تحميها منه وثوقيات دعاة العزلة الثقافية . فما أكثر الحضارات التي " سادت ثم بادت " ! تلك حقيقة نجد من الضروري أن نذكّر بها وبشيء من الإلحاح ، لأنّ الانعزالية الثقافية قد عادت للظهور في الساحة العربية ، وأفلحت في استقطاب قطاعات واسعة من الرأي العام

العربي متذرعة بالمحافظة على الأصالة والتراث ، علماً بأنّ أصحاب تلك الدعوة لم يقدموا إنجازات ثقافية إبداعية تستحق الذكر ، وجلّ ما قاموا به هو السعي إلى فرض ثقافة عصر سالف قديم على المجتمع العربي المعاصر ، مستفيدين من تعثر عملية تحديث الأطر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية والتكنولوجية لهذا المجتمع.

وكان النقد الأدبي أحد الميادين الثقافية العربية التي امتدت إليها عملية التحديث والتطوير السابقة الذكر . وقد كانت تلك العملية من الجذرية بدرجة ولدت هوة كبيرة وقطيعة حقيقية بين النقد العربي الحديث والنقد العربي القديم . وهي قطيعة شملت جوانب النقد الأدبي العربي كلها : الفكرية والمنهجية والمصطلحية ، بحيث بات من الممكن القول إنّ النقد العربي الحديث ينتمي إلى الاتجاهات النقدية الغربية أكثر من انتمائه إلى النقد العربي القديم . ومن المؤكد أنّ محاولات جسر الهوة بين النقدين ، تلك المحاولات التي أخذت شكل قراءة التراث النقدي العربي القديم من منظور معاصر ، قد تمت انطلاقاً من مواقع الفكر النقدي الحديث الشديد الاتكاء على النقد الأدبي الغربي ، لا من مواقع النقد العربي القديم . وهذا أمر منطقي . فالتراث ينبغي أن يفحص ويقيّم من مواقع فكرية معاصرة ، ولو تم عكس ذلك لكان نكوصاً فكرياً وهزيمة للحاضر أمام الماضي .

وما قلناه عن طبيعة العلاقة بين النقد العربي الحديث والنقد العربي القديم لا ينتقص من شأن النقد العربي الحديث وإنجازاته . فانفتاح هذا النقد على الاتجاهات والمناهج النقدية الغربية وتفاعله معها واستيعابه لها هو دليل صحة وقدرة على التطور الذي لا بديل عنه إلاّ الجمود والتخلف في عالم تتغير بناه المادية والثقافية بسرعة لا مثيل لها في تاريخ البشرية .

إلاّ أنّ حقيقة أنّ النقد العربي الحديث قد ولد في خضم المثاقفة مع النقد الأدبي الغربي ، ولم يولد في رحم النقد العربي القديم ، قد

طرحت في الساحة النقدية العربية مشكلات وقضايا من نوع خاصّ ، لابدّ للباحثين في شؤون النقد العربي الحديث من أن يتناولوها بالدرس ، وعلى رأس تلك القضايا مسألة الكيفية التي استوعب بها العرب النقد الأدبي الغربي أفكاراً ومصطلحات ، ومدى سلامة ذلك الاستيعاب ونجاعته . فدراسة هذه القضية يمكن أن تساعدنا في تحديد مصدر أساسي من مصادر البلبلة التي يعاني منها النقد الأدبي المعاصر في الوطن العربي ، وتمكننا بالتالي من معرفة سبل تجاوز تلك البلبلة ، والمضي في تطوير النقد الأدبي العربي ليرتقي إلى مستوى النقد الأدبي في الثقافات المتقدمة ، ليؤدي هذا النقد دوره تجاه الأدب العربي والثقافة العربية بالشكل المطلوب.

٢ ـ استيعاب النقد الأدبي الغربيّ :

لكي يكون استيعاب الفكر النقدي الأجنبي ناجعاً يسهم في تحديث النقد الأدبي العربي وتطويره لابد من أن يكون ذلك الاستيعاب رصيناً جاداً ومنظماً ، لا أن يكون استيعاباً سطحياً فوضويا ً أو عرضياً أو موسمياً . وللاستيعاب الرصين مقومات أبرزها :

١ ـ أن يستند إلى إحاطة عميقة وواسعة بالفكر النقدي الأجنبي المراد استيعابه.

٢ ـ أن يؤصّل ذلك الفكر ويدمج في النقد الأدبي العربي ويضاف إلى الأدوات التي يستخدمها ذلك النقد في دراسة الأدب العربي ونقده.

وهذه المقومات الثلاثة ينبغي أن تتوافر في كلّ استيعاب سليم وناجع للنقد الأدبي الأجنبي ، وغياب أي من تلك المقومات الأساسية [illegible] ذلك الاستيعاب وبرصانته ، وينعكس بالضرورة على الساحة [illegible] بصورة سلبية . فعدم الإحاطة بالفكر النقدي الأجنبي [illegible] من خلال الاطلاع عليه والتعمق فيه بلغته الأصلية ،

وعدم الإلمام بالسياق التاريخي وبالأسس النظرية لذلك الفكر ، يجعل نقله إلى العربية وتقديمه للقارئ العربي بصورة سليمة أمراً متعذراً . إنّ نقلاً كهذا ينطوي بالضرورة على كثير من سوء الفهم والأخطاء ، وهو بالضرورة نقل مشوه وناقص . فالاطلاع الوافي والفهم الصحيح للفكر النقدي الأجنبي هما أساس كل استيعاب جدي رصين لذلك الفكر ، وعلى سلامة هذه الحلقة تتوقف سلامة الحلقات اللاحقة من ذلك الاستيعاب . أما فيما يتعلق بالحلقة الثانية من استيعاب الفكر النقدي الأجنبي ، أي نقل ذلك الفكر إلى العربية وتقديمه للقراء العرب ، فإنّ لتلك الحلقة قناتين رئيسيتين هما : الترجمة والعرض . وفي الحالتين فإنّ الناقل ، مترجماً كان أم مؤلفاً ، مطالب بأمرين : ١- أن ينقل الأفكار النقدية الأجنبية بصورة سليمة ودقيقة ؛ ٢- أن يقوم بصياغة وبلورة المصطلحات النقدية الخاصة بالاتجاه أو المنهج النقدي الذي تنتمي إليه تلك الأفكار ، وهي مصطلحات تشكل فيما بينها منظومة أو جهازاً مصطلحياً متكاملاً . إذا أخذنا في الحسبان أنّ الأفكار والمصطلحات النقدية التي تنتقل إلى العربية ستستوطن في الساحة النقدية العربية ، وقد تتأصل فيها وتتحول إلى مكون من مكونات النقد الأدبي العربي ، فإننا نعي حجم المسؤولية الملقاة على عاتق الناقل أو الوسيط ، الذي يرسي بعمله أساس اتجاه جديد ومنظومة مصطلحية جديدة في ذلك النقد . ومن هنا تتأتى ضرورة إيكال هذه المهمة إلى أشخاص أكفاء ، توافرت لهم الكفاءة العلمية واللغوية والثقافية اللازمة ، لا أن تترك للمبتدئين والهواة والمتطفلين من المترجمين والمؤلفين . وتكون خطورة دور الناقل أكبر في حالة الاتجاهات النقدية الأجنبية الجديدة على الساحة النقدية العربية . ففي حالة كهذه يقوم الناقل بدور ريادي تأسيسي ، لأنه يرسي أسس منظومة مصطلحية سيأخذ بها اللاحقون ، وستضاف إلى قاموس النقد الأدبي الحديث .

إنّ مهمة خطيرة كهذه ينبغي أن تسند إلى أشخاص مختصّين في النقد الأدبي ، يملكون الكفاءة العلمية الاختصاصية ، إضافة لامتلاكهم

الكفاءة اللغوية على صعيد لغتي المصدر والهدف ، فبإيكال تلك المهمة إليهم نضمن أن تنتقل الأفكار والمصطلحات النقدية الأجنبية إلى العربية بصورة مناسبة . ولكي يكون استيعاب الفكر النقدي الأجنبي سليماً من الضروري أن يقدم كل اتجاه من الاتجاهات النقدية بصورة وافية وبأبعاده الحقيقية ، لا أن يقدّم بصورة مبتسرة مشوّهة . فتقديم شذرات أو نتف من اتجاه نقدي أجنبي على مبدأ " من الجمل أذنه " هو أمر لا يسدي للنقد الأدبي العربي خدمة مفيدة ، بقدر ما يسهم في زيادة تلك البلبلة الفكرية والمصطلحية التي طالما شكونا منها (٤) . ولعلّ الشكل الأمثل لتقديم اتجاه نقدي أجنبي للرأي العام العربي هو تعريب المؤلفات الرئيسة لممثلي ذلك الاتجاه . فالترجمة الموثوقة لتلك المؤلفات جديرة بأن تقدّم الاتجاه النقدي المُراد استيعابه عربياً بصورة دقيقة ، وأن تتيح للقارئ العربي فرصة الاطلاع على أفكار ذلك الاتجاه ومصطلحاته في سياقها الأصلي الصحيح ، لا في سياق مبتور ، أو عبر " الفلتر " الفكري لمؤلف عربي . إنّ أصحاب الاتجاه النقدي الأجنبي أقدر من سواهم على عرض أفكارهم ، ومن حق القارئ العربي أن يطلع على تلك الأفكار معروضة بأقلام أصحابها .

إلا أنّ هذه الدعوة لا تلغي دور المؤلفين والعارضين العرب في تقديم الفكر النقدي الأجنبّي والتعريف به . فلهذا الشكل من استيعاب ذلك الفكر فوائد وحسنات جمّة ، كسلاسة العرض وشموليته وحسن تجاوبه مع متطلبات الساحة النقدية العربية وما يُثار فيها من قضايا .(٥) ولكنّ وجود ترجمات عربية رصينة للمؤلفات النقدية الأجنبية الأساسية يمثل صمام أمان ومرجعية علمية موثوقة يمكن الاحتكام إليها والاعتماد عليها . فالترجمة لا تلغي دور التأليف في استيعاب الفكر النقدي الأجنبي، بل هما شكلان متكاملان لاستيعاب ذلك الفكر .

إنّ نقل الفكر الأجنبي ووضعه في متناول قراء العربية هي الحلقة الأساسية الثانية من حلقات استيعاب ذلك الفكر وتمثله . أما الحلقة

التالية فيتمثل شقّها الأول في ذلك الحوار الذي ينبغي أن يقوم بين الفكر النقدي الأجنبي الوافد إلى الساحة النقدية العربية وبين الفكر السائد في تلك الساحة . فهذا الحوار ضروري لتوضيح ما بين الفكرين من اختلاف وتطابق أو اتفاق ، وبالتالي لتوضيح المواقع الفكرية للطرفين . ومن المؤكد أنّ البلبلة الفكرية والمصطلحية السائدة في النقد العربي المعاصر ترجع في قسم كبير منها إلى غياب ذلك الحوار وإلى تجاهل كل طرف من الأطراف المتواجدة في الساحة النقدية العربية الأطراف الأخرى . وعندما نتحدث عن " الحوار " فإننا نعني بذلك النقاش وتبادل الآراء بأسلوب علمي رصين ، ولانعني بذلك ما اشتهر في تاريخ النقد الأدبي العربي الحديث بـ " المعارك النقدية " ، التي مثل النقد الأدبي فيها بجرّد واجهة لصراعات إيديولوجية وشخصية . فالحوار العلمي المنضبط الرصين هو وحده الكفيل بتوضيح الحدود بين الاتجاهات والمذاهب النقدية المختلفة ، وبالحدّ من سوء الفهم والبلبلة والتشنج وما شابه ذلك من ظواهر سلبيّة تفشت في الساحة النقدية العربية المعاصرة . وفي كلّ الأحوال من غير الجائز أن تحمّل الاتجاهات النقدية الأجنبية الوافدة إلى تلك الساحة مسؤولية الظواهر الآنفة الذكر، والدعوة إلى اغلاق الأبواب أمام تلك الاتجاهات تجنيباً للنقد العربي المعاصر ما يشهده حالياً من بلبلة واضطراب . إنّ دعوات انعزالية من هذا النوع لا تقدم حلاً لما يعاني منه ذلك النقد من مشكلات ، ولا تؤدي إلا إلى تبطيئ تطور الحركة النقدية العربية ، وإلى إشاعة الركود والجمود فيها ، ناهيك عن أنّ دعوات كهذه محكوم عليها بالفشل المؤكد ، لأنّ هذا العصر هو عصر التبادل والتواصل الثقافي الدولي السريع الكثيف ، لا عصر التقوقع والاكتفاء الذاتي الثقافي .

أما الشقّ الثاني من هذه المرحلة الأساسية من مراحل استيعاب الفكر النقدي الأجنبي فيتمثّل في استخدام ذلك الفكر تطبيقياً في دراسة الإبداع الأدبي العربي ونقده . فالتطبيق هو المحك الحقيقي الذي يُظهر

صلاحية أيّ فكر نقدي وجدواه . وبهذا الخصوص لا بدّ من أن تراعي عدة اعتبارات ، في مقدمتها أنّ كلّ اتجاه نقدي أجنبي هو جزء لايتجزأ من تاريخ النقد الأدبي للثقافة التي ينتمي إليها ، وعلينا بالتالي أن نعي السياق التاريخي ـ النقدي لذلك الاتجاه عندما نقوم باستيعابه . كما لا يجوز أن يغيب عن أذهاننا أنّ الفكر النقدي بدوره هو جزء من سياق تاريخي أوسع ، هو السياق الثقافي والمجتمعي . ومن المهمّ أيضاً أن نعي حقيقة أنّ الاتجاهات النقدية الأجنبية مرتبطة أيضاً بآداب الأمم التي تنتمي إليها ، وقد طورت تلك الاتجاهات أدواتها النقدية لتواكب تطور تلك الآداب ولتتعامل معها بصورة أفضل من جهة ، ولتواكب تطور الفكر والعلوم الإنسانية من جهة أخرى . وهذا يطرح مسألة صلاحية المناهج النقدية الغربية للتعامل مع آداب لم توجد تلك المناهج في الأصل للتعامل معها نقدياً كالأدب العربي . وبهذا الخصوص ثمة رأيان : رأي يقول إنّ المناهج النقدية الأجنبية لا تصلح لأن تطبق إلا على الآداب التي ارتبطت بها تاريخياً ، ولا تصلح للتطبيق على الآداب كلها .(٦) ولأصحاب كلّ من هذين الرأيين حججهم . ومن المؤكد أنّ التناقض بينهما لا يمكن أن يُحسم بصورة نظرية ، بل بصورة نقدية أو تطبيقية ، وذلك من خلال استخدام ما لدى كل من الاتجاهات النقدية الغربية من أدوات نقدية في دراسة النصوص الأدبية العربية نقدياً . ومع أنّ الكلمة الفصل في هذه المسألة لم تُقل بعد فإنّ الدراسات النقدية التطبيقية التي وضعها عدد من النقاد العرب مستعينين فيها بمناهج نقدية غربية كالبنيوية والمادية ـ الجدلية والتفكيكية والسيميائية تدلّ على أنّ صلاحية تلك المناهج لا تقتصر على الآداب الأوروبية والغربية ، بل تشمل آداباً غير أوروبية كالأدب العربي .(٧) صحيح أنّ ذلك التعامل النقدي التطبيقي لا يخلو من مصاعب وإشكالات ، وذلك للأسباب التي تطرقنا إليها آنفاً ، ولكنها مصاعب وإشكالات لا تتعلق بالمبدأ أو بالأساس .

فالمبدأ هو أنّ صلاحية أيّ منهج نقدي لا تقتصر بالضرورة على أدب المجتمع الذي ينتمي إليه ذلك المنهج ، بل تتعدى ذلك إلى الآداب

الأخرى , وفي عالم اليوم على وجه التحديد أصبحت الاتجاهات النقدية اتجاهات عالمية لها تنويعات وطنية أو قومية.

وأخيراً لا بدّ لنا من التنبيه إلى مسألة على درجة كبيرة من الأهمية ،ألا وهي أنّ لكلّ من المناهج والاتجاهات النقدية الغربية أسساً نظرية أو فلسفية . فالمنهج النقدي ليس مجرد أدوات وإجراءات نقدية جاهزة يأخذ بها الناقد ويستخدمها تطبيقياً بصورة آلية بسيطة . ولذا ينبغي أن يترافق استيعاب تلك المناهج مع استيعاب أسسها النظرية والفلسفية . فهذا يمكننا من فهم جوهر كلّ منهج نقدي غربي ، ويساعدنا على أن نطبق ذلك المنهج بطريقة ديناميكية مرنة ، ويقينا من التشبث بقشور وجزئيات غير جوهرية . وعندما نستوعب المناهج النقدية الغربية على هذا الشكل سنكون قادرين على استخدام تلك المناهج في التعامل النقدي التطبيقي مع الأدب العربي بمرونة وإبداعية.

تلك هي في رأينا مقومات استيعاب الفكر النقدي الأجنبي بصورة سليمة ، تجعل من ذلك الاستيعاب عامل تطوير وإغناء للنقد الأدبي العربي، وهي مقومات يؤدي عدم توافرها أو توافر بعضها إلى جعل ذلك الاستيعاب مبتوراً مشّوهاً ، مما ينعكس في الساحة النقدية العربية سلبياً في صورة بلبلة فكرية ومنهجية ومصطلحية يتذرع بها دعاة الانعزالية الثقافية.

فكيف سارت الأمور في الوطن العربي على صعيد استيعاب الفكر النقدي العربي ؟ هل استوعب العرب ذلك الفكر بطريقة رصينة جادة توافرت لها المقومات السابقة الذكر ؟ أم استوعبوه بصورة سطحية عشوائية لا ضابط فيها ولا نظام ؟ إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة بشكل دقيق ومنصف تتطلب استعراض تاريخ النقد الأدبي العربي الحديث في ضوء تفاعله مع النقد الأدبي الغربي ، وتلك مهمّة لا يمكن أن تنجز في بحث واحد ، بل يتطلب إنجازها وضع دراسة تفصيلية مطولّة . إلا أنّ المرء يستطيع أن يجيب عن تلك الأسئلة بطريقة أخرى ،

وذلك بأن يتناول بالعرض والتحليل استيعاب اتجاه أو منهج نقدّي غربي واحد في الوطن العربي . صحيح أنّ هناك فروقاً لا يستهان بها بين استيعاب الاتجاهات النقدية المختلفة ، وأن النتائج التي يتوصل إليها الباحث نتيجة لقيامه بدراسة استيعاب أحد تلك الاتجاهات لا تنطبق على استيعاب الاتجاهات النقدية الأخرى بصورة تامة ، ولكن من المؤكد أنّ دراسة استيعاب أيّ من الاتجاهات والمناهج النقدية الغربية الرئيسة كفيلة بأن تبيّن لنا المشكلات الأساسية لاستيعاب الفكر النقدي الغربي بصفة عامة.

٣- استيعاب نظرية التلقي :

أما الاتجاه النقدي الغربي الذي نودّ دراسة استيعابه عربياً فهو " نظرية الاستقبال أو التلقي الأدبي " . فهذه النظرية هي أحد الاتجاهات النقدية الغربية التي أخذت الساحة النقدية العربية تتفاعل معها إبان العقد الأخير بصورة ملحوظة . وليس أدلّ على ذلك من أنّ مفهوم " التلقي " أو " الاستقبال " والمفاهيم المتفرّعة عنه والمشتقة منه قد أصبحت مفاهيم نقدية شائعة كثيرة الورود والاستخدام في الأدبيات النقدية العربية المعاصرة . ولكن هل يعني انتشار تلك المفاهيم والمصطلحات بالضرورة أنّ وراء ذلك استيعاباً جاداً ورصيناً لنظرية الاستقبال (أو التلقي) الأدبي ؟

إنّ أول ما يلاحظه المرء بهذا الشأن هو أنّ المؤلفات المرجعية العربية في النقد الأدبي الحديث ، أي المداخل والمقدمات والعروض العامة لذلك النقد ، يندر أن تتطرق إلى نظرية الاستقبال (التلقي) الأدبي أو أن تعرضها باعتبارها أحد الاتجاهات الأساسية في النقد الأدبي الغربي المعاصر . ولعلّ الكتاب المرجعي العربي الوحيد الذي تطرق إلى تلك النظرية وخصص لها حيّزاً مقبولاً من العرض هو الكتاب " مناهج الدراسات الأدبية " للناقد التونسي حسين الواد (٨) . ولا

نعرف مرجعاً عربياً آخر في النقد الأدبي الحديث تطرّق إلى نظرية التلقي الأدبي أو عرضها . ولاتنطبق هذه الملاحظة على الكتب المرجعية القديمة نسبيا ، أي التي صدرت في السبعينيات والثمانينيات فحسب ، أي قبل أن تغدو نظرية الاستقبال (التلقي) الأدبي اتجاهاً نقدياً معروفاً على الصعيد العالمي ، بل تنطبق أيضاً على الكتب المرجعية الحديثة التأليف والنشر [٩].

٣ - ١ - لمحة تاريخية :

ليس من اليسير أن يحدد الباحث بشكل دقيق بداية استيعاب نظرية الاستقبال (التلقي) الأدبي في العالم العربي ، وأن يحصر كل ما نشر بالعربية حول تلك النظرية ، لا لكثرة ما نشر ، بل لأسباب عملية معروفة تعيق عمل الباحث ، وهي معيقات تتلخص في أنّ الساحة الثقافية العربية المعاصرة مقسّمة إلى ساحات قُطرية عديدة ، أُحيط كلّ منها بأسوار شاهقة كثيفة تعيق انتشار المطبوعات والمعلومات ، حتى تلك التي لاعلاقة لها بالسياسة ، كالنقد الأدبي على سبيل المثال . إنّ الباحث الذي يعيش في أحد الأقطار العربية لا يستطيع أن يعرف ما نشر في الأقطار العربية الأخرى حول نظرية الاستقبال (التلقي) الأدبي . ، لأنّ القسم الأعظم من الكتب والدوريات التي تصدر في تلك الأقطار ليست في متناول ذلك الباحث . كذلك فإنّ المراجع البيبليوغرافية العربية قد اتخذت بدورها طابعاً قُطرياً أو شبه قُطري ، وليس هناك إلى اليوم بيبليوغرافية عربية حقيقية ، تقدم للقارئ العربي كشفاً بكلّ ما يصدر في العالم العربي بأكمله من مطبوعات . ولذا فإنّ هذا البحث، الذي يعتمد على المعلومات المتوافرة قُطرياً ، ينطوي على ثغرات لا نعرف حجمها بالضبط .

ترجع بدايات استيعاب نظرية التلقي / الاستقبال الأدبي في العالم العربي إلى أواسط الثمانينيات على وجه التقريب . ومن بواكير ذلك

الاستيعاب مقالة للناقد السوري الدكتور عبد النبي اصطيف منشورة عام ١٩٨٣ ، أورد فيها عدداً من المراجع المتعلقة بنظرية التلقي ، بينها كتابا فولفغانغ إيزر " فعل القراء - نظرية الاستجابة الفنية " و " القارئ الضمني - أنساق التوصيل في النص القصصي من بوينان إلى بيكيت " . ولقد أشار المؤلف إلى هذين الكتابين ، اللذين يعتبران وثيقتين أساسيتين من وثائق نظرية التلقي / الاستقبال الأدبي في ترجمتهما الانكليزية الصادرة عام ١٩٧٨ ، لا في أصلهما الألماني ، ولم يتطرق الى محتواهما، وذلك لأنّ المقال مخصص للتعريف بكتاب " استكشافات في سيميائيات النص " للناقد الإيطالي أومبرتو ايكو (١٠) . إلا أنّ تلك البداية قد كانت بداية دالّة . ألا يقال " إنّ المكتوب يُقرأ من عنوانه " ؟ فالدكتور اصطيف قد تعرف نظرية التلقي / الاستقبال ، وهي مدرسة نقدية ألمانية المنشأ والمهاد الثقافي ، لا من خلال الاطلاع على أدبياتها بلغتها الأصلية، بل بلغة وسيطة . وهذا ما سيظل سمة ملازمة لاستيعاب هذه النظرية في العالم العربي من البداية إلى يومنا هذا .(١١)

وفي عام ١٩٨٥صدر كتاب " في مناهج الدراسات الأدبية " للناقد التونسي حسين الواد ، وقد خصص فصلاً أسماه " جمالية التقبّل"(١٢) ، عرض فيه التحوّل الذي شهده النقد الأدبي العربي من " جمالية الإنتاج " التي ترى في الأثر الأدبي تعبيراً عن المبدع ، إلى " جمالية التقبل " ، التي ترى أنّ موضوع الدراسة الأدبية " هو أن نعرف كيف أجاب الأثر الأدبي على ما لم تجب عليه الآثار السابقة من قضايا ، وكيف اتصل بقرائه وخلقهم خلقاً " (١٣) . وقد أورد المؤلف الأفكار والمفاهيم الرئيسة لنظرية " جمالية التقبل " واعتبر " هانز روبير يوص " أبرز ممثليهما . أما المفاهيم التي أوردها حسين الواد فهي ، إضافة لمفهوم " جمالية التقبل " ، " أفق الانتظار " و " المسافة الجمالية " .وكزميله

السوري عبد النبي اصطيف لم يستق حسين الواد نظرية التلقي / الاستقبال الأدبي من منابعها الأصلية ، بل استقاها من مصادر فرنسية وسيطة . فقد اطلع على كتاب " حول نظرية التقبل " لهانز روبرت يوص " (ا) في ترجمته الفرنسية الصادرة عام ١٩٧٨ . [١٤] وفي كلّ الأحوال فإنّ هذه ، وفقاً لمعلوماتنا ، هي المرة الأولى التي تُعرض فيها جمالية التلقي / الاستقبال ومصطلحاتها الرئيسة بالعربية بوضوح وبشيء من التفصيل . ولذا يمكن اعتبار ما جاء في كتاب حسين الواد أول تعريف رصين بهذه النظرية في العالم العربي . ومن الطبيعي ألاّ تخلو هذه البداية من مشكلات ، وبصورة خاصة على صعيد المصطلح النقدي . فقد صاغ المؤلف معادلات مصطلحية عربية لمصطلحات نقلها عن الفرنسية دون أن يعرفها في صورتها الأصلية (الألمانية).

وهذه المصطلحات هي :

بالعربيــــة	بالألمـــانية	بالفرنسيـــة
جمالية التقبل	Rezeptionsasthetik	Esthe'tique de la Re'ception
أفق الانتظار	Erwartungshorizont	Horizon d;attente
المسافة الجمالية	Asthetische Distanz	Distance Esthetique

لقد صاغ حسين الواد هذه المصطلحات صياغة لايقرّه فيها المطلعون على نظرية التلقي / الاستقبال في صورتها الألمانية .

وفي عام ١٩٨٦ صدر مقال للناقد السوري الدكتور نعيم اليافي بعنوان " القارئ والنص " ، وهو مقال ليس له علاقة بنظرية التلقي /

الاستقبال الأدبي المعاصرة التي طورّها الناقدان الألمانيان هانس ـ روبرت ياوس (Hans Robert Jauss) وفولفغانغ إيزر(Wolfgang Iser)

بقدر ما له علاقة بنظرية القراءة واستجابة القارئ ، وهي نظرية ذات مرجعية فكرية أنجلو ـ أمريكية . فقد استعان المؤلف بنظرية " الخبرة الجماليّة " لجون ديوي وبمقولات بعض النقاد الأنجلو ـ أمريكيين من أمثال س . هايمان و ر. هاملتون (١٥) ، ولم يشر إلى التطور النظري الكبير الذي شهدته نظرية التلقي الأدبي على يد ممثلي " مدرسة كونستانس " ياوس وإيزر . ومن الملاحظ أنّ المؤلف قد رسخ في بحثه مفهوم " التلقي " على حساب مفهوم آخر بدأ ينافسه بقوة هو مفهوم " الاستقبال " ، ولكنه لم يتخلّ عن المفهوم الأخير بصورة تامة ، بل واصل استخدامه كمرداف لمفهوم " التلقي " . ومن الملاحظ أيضاً أنّ فحوى مفهوم " التلقي " الذي يستخدمه نعيم اليافي تختلف جذرياً عن فحوى " التلقي " لدى ياوس وإيزر . فالمقصود بالتلقي عند اليافي هي الاستجابة الجمالية للقارئ أو " ردة الفعل " لديه ، وهي مسألة شغلت النقد الأدبي الأنجلو ـ أمريكي في الخمسينيات وبداية الستينيات من هذا القرن . وينطبق هذا المفهوم على نوعين رئيسين من الاستجابة أو (ردة الفعل) هما : استجابة القارئ العادي واستجابة القارئ الناقد . أما " التلقي المنتج " وما ينجم عنه من تأثر إبداعي وتناصّ فهو لا ينضوي تحت هذا المفهوم . (١٦) والشيء نفسه يمكن أن يُقال عن مفهوم " الخبرة الجمالية " المأخوذ عن عالم النفس الأمريكي جون ديوي . ففحوى هذا المفهوم هو البعد الاستيعابي ، أي التطهيري والتأويلي ، لعملية التلقي ، وذلك خلافاً لمفهوم " الخبرة الجمالية " عند ياوس ، وهو مفهوم موسع ينطوي على بعدين إضافيين هما : البعد الإبداعي

المنتج والبعد التواصلي (١٧) . وهكذا أخذت تظهر في الساحة النقدية العربية بدايات بلبلة مصطلحية وفكرية فيما يتعلق بنظرية التلقي / الاستقبال الأدبي . فقد ارتفعت وتائر الحديث عن " التلقي " و"المتلقي" و " التجربة الجمالية " في النقد الأدبي العربي المعاصر ، ولكنّ مضامين هذه المصطلحات تختلف باختلاف المرجعيات الفكرية لمستخدميها . فالمصطلحات النقدية واحدة ، ولكنّ المفاهيم ليست واحدة . وتلك إحدى المشكلات الرئيسة للنقد الأدبي العربي المعاصر .(١٨)

٣ـ ٢ـ مرحلة جديدة :

وفي أواخر الثمانينيات بدأت جهود عربيّة جديدة لاستيعاب نظرية التلقي / الاستقبال الأدبي وذلك من خلال تعريب بعض كتابات أعلام مدرسة " كونستانس " وهانس ـ روبرت ياوس بصفة خاصّة . فقد نشرت مجلة " الفكر العربي المعاصر " البيروتية عام ١٩٨٦ ترجمة عربية لمقالة بعنوان " جمالية التلقي والتواصل الأدبي " ، وقد أنجز الترجمة عن الفرنسية الناقد المقارن المغربي د . سعيد علوش (١٩) . وبعد ذلك بعامين نشرت مجلة " العرب والفكر العالمي " ترجمة عربية لمقالة أخرى لياوس عنوانها " علم التأويل الأدبي حدوده ومهماته " ، وقد تمت هذه الترجمة أيضاً عن الفرنسية (٢٠) . لقد أتاحت هاتان المقالتان للرأي العام العربي أن يتعرف نظرية التلقي / الاستقبال الأدبي بقلم مؤسس هذه النظرية ، ولكنّ المقالتين المذكورتين لا تفيان بالغرض ، وقد انطوتا على ما تنطوي عليه الترجمة عن لغة وسيطة من مشكلات . فاسم المؤلف (Hans Robert Jauss) تحول الى هانز روبير / روبيرت جوس)

بعد أن كان حسين الواد قد قدمه تحت اسم " هانز روبير يوص " . وسيشهد اسم ياوسّ في مرحلة لاحقة تنويعات جديدة مثل " يوس " و " جوز " ، ليرتفع عدد تلك التنويعات إلى خمس . ومردّ ذلك هو تعدد اللغات الأجنبية التي استُخدمت مصدراً للنصوص الياوسية ، وتعدد طرائق المترجمين والمؤلفين العرب في نقل الأسماء الأجنبية إلى العربية . إلاّ أنّ الأهمّ من ذلك هو أنّ مقالتي ياوسّ السابقتي الذكر اللتين عربهما الأستاذان سعيد علوش وبسام بركة قد وفرا بالعربية قاعدةً مرجعية موثوقة وسليمة لاستيعاب نظرية التلقي / الاستقبال الأدبي الياوسية ، فسدا بذلك ، وإن يكن بصورة أولية وجزئية ، ثغرة معرفية حقيقية في المكتبة النقدية العربية . ولقد برزت مشكلة تعريب المصطلح النقدي في هذين المقالين اللذين عُرضت فيهما نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي بصورة وافية نسبياً ، واستُخدم فيهما جانب كبير من الجهاز المصطلحي لتلك النظرية . وظهرت على هذا الصعيد تناقضات واختلافات بخصوص تعريب المصطلحات الرئيسة ، بل لم يكن هناك إجماع حتى على المعادل العربي لمصطلح(Rezeption) الذي سُميت النظرية بأكملها وفقاً له ، وذلك على الرغم من أنّ المقالتين قد تُرجمتا عن لغة مصدر واحدة هي الفرنسية . وفيما يلي قائمة بأهم مصطلحات نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي في صورتها الأصلية (الألمانية) وبمعادلاتها العربية المختلفة كما وردت في مقالتي هانس ــ زوبرت ياوس اللتين نقلهما إلى العربية الدكتوران سعيد علوش وبسام بركة :

المصطلح بالألمانية	في ترجمة د. سعيد علوش	في ترجمة د. بسام بركة
rezipieren	يستقبـــل	—
Rezeption	الاستقبـــال	التلقـــي
(produktive)		التلقي المنتج
Rezpient	المستقبل	
Rezeptionsasthetik	آ ـ جمالية التلقي	جمالية التلقي
	ب ـ جمالية الاستقبال	
	ت ـ الجمالية الاستقبالية	
Rezeptionsakt	فعل استقبال	
Rezeptionsgeschichichte	تاريخ استقبال	
Erwartungshorizont	أفق الانتظـــار	أفق الانتظـــار
Erfahrungshorizont	أفق التجـربة	
Hermeneutik	الهرمنوتيكية	علم التأويل
(Literarische Hermeneutik)	هرمنوتيكية أدبية	علم التأويل الأدبي
Hermeneutisch	ا ـ تأويلي	تأويـــلي
	ب ـ هرمنوتيكي	
Konkretisation	تجسيد	تجسيد
(OFFENES kUNSTWERK)	العمل الفني المفتوح	
Immanente Interpretation	الضمنية	التفسير المباشر(المحاديث)
Diskurs (Literarischer)	الخطاب الأدبي	الخطاب الأدبي
Paradigma	النمـوذج	النمـوذج
Paradigmenwechsel	تغيير النموذج	تغيير النموذج
asthetische Erfahrung	التجربة الجمالية	التجربة الجمالية
Literarische Kommunikation	التـواصل الأدبي	
asthetische Norm	المقياس الجمالي	الحكم الجمالي
ommunikative Funktion	الوظيفة التواصلية	
Poesis	الشـعرية	الشاعرية
ntertextualitat	التناص	التناص
ethodik		المنهجية
olgie		علم الفقه
ilologisch		فقهي
eritat	الغيرية	الغيرية
orizont	الأفق	الأفق
ontverschmelzung	تغيير الأفق	

إنّ الاختلاف بين سعيد علوش وبسام بركة يتعلق بالدرجة الأولى بصياغة المفهومات الأساسية لنظرية الاستقبال / التلقي ، وفي مقدمتها مفهوم " Rezeption " والمفهومات المرتبطة به أو المشتقة منه . فقد عرّب سعيد علوش هذه الكلمة تارة بـ " الاستقبال " وتارة ب " التلقي " ، وتحدث عن " جمالية الاستقبال " و " الجمالية الاستقبالة " ، و " المستقبل " ، و " فعل الاستقبال " و " تاريخ الاستقبال " ، ولكنه تحدث أيضاً عن " جمالية التلقي " . أما بسام بركة فقد اعتمد معادلاً مصطلحياً واحداً لـ (Rezeption) هو " التلقي " ، فتحدث عن " التلقي المنتج " و " جمالية التلقي " ، وهذا من حيث المبدأ هو الحل الأفضل لترجمة المصطلح . وتلاحظ الظاهرة عينها بخصوص مصطلح رئيس آخر هو (Hermenutik) والصفة المشتقة منه ، (hermeneutisch) فسعيد علوش يتحدث عن " الهرمنوتيكية " وعن " هرمنوتيكي " ، ولكنه يستخدم في السياق نفسه مصطلح " تأويلي "، دون أن يلزم نفسه بصيغة واحدة للمصطلح السابق الذكر . أما بسام بركة فقد استخدم مصطلح " علم التأويل " ، وتشتق منه صفة " تأويلي " وأظهر بذلك حزماً في الشؤون المصطلحية . إلاّ أنه من الملاحظ أنّ المترجمين كليهما قد اتفقا على تعريب مصطلح رئيس ثالث هو (Erwartungshorizont) بـ " أفق الانتظار " ، وهي الترجمة العربية للمفهوم الفرنسي (Horizon d'attente) وفي رأينا فإنّ المترجمين قد جانبهما الصواب في ذلك ، بسبب عدم معرفتهما الصورة الأصلية ، أي الألمانية ، لهذا المفهوم المؤلّف من كلمة مركبة من اسمين هما: (Erwartung)أي (التوقع) و (Horizont) ، أي (الأفق) [٢١] واسم ((Erwartung)) مشتق من فعل(erwarten)(يتوقع) ، لامن (فعل) (warten) (ينتظر) ، علماً بأنّ الفعلين مشتقان من جذر واحد، والفرق بينهما مقتصر على مقطع (-er) ، إلا أنّ الفارق الدلالي واضح وغني عن الشرح [٢٢] . ولكنّ ذلك الفرق قد فات ناقل كلمة (Erwartungshorizont) من الألمانية إلى الفرنسية ، فوقع في خطأ

ترجمي واضح ، ثمّ جاء المترجمون والمؤلفون العرب الذين يستخدمون الفرنسية لغة مصدر وأخذوا بهذه الصيغة الخاطئة . أمّا الترجمة الصحيحة فهي " أفق التوقع " أو " أفق التوقعات " . وثمة إشكال ترجمي مصطلحي يتعلق بمفهوم (immanente Interpretation) ، الذي ترجمه سعيد علوش بـ " التفسير الضمني " ، بينما استخدم بسام بركة تعبير " التفسير المباشر " ، وأضاف إلى ذلك صفة (محايث) واضعاً إياها بين هلالين ، مما أوقع القارئ في حيرة شديدة . فهل العلاقة بين صفتي (مباشر) و (محايث) علاقة ترادف ؟ وفي كلّ الأحوال فإنّ تعريب كلمة (immanent) بـ (مباشر) هو تعريب خاطئ، والترجمة الصحيحة لهذه الكلمة هي "ضمني " [٢٣] .إلا أنّ المهمة الترجمية المصطلحية الأكثر إلحاحاً تتمثل في التوصل إلى معادلات عربية لمصطلحي (Rezeption) و(Hermeneutik)وما يتفرع عنهما ويُشتَق منهما من مصطلحات . وفي رأينا فإن لترجمة المصطلح الأول بـ " استقبال " عدة فوائد ، أبرزها أنّ هذه الكلمة هي المعادل الأصحّ معجمياً [٢٤] ، وأنّ الاشتقاق من فعل (استقبل) أيسر من الاشتقاق من فعل (تلقى) المعتل الآخر ، ناهيك عن أنّ هذا الفعل ليس المعادل المعجمي الصحيح لفعل (rezipieren) الألماني [٢٥] . إلاّ أنه من جهة أخرى لا مجال لإنكار أنّ مصطلح "التلقي " قد حظي في النقد الأدبي العربي بانتشار يفوق بكثير انتشار مصطلح (الاستقبال) ، وهذا ينطبق أيضاً على مصطلحي (التلقي) و (تلقى)، فهما أكثر وروداً في الأدبيات النقدية العربية من " المستقبل " و"استقبل". ولهذا فإنّ الدعوة للتخلي عن مصطلح " التلقي " وتفرعاته لن يكتب لها نجاح كبير ، ونتوقع أن يستمر التنافس بين هاتين الصيغتين طويلاً ، علما بأنّ الصيغة الرديفة الثالثة ، أي (التقبّل) لم تخلُ الساحة النقدية العربية بصورة كاملة [٢٦] . وفي المرحلة الراهنة نعثر في الأدبيات النقدية العربية على الـ [illegible] لاث أمـا فيما يتعلق بمصطلح (Hermeneutik) ، وهو مصطلح فلسفي معروف عربياً تحت اسم " علم التأويل " [٢٧] فليس

هناك ما يسوّغ ترجمته بـ (الهرمنوتيكية) ، والتحدث عن " هرمنوتيكية أدبية " ، وما شابه ذلك . فمصطلح " التأويل" مصطلح فلسفي عربي مستقر ومتفق عليه ، وهو مصطلح سهل الاستعمال ، خلافاً لمصطلح " الهرمنوتيكية " الثقيل.

٣ ـ ٣ ـ الرافد الانكليزي لاستيعاب نظرية التلقي | الاستقبال

لئن كانت اللغة الفرنسية وثقافتها قد مثلتا في أول الأمر المصدر الرئيس لاستيعاب نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي في الوطن العربي فإنّ اللغة الانكليزية ما لبثت أن برزت كمصدر رئيس ثان لذلك الاستيعاب . فالمؤلفات الرئيسة لعلمي تلك النظرية " هانس ـ روبرت ياوس (H.R. Jauss) " وفولفجانج إيزر (W. Iser) قد ترجمت إلى الانكليزية (وإلى الفرنسية) بعد فترة وجيزة من صدورها بالألمانية ، وذلك لسبب معروف ، هو أنّ التبادل الثقافي من خلال الترجمة يتم بين المجتمعات الأوروبية والغربية بسرعة وكثافة ، خلافاً للتبادل الثقافي بين تلك المجتمعات وبين المجتمع العربي (٢٨) , وقد تمثل أهم نشاط على صعيد استيعاب نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي عن الانكليزية في تعريب كتاب " نظرية الاستقبال ـ مقدمة مقارنة " للناقد الانكليزي " روبرت سي هو ليوب " في مطلع التسعينات (٢٩) . إنه الكتاب الأول (والوحيد إلى الآن) بالعربية حول هذا الاتجاه النقدي الأجنبي . ولذا فهو يستحق منا وقفة متأنية .

لقد صدر هذا الكتاب في الأصل بغرض " تقديم نظرية الاستقبال لأولئك الذين يعرفون القليل أو لا يعرفون شيئاً من الألمانية "، كما يقول المؤلف (٣٠) ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى الحواجز اللغوية التي حالت دون أن يتعرف القراء الناطقون بالانكليزية تلك النظرية . وفي الواقع لقد كان للحاجز اللغوي دور كبير في بطء استيعاب نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي ذات المنشأ الألماني خارج ألمانيا . صحيح أنّ الألمانية هي لغة أكبر جماعة بشرية ضمن " الاتحاد الأوروبي"،

إلا أنها لغة محدودة الانتشار خارج الأقطار الناطقة بها . ولذا فإنّ العالم الخارجي لا يستوعب الإنجازات الثقافية الألمانية إلاّ ببطء وتأخرّ . وتنطبق هذه المقولة على استيعاب نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي في الوطن العربي ، الذي تعاني علاقاته الثقافية واللغوية بألمانيا من تأخرّ شديد ، وما زال يستوعب ما يستوعبه من الثقافة الألمانية عبر لغات وسيطة تأتي الانكليزية والفرنسية في مقدمتها ، فإذا كان استيعاب هذه النظرية في الأقطار الناطقة باالإنكليزية والفرنسية يعاني من البطء الناجم عن الحواجز اللغوية ، فمن الطبيعي أن يكون استيعابها في الوطن العربي أكثر بطأ . وعلى أيّة حال فليس من قبيل الصدفة أنّ الكتاب الوحيد الذي يعرّف القرّاء العرب بنظرية الاستقبال / التلقي هو كتاب مترجم عن الانكليزية ، وأن يتأخر صدور ذلك الكتاب إلى عام ١٩٩٢ . ولقد كان من المحتمل أن يشكّل صدور هذا الكتاب بالعربية نقلة كبيرة على صعيد استيعاب نظرية الاستقبال ـ التلقي في الوطن العربي . إلا أنّ ذلك يتوقف بالدرجة الأولى على أمرين هما :

١- مدى نجاح المؤلف روبرت سي هوليوب في عرض نظرية الاستقبال / التلقي بصورة وافية ورصينة .

٢- جودة الترجمة العربية لهذا الكتاب ، بمعنى : ١- أن تكون ترجمة كاملة للنصّ ، لا تسقط منه شيئاً . ٢- أن تكون دقيقة وأمينة في أداء المضمون الفكري للكتاب . ٣- أن تتعامل مع الجهاز المصطلحي لنظرية الاستقبال / التلقي بصورة جيدة . ٤- أن تكون سليمة من حيث اللغة ، سلسلة وأنيقة على صعيد الأسلوب .

إنّ إنجاز ترجمة تتوافر لها هذه المواصفات يتطلب أن توكل تلك المهمة الترجمية إلى مترجم يمتلك كفاءة علمية وثقافية عالية ، إلى جانب امتلاكه كفاءة لغوية متطورة على صعيد لغتي المصدر والهدف .

هل توافر الشرطان السابقا الذكر لكتاب روبرت سي هوليوب في ترجمته العربية ؟ يقدم هذا الكتاب عرضاً مبسطاً ووافياً وسلساً

لنظرية الاستقبال / التلقي الأدبي انطلاقاً من أنّ القارئ الانكليزي لا يعرف الكثير عن تلك النظرية وعن سياقها الفكري والتاريخي ، مما يزيد احتمالات إساءة فهمها ، والخلط بينها وبين نظرية " استجابة القارئ " الواسعة الانتشار في النقد الأنجلو ـ سكسوني الحديث .[٣١] وإذا كان النقص في المعلومات المتعلقة بنظرية الاستقبال / التلقي وبجذورها الفكرية والتاريخية كبيراً في الساحة الأنجلو ـ سكسونية ، فإنّ النقص السائد في الساحة العربية بهذا الخصوص أكبر بكثير [٣٢] . من هنا فإنّ اختيار كتاب روبرت سي هوليوب للترجمة إلى العربية هو اختيار صائب ، وبوسع الترجمة العربية لهذا الكتاب أن تسدّ ثغرة كبيرة في المكتبة النقدية العربية . ولكن ماذا عن الشرط الثاني ، أي جودة الترجمة؟ إنّ أوّل ما يلاحظه قارئ الترجمة العربية لكتاب هوليوب هو أنّ هذه الترجمة قد خلت من الهوامش والإحالات ، ومن فهرس للمصادر والمراجع ، مما يعني أنّ هذه الترجمة غير كاملة ، وبالتالي غير موثوقة علمياً . وعلى الصعيد اللغوي والأسلوبي من الملاحظ أنّ المترجم، الذي لا يملك خبرة ولا كفاءة ترجمية كبيرة ، لم يتحرر من إسار لغة المصدر وخصائصها النحوية والتركيبية والأسلوبية ، فجاءت الترجمة ركيكة مفككة غير مفهومة في كثير من المواضع ، تطغى العجمة على لغتها وأسلوبها ، مما يولّد في نفس القارئ الاشمئزاز . إننا أمام ترجمةتصلح لأن تدرس كنموذج للترجمة الرديئة لغة وأسلوباً . ومن البديهي أنّ أداء لغوياً وأسلوبياً سيئاً كهذا ينعكس بصورة سلبية على أداء المعنى أو المضمون الذي يتعرض للتشويه ويصبح غير مفهوم . فسلامة الأداء اللغوي والأسلوبي في الترجمة هي شرط ضروري لسلامة الأداء المعنوي أو الدلالي .

أمّا الأمر الثاني الذي يلفت انتباه قارئ كتاب " نظرية الاستقبال " فهي مجزرة أسماء الأعلام الأجانب ، والألمان منهم على وجه الخصوص ، وهي مجزرة لم يسلم منها اسم مؤلّف الكتاب نفسه (Robert C. Holub) ، الذي تحوّل بقدرة قادر إلى " روبرت سي هول " . أمّا اسم رائد نظرية الاستقبال / التلقي (Hans Robert

Jauss) فهو تارة " جوز " وتارة أخرى "ياوس " . ونظراً لأنّ المترجم قد أورد أسماء الأعلام بالعربية فقط و لم يوردها بلغتها الأصلية أيضاً ، كما هو متعارف عليه في المؤلفات الرصينة ، فقد أصبح من الصعوبة بمكان تبيّن كثير من تلك الأسماء وأصحابها . إنّ القارئ ينبغي أن يكون من " محضّري الأرواح " أو المنجمين إذا شاء أن يعرف حقاً من هو : " هوشوت " أو " ويس" ، أو " اينزسبرغ" ، أو " أندريس" أو " شليماشير " أو " لاونتال " . إنّ هذه المجزرة المخجلة ما كانت لتقع لو تقيد مترجمنا الحصيف بالتقليد الثقافي المشار إليه آنفاً ، ولكن يبدو أنّ الاستخفاف بالمتلقي وبالجمهور قد تخطّى كل الحدود .

ومن الأمور التي تستحقّ أن يتوقف المرء عندها في سياق الحديث عن هذا الكتاب مسألة المصطلح النقديّ . فنظراً لأنّ هذا الكتاب ينطوي على أوسع عرض لنظرية الاستقبال / التلقي بالعربية ، فإنه مؤهّل لأن يقدّم مساهمة جوهرية في بلورة الجهاز المصطلحي لتلك النظرية وترسيخه . وعلى هذا الصعيد كان بوسع المترجم أن يستفيد من الجهود المصطلحية التي بذلها زملاؤه حسين الواد وسعيد علوش وبسام بركة ، إلاّ أنه ليس هنالك ما يشير أو يدل على أنّ رعد حواد قد استفاد من تلك الإمكانية ، بل إنّ كلّ القرائن تدلّ على أنّ المترجم ليس على اطلاع على ما بذله سابقوه من جهود على صعيد استيعاب نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي وصياغة مصطلحاتها النقدية بالعربية . فهل يمكن أن يتوحّد الجهاز المصطلحي لهذه النظرية ويستقرّ إذا قام المترجمون اللاحقون بتجاهل ما أنجزه سابقوهم ؟!

مهما يكن من أمر فإنّ مترجم كتاب " نظرية الاستقبال " قد قدّم حلولاً للمسائل المصطلحية المتعلقة بتلك النظرية ، وهي حلول لا بدّ من إخضاعها للدراسة والتحليل والتقييم .إنّ أوّل ما يلاحظه المرء على هذا الصعيد هو أنّ المترجم قد حزم أمره فيما يتعلق بتعريب مصطلح (Rezeption) لصالح صيغة (الاستقبال) ، وأعرض عن البديلين الآخرين : " التلقي " و " التقبّل" . وهو يتحدث عن " جماليّة الاستقبال

" و "الاستقبال الكوني " , و" الاستقبال المنتج " و " المستقبل" و "استقباليّة الخبرة " و " سوسيولوجيا الاستقبال " . وفيما يتعلق بالمفاهيم الرئيسة الأخرى لنظرية الاستقبال / التلقي فقد عربها المترجم على النحو الآتي :

المصطلح بالألمانية	الترجمة العربية	ملاحظات والصيغة البديلة
astheitische Erfahrung	الخبرة الجمالية	التجربة الجمالية
asthetische Distanz	المسافة الجمالية	التباعد الجمالي
Apologie	اعتذار	أسس ـ نظرية ـ دفاع
Akt des Lesens	سلوكيات القراء	فعل القراءة ـ عملية القراءة
Erwartungshorizont	أفق التوقعات	
Geschmack	الذائقة	الذوق
Hermeneutik	التأويل (الأدبي)	علم التأويل (الأدبي)
(Literarische)	التأويلية	
Horizont -verschmelzung	آفاق مدمجة / دمج الآفاق	انصهار الآفاق
.historischer H	أفق التاريخ	الأفق التاريخي
.individueller H	أفق الفرد	الأفق الفردي
immanente Interpr etation	التحليل الداخلي	التفسير الضمني
Kommunikation	الاتصالية	التواصل
Kommunikativ	اتصالي	تواصلي
Leerstelle	الفراغ ـ الشاغر	الموضع الفارغ
Negative Asthetik	جمالية السلبية ـ جماليات السلبية	الجمالية السلبية
Provokation	المثير	الاستفزاز / التحدي
Realisation	التجسيم / المحسوسات	التجسيد /التحقق
Repertpoire	ذخيرة	احتياطي / مخزون
Sinnpotential	الموضوع الكامن	المعاني الممكنة
Thema	الثيمة	الموضوع
Wirkungsgeschichte	التاريخ الفعال/ التاريخ المؤثر	تاريخ الفعالية / تاريخ التأثير

إذا أنعم المرء النظر في الحلول التي قدمّها المترجم لمشكلات تعريب مصطلحات نظرية الاستقبال / التلقي فإنّه يجد أنّ قسماً كبيراً من المعادلات المصطلحية التي استخدمها بعيد عن الصواب وغير مناسب ، لأنه يقوم على إساءة فهم أو على عدم فهم المصطلح النقدي الأجنبي (وعدم فهم محتوى النص المترجم نفسه) ، أي إلى عدم توافر شرط ضروري ولازم لأية ترجمة صحيحة . فالترجمة العربية لكتاب روبرت سي هوليوب تحوي مؤشرات كثيرة تدلّ على أنّ المترجم قد نقل إلى العربية نصاً لم يفهمه أو أساء فهمه جزئياً أو كليّاً في لغة المصدر ، وذلك نتيجة لنقص في كفاءته اللغوية والعلمية والثقافية . أما السبب الثاني الذي ترجع إليه رداءة الترجمة فيتمثل في عدم امتلاك المترجم تلك الكفاءة على صعيد لغة الهدف أيضاً ، مما جعله غير قادر على أداء مضمون النصّ بالعربية أداء سليماً وواضحاً . وقد ظهر هذا النقص في الكفاءة الترجمية بشكل خاصّ على الصعيد المصطلحي . فالنص حافل بمصطلحات لم يسمع بها ، ولن يفهمها قارئ عربي مهما أجهد نفسه، وهذه عينة من تلك " المصطلحات " : الفردانية الإبداعية ـ الوظيفة التلقائية ـ المهيمنات ـ المعالجة الجوهرية ـ البنى المخططة ـ المصادرة الدورية ـ الشخصانية الجمالية ـ ويلهلمان ألمانيا ـ الشعرية الأدبية الوطنية ـ النموذج الغنائي ـ التخفيضات ـ تاريخ الروح ـ اللغويات النصّية ـ الموضوعانية ـ المعنى السرمدي ـ المنهج المتزامن ـ عدم التعاصر ـ النموذج التطويري ـ التاريخانية ـ النفاذية ـ تجارة اللغة ـ الايروس ـ الاستجابة الكونية ـ الباحث الرومانسي (في آداب اللغات الرومانية الأصل) ـ الرأي التساؤلي ـ البناء الاتساقي ـ اللاتساوق ـ الفراغ التيمي ـ القراءة المضيئة ـ النفي الثانوي ـ المزاوجة المشكّلة ـ اللاتشكيلة " . إنّ خلطاً مصطلحياً كهذا يرجع إلى عدم إحاطة المترجم بمصطلحات نظرية الاستقبال وبمعانيها في لغة المصدر ، أو لغة الهدف ، أو في الاثنتين معاً ، وإلى عدم إلمامه بعلم المصطلح .

وفي كلّ الأحوال فإن الترجمة العربية لكتاب روبرت سي هوليوب ، التي كان من الممكن أن تشكّل قفزة كبيرة إلى الأمام على صعيد استيعاب نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي في العالم العربي ، قد شكّلت انتكاسة كبيرة لذلك الاستقبال على المستويات كلّها . ولئن كان لهذه الترجمة من فائدة فهي تتمثل في أنها قدّمت نموذجاً سلبياً ملموساً لترجمة النصوص النقدية الأجنبية إلى العربية . ومن الطبيعي أن تقدّم ترجمات رديئة كهذه حججاً لدعوات الانعزالية الثقافية ، ولن يدهشنا البتة أن ترتفع إثر صدور ترجمات من هذا النوع أصوات تنادي بوضع حدّ للفوضى الفكرية والمصطلحية في الساحة النقدية العربية .

لم يشكّل كتاب روبرت سي هوليوب الحلقة الأخيرة في استيعاب نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي في الوطن العربي ، فقد قامت مجلتا (آفاق) و (دراسات لسانية وسيميائية) المغربيتان حديثاً بتخصيص ملفين لتلك النظرية ، ونشرت جريدة (أنوال) اليومية المغربية سلسلة مقالات في الموضوع نفسه (٣٣) ، وهذا يدلّ على استمرار الاهتمام العربي بنظرية الاستقبال / التلقي الأدبي ، بل على تنامي الاهتمام بتلك النظرية في الساحة المغربية على وجه الخصوص ، وقد يحمل لنا المستقبل القريب مفاجآت على هذا الصعيد .

٤- خلاصة واستنتاجات :

ماذا يُستخلص من هذا العرض التاريخي النقدي لاستيعاب نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي في الوطن العربي ؟ إن أهمّ النتائج التي يمكن استخلاصها هي في رأينا :

١- إنّ ما صدر بالعربية إلى الآن حول تلك النظرية لا يمكن أن يُعتبر أساساً علمياً رصيناً وافياً لاستيعابها . فهو ـ بصرف النظر عن كتاب هوليوب ـ يتألف بالدرجة الأولى من عدد محدود جداً من المقالات المترجمة ، التي صدر بعضها في المشرق العربي والبعض الآخر في

مغربه ، وهو في جميع الأحوال لا يقدّم للرأي العام العربي أكثر من صورة مشوّهة ممسوخة عن نظرية الاستقبال / التلقي . إنّ الوثائق والكتابات الرئيسة لتلك النظرية ، أي مؤلفات ياوس وايزر ، لم تترجَم بعد إلى العربية ؛ وقبل ذلك لا يمكن التحدّث عن استيعاب جادّ أو رصين .

٢- إنّ ما صدر بالعربية إلى اليوم حول نظرية الاستقبال / التلقي من ترجمات وكتابات لا يستند إلى المرجعية الأصلية (اللغوية والثقافية)) لتلك النظرية ، بل يستند إلى مرجعية لغوية وثقافية وسيطة (إنكليزية أو فرنسية) مما ضاعف من احتمالات سوء الفهم الفكري والمصطلحي.

٣-لم يكن الاستيعاب العربي لنظرية الاستقبال / التلقي الأدبي وليد تفاعل ثقافي مباشر بين الساحتين الثقافيتين العربية والألمانية ، بل وليد التفاعل مع ساحتين ثقافيتين وسيطتين ، مما أدى أيضاً إلى تأخر ذلك الاستيعاب . فالوثائق الأساسية لتلك النظرية قد صدرت بين أواخر الستينيات ومطلع الثمانينيات ، بينما لم يبدأ استيعابها عربياً إلاّ في النصف الثاني من الثمانينيات ، ولم يشمل بعد المؤلفات النظرية الرئيسة لياوس وايزر . وهذه حالة إضافية تؤيدّ وجهة النظر الواسعة الانتشار القائلة بأنّ العرب لايبدأون باستيعاب الاتجاهات النقدية الأجنبية إلاّ بعد أن تتقادم تلك الاتجاهات ويتمّ تجاوزها في ثقافتها الأصلية من قبل اتجاهات جديدة .

٤- لم يشهد ذلك الاستيعاب تراكماً معرفياً يفضي إلى تقدّم شاقولي باتجاه العمق ، بل راوح في مكانه عند مستوى معيّن من المعلومات والمعارف . وسبب ذلك هو أنّ الاستيعاب المذكور قد اقتصر على حلقات أو نشاطات مبعثرة ، لايربط بينها رابط من أيّ نوع ، ولاتسترشد بخطّة ، ولم يقم بين أصحابها أيّ تواصل . فكل من هؤلاء يتصرّف ضمنياً وكأنه الرائد الأول والسابق إلى اكتشاف نظرية الاستقبال / التلقي .

٥- شكّلت الفوضى المصطلحية أوضح تعبير وأبرز مظهر من مظاهر الأزمة التي يعاني منها استيعاب نظرية الاستقبال / التلقي في الوطن العربي . إنّ ما يقارب عقداً من الزمن لم يكن كافياً للتوصل إلى صيغة عربية موحّدة للمصطلحات الرئيسة ، ولا حتى لتسمية هذه النظرية ، وإلى يومنا هذا تتعايش في الساحة النقدية العربية ثلاث صيغ هي " التلقي " و " الاستقبال" ، " التقبّل " . ولئن كانت تلك هي حال المصطلح الأول ، فما بالك بالمصطلحات الأخرى ؟!

٦- إنّ نظرية نقدية تلك أوضاع استيعابها عربياً لن تكون فرص الاستفادة منها تطبيقياً في التعامل مع الإبداعات الأدبية العربية كبيرة . فالاستيعاب الجادّ الرصين لأية نظرية نقدية هو المقدمة الضرورية لاستخدام تلك النظرية تطبيقياً .

٧- ونظرية نقدية ذلك هو مستوى استيعابها عربياً لن تكون قادرة على محاورة الاتجاهات النقدية الأخرى المتواجدة في الساحة العربية . فمحاورة تلك الاتجاهات تتطلب درجة كافية من التقدم ووضوح الماهية . ونظرية لم تتضح معالمها وأسسها ومصطلحاتها ، بل لا تعرف على وجه الدقة أسماء أعلامها ، هي نظرية غير مؤهّلة لأن تحاور النظريات والاتجاهات النقدية الأخرى . وبالفعل فإننا لا نعرف حالة واحدة تمّ فيها حوار كهذا .

وباختصار فإنّ رداءة استيعاب نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي في العالم العربي قد حالت دون أن تتمكن تلك النظرية من القيام بدور مفيد في الساحة النقدية العربية المعاصرة ، وحوّلت ذلك الاستيعاب إلى مصدر إضافي للبلبلة الفكرية والمصطلحية . إلاّ أنه لايجوز لهذه الحقيقة المؤسفة أن تحجب عن أبصارنا حقيقة أهمّ ، ألا وهي أنّ نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي هي أحد التيارات والاتجاهات الأساسية في النقد الأدبي العالمي المعاصر ، وأنّها منهج نقدي يناقش في المحافل النقدية الدولية بشكل جدّي ، وأنّ ظهورها قد مثل نقطة تحوّل في تاريخ النقد الأدبي المعاصر (٣٤) . إنّ دراسات الاستقبال / التلقي الأدبي بأشكالها

المختلفة تشغل حيّزاً كبيراً من رقعة الدراسات النقدية المعاصرة في العالم، وإذا كانت تلك الدراسات قد أغنت الحياة النقدية والأدبية في ثقافات ومجتمعات كثيرة استوعبت نظرية الاستقبال / التلقي استيعاباً جدّياً لائقاً ، فمن المؤكد أنّ النقد الأدبي العربي يمكن أن يجني بدوره من هذه النظرية فوائد كبيرة .

ولكنّ ذلك يتوقّف أوّلاً وقبل أيّ شيء آخر على استيعابها بالجدّية والرصانة اللتين بينّا مقوماتهما في بداية هذه الدراسة . ومن المؤكّد أنّ هذه المقولة لا تنطبق على نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي وحدها ، بل تنطبق أيضاً على الاتجاهات والنظريات والمناهج النقدية الأجنبية كلّها .. فبقدر ما نستوعبها بصورة رصينة وجدّية ، بقدر ما نكون قادرين على امتلاكها وتحويلها إلى عامل إغناء وتطوير للنقد الأدبي العربي المعاصر . وبقدر ما نسيء استيعاب تلك الاتجاهات والنظريات ، (وهذا ما يعتبر استيعاب نظرية الاستقبال / التلقي الأدبي مثالاً له) بقدر ما يتحوّل ذلك الاستيعاب إلى مصدر لتلك الفوضى الفكرية والمصطلحية التي كثر التذمر منها في الساحة النقدية العربية .

■

الهوامش :

(١) جرت بين الثقافتين العربيـة والأوروبيـة عمليـة مثاقفـة مبكّرة إبـان العصـر العباسي ، ولكن العرب لم ينجحوا آنذاك في استيعاب الفكـر النقـدي اليونـاني القديم بصورة صحيحة .

راجع بهذا الخصوص : عباس ، إحسان (١٩٩٣) ص ٢٦ وما يليها ، الخوري ، شحادة (١٩٨٨) ص ٤٦

(٢) يرجع الفضل في بلورة هذه المقولة إلى عالم الأدب المقـارن الروسـي الشـهير فيكتور جيرمونسكي . راجع بهذا الشأن كتابنا (١٩٩١) ، ص ٢٢٧ .

(٣) كان الناقد الدكتور محمد مندور من أوائل المثقفين العرب الذين وعـوا هـذه المسألة . راجع كتابه (١٩٨٣) .

(٤) راجع : تامر ، فاضل (١٩٩٤) ، ص ١٦٩ - ١٨٣ .

(٥) من المؤلفين العرب الذين سعوا إلى تقديم الاتجاهات النقدية الأوروبية للرأي العام العربي بأقلامهم وليس من خلال الترجمة الدكتور صـلاح فضـل في كتابيـه المتعلقين بـ (الواقعية) (١٩٨٧) و "البنيوية" (١٩٨٧) .

(٦) من النقاد العرب الذين دعوا في وقـت مبكـر إلى الحـذر في تطبيـق الأفكـار النقدية الغربية على الإبداع الأدبي العربي الدكتور محـمـد منـدور . راجـع كتابـه (١٩٨٣) ،ص٦٨ .

(٧) لقد برهن عدد لا يستهان به من النقاد العرب المعاصرين ، من أمثال كمـال أبو ديب ومحمد براده وسعيد يقطين ويمنى العيد وعبد الكريـم حسـن وعبـد الله الغذامي ومحمود أمين العالم وغيرهم على إمكان استخدام المناهج النقديـة الغربيـة الحديثة في التعامل التطبيقي مع النتاجات الأدبية العربية .

(٨) راجع : الوا ، حسين (١٩٨٥) ، ص ٥٥ - ٨٢ .

(٩) راجع على سبيل المثال لا الحصر : درويش ، العربي حسن (١٩٩١)

(١٠) راجع : اصطيف ، عبد النبي (١٩٨٣) و (١٩٨٦)

(١١) لم يترجم حتى اليوم أي شيء يتعلق بنظرية الاستقبال الأدبي عن الألمانية مباشرة ، رغم وجود عدد كبير من المتخصصين في الأدب الألماني .

(١٢) راجع : الواد ، حسين (١٩٨٥) ، ص ٥٩ـ ٨٢ .

(١٣) نفسه ، ص ٧٨ . (١٤) نفسه ، ص ٨١ .

(١٥) راجع : اليافي ، نعيم (١٩٩٢) ص ٥٩ وما يتبعها .

(١٦) راجع بهذا الخصوص كتابنا (١٩٩١ - ١٩٩٢) ، الفصل المتعلق بالتأثر الابداعي ، ص ٢٢٤ وما يتبعها ، وراجع المقدمة النظرية لكتابنا (١٩٩٣) ، ص ١١- ٢٥ .

(١٧) راجع بهذا الشأن Jauss , Hans Robert (1982)

(١٨) لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة راجع : تامر ، فاضل (١٩٩٤) ، ص ١٦٩ - ١٩٢ .

(١٩) راجع : جوز ، هانز روبير (١٩٨٦) . (٢٠) نفسه (١٩٨٨).

(٢١) تمتلك اللغة الألمانية خاصية دمج كلمات مختلفة في كلمة واحدة ، دون اللجوء إلى صيغة الإضافة .

(٢٢) راجع Schregle , Gotz (1977)

(٢٣) نفسه . (٢٤) نفسه . (٢٥) نفسه .

(٢٦) راجع : البشير محمد الحاجي (١٩٩٤)

(٢٧) راجع بهذا الخصوص : صليبا ، جميل (١٩٨٢) ، ص ٢٣٤.

(٢٨) راجع بهذا الخصوص : اصطيف ، عبد النبي (١٩٨٣) وتاديه ، جان ايف (١٩٩٣) ، ص ٢٦١ .

(٢٩) راجع : هوليوب ، روبرت سي (١٩٩٢)

(٣٠) نفسه ، ص ٩ .

(٣١) راجع هوليوب ، روبرت سي (١٩٩٢) ، ص ٩ ومايتبعها .

(٣٢) صدرت في النصف الثاني من السبعينيات ترجمات إنكليزية وفرنسية لبعض مؤلفات ياوس وايزر الرئيسة ، بينما لم يُنقل إلى العربية حتى اليوم أيّ من تلك المؤلفات .

(٣٣) راجع علابو ن ، عزيز (١٩٩٣) .

(٣٤) راجع بهذا الشأن : Zima , Peter V. (1991) , S. 215 ff

المراجع :

١- بالعربية :

- اصطيف ، عبد النبي (١٩٨٣) : في البحث عن دور القارئ . مجلة (المعرفة)، دمشق ، العدد ٢٥١ ، ١٩٨٣ ، ص ١٤٤ - ٢٥٠ .

- اصطيف ، عبد النبي (١٩٨٦) : القارئ والنص ، استجابة متلق . مجلة (المعرفة) ، العدد ٢٩٨ - ٢٩٩ ، ص ٢٣٣ - ٢٤٢ .

- البازي ، عبد اللطيف (١٩٩١) : صورة المتلقي في القصيدة العربية المعاصرة . مجلة (آفاق) ، الرباط ، ١٩٩١/٢ ، ص ٨٥ - ١٠٤ .

- البشير ، محمد الحاجي (١٩٩٤) : الإنتاج الشعري والتقبّل . مجلة (كتابات معاصرة) ، بيروت ، العدد ٢٠ ، كانون الثاني ١٩٩٤ ، ص ١٧ - ٢٢ .

- تاديه ، جان - ايف (١٩٩٣) : النقد الأدبي في القرن العشرين . تر . قاسم مقداد ، دمشق ، وزارة الثقافة .

- تامر ، فاضل (١٩٩٤) : اللغة الثانية . الدار البيضاء - بيروت ، المركز الثقافي العربي .

-جوز ، هانز روبير (١٩٨٦) : جمالية التلقي والتواصل الأدبي . تر. سعيد علوش . مجلة (الفكر العربي المعاصر) ، بيروت ، العدد ٣٨، آذار ١٩٨٦ ، ص ١٠٦ - ١١٦ .

- جوز ، هانز روبيرت (١٩٨٨) : علم التأويل الأدبي حدوده ومهماته . تر. بسام بركة ، مجلة (العرب والفكر العالمي) ، بيروت ، العدد ٣/ ١٩٨٨ ، ص ٥٣ - ٦٠ .

- الخوري ، شحادة (١٩٨٨) : الترجمة قديماً وحديثاً . تونس ، دار المعارف .

- درويش ، العربي حسن (١٩٩١) : النقد الأدبي الحديث . القاهرة ، مكتبة نهضة مصر .
- صليبا ، جميل (١٩٨٢) : المعجم الفلسفي ، ج١ ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني .
- عباس ، إحسان (١٩٩٣) : ملامح يونانية في الأدب العربي ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات ، ط٢ .
- عبود ، عبده (١٩٩١) - ١٩٩٢) : الأدب المقارن - مدخل نظري ودراسات تطبيقية . حمص ، منشورات جامعة البعث .
- عبود ، عبده (١٩٩٣) : الرواية الألمانية الحديثة . دراسة استقبالية مقارنة . دمشق ، منشورات وزارة الثقافة .
- عزيز ، علابوش (١٩٩٣) : نظريات التلقي . جريدة (أنوال) ، المغرب ، ٤/١٢/١٩٩٣ .
- فضل ، صلاح (١٩٨٧/آ) : منهج الواقعية في الإبداع الأدبي . بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ط٢.
- فضل ، صلاح (١٩٨٧/ب) : نظرية البنائية في النقد الأدبي . بغداد ، دار الشؤون الثقافية .
- مندور ، محمد (١٩٨٣) : في الميزان الجديد . القاهرة ، دار نهضة مصر ، ط٣.
- الواد ، حسين (١٩٨٥) : في مناهج الدراسة الأدبية . تونس : سراس للنشر.
- هول ، روبرت سي (١٩٩٢) : نظرية الاستقبال - مقدمة نقدية . اللاذقية : دار الحوار .
- اليافي ، نعيم (١٩٩٢) : المغامرة النقدية ـ دراسات أدبية . دمشق : اتحاد الكتاب العرب .

Holub, Robert C. (1989):Reception Theory critical Introduction .- London New York .

--Iser, Wolfgang (1985) : L'Acte de Lecture . Bruxelles.

-Jauss, Hans Robert (1978) : Pour une esthetique de la reception. Paris.

-Jauss, Hans Robert (1982) : Asthetische Erfahrung und Literarische Hermeneutik. Frankfurt / M.

-Schregle, Gotz (1977) : Deutsch - arabisches Worterbuch. Wiesbaden.

-Zima , Peter V. (1991) : Literarische Asthetik . Tubingen .

***

عبود ، د. عبده ، هجرة النصوص ، دراسة ،

الطبعة الأولى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،

٢٥٦ ص ، قطع ١٧,٥ × ٢٥ سم .

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٥/٩/٢٠٠٠

اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITERS UNION
DAMASCUS دمشق

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب البحث في جملة من النصوص العربية والغربية للمقارنة، وبيان الأسبقية، وتوافق الروح الإبداعية، بعيداً عن توصيفات الأمكنة جغرافيا وسياسياً واجتماعياً، وبأسلوب علمي رصين عرف به المؤلف.

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

دمشق

ثمن النسخة ١٦٠ ل.س في القطر

٢١٠ ل.س في أقطار الوطن العربي